



الدكتور محمود فرزات

صفحاتٌ من ذاكرتِي

الجزء الأول

الدكتور محمود فرزات

صفحاتٌ مِنْ ذَاكِرَتِي
الجزءُ الأوَّل

لماذا هذا الكتاب؟

في هذا الكتاب تحدثت عن طفولتي، ومسقط رأسي، الرستن، في خمسينات القرن العشرين، كنموذج لريف بلاد الشام، من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

تحدثت عن والدي كنموذج لصغار الملاكين في الريف السوري وعن النهضة النوعية في المجال التعليمي والاقتصادي الاجتماعي التي حدثت في تلك الفترة. الجد كان أمياً، والأب كان أمياً. أما الحفيد فلم يكتف بمحو الأمية أو نيل الشهادة الثانوية أو حتى الإجازة الجامعية، بل حصل على دكتوراه فلسفة في العلوم الكيميائية.

وهذا لم يقتصر عليه، وإنما على شريحة لا بأس بها من سكان الرستن وبقي المدن والأمصال.

هذا دليل على قفزة نوعية في جميع المجالات، كانت نتيجة طبيعية لثورة العلم والتكنولوجيا في العالم بعد الحرب العالمية الثانية.

إن مدينة الرستن كانت مهجورةً لمدة طويلة قبل عام أربعين وثمانمائة وألف شأنها شأن معظم أرياف بلاد الشام، بسبب انتشار الأوبئة وفقدان الأمن، حيث توافد عليها سكانها الحاليين بعد ذلك التاريخ.

هذه البلدة التي بلغ عدد سكانها أقل من ألفي نسمة بموجب إحصاء جرى في مطلع العقد الثالث من القرن العشرين، استقبلت القرن الواحد والعشرين وسكانها

حوالي خمسين ألفاً ، أي تضاعف عدد سكانها خمسة وعشرين مرةً في أقل من ثمانين عاماً .

وهذا مؤشر واضح على توطد الأمن وانتشار الوعي وتحسين الواقع الاقتصادي .

أوليس التكاثر السكاني ، وزيادة متوسط عمر الإنسان ، دليل على التطور ؟

لكن الغاية الأهم لهذا الكتاب ، هي المرحلة الواقعة ما بين أعوام تسعة وسبعين ، وثلاث وثمانين وتسعمائة وألف ، وهي السنين الخمس العجاف في حياتي .

فبالرغم من كوني أحمل شهادة الدكتوراه ، وبالرغم من الدعم المادي والمعنوي من قبل والدي الحاج سليمان ، وبالرغم من الثورة الاقتصادية غير المسبوقة لتلك الفترة من عمر منطقتنا الناجمة عن تضاعف أسعار النفط أكثر من عشر مرات خلالها ، وبالتالي توفر السيولة غير المسبوقة في العالم العربي في تلك المرحلة .

رغم كل ذلك ، فقد كانت تلك السنوات عجافاً جداً بالنسبة لي ، جميع الأبواب موصدة في وجهي ، بذلت مئات المحاولات ، فقط للحصول على عمل ، حتى أبسط الأعمال التي كنت أعتقد أن بإمكاني القيام بها لكن دون جدوى .

مرات كثيرة تساءلت عن السبب لكنني لم أحصل على إجابة .

لهم يعتنني الوهن ، لم يقترب مني الإحباط ، كنت دائماً أحاسب نفسي ، كنت دائماً أقول: إني إذا لم أحل حراماً ، أو أحرم حلالاً ، فلن يخذلني الله أبداً . وكان ذلك والحمد لله .

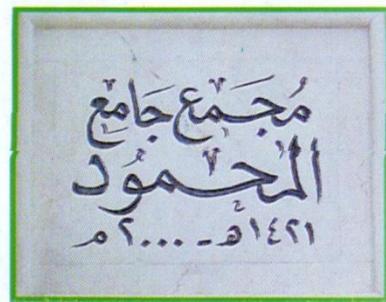
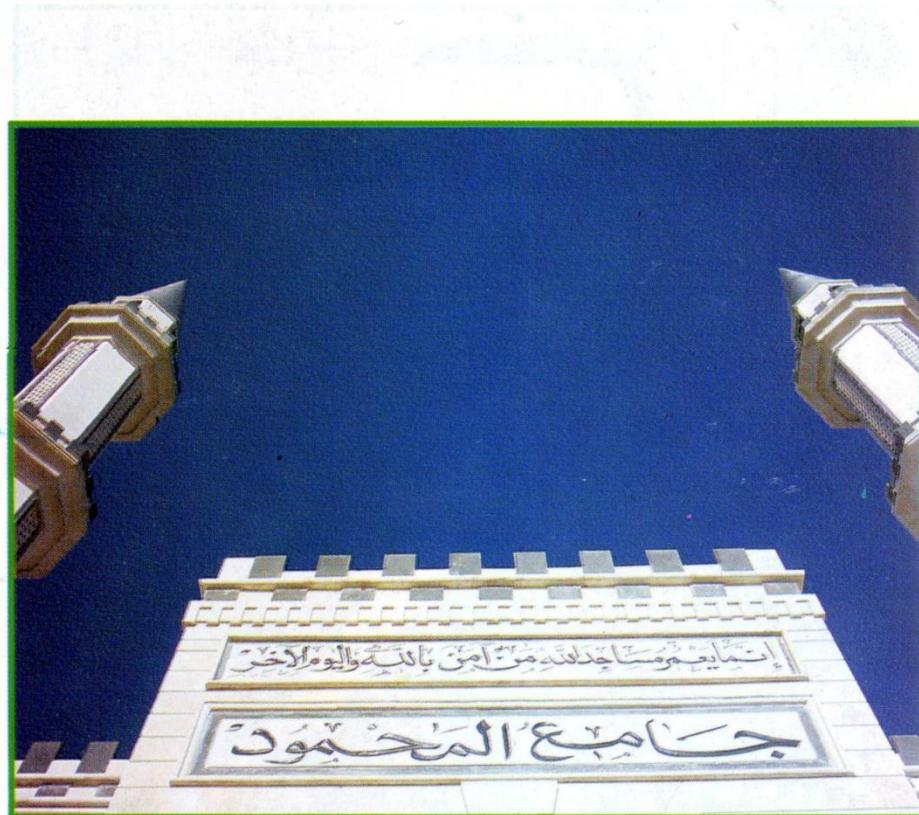
هذه غاياتي الأساسية من كتابة صفحات من ذا كرتي ، والذي تركته دون ترتيب للزمان والمكان ، شأنه في ذلك شأن ذاكرة الإنسان .
والله من وراء القصد .

الرستن: ٦ آذار ٢٠٠٤

الدكتور محمود فرزات



المحسن الكبير الشيخ سليمان محمود طلاس فرزات



مجمع جامع المحمود ، من واجهته الشرقية ، ولوحاته.

إذا كنتَ قادماً من حمص أو من حماة، طالعتك الرستن في منتصف الطريق.
جلست على رابية ارتفعت عما حولها، وراحت تنظر شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً،
تراقب شروق الشمس وغروبها.

وكم لا يحدث في غيرها من البلدان، التي تبتعد عن مصارعة الرياح والاختفاء
خلف الروابي عمدة مدينة الرستن إلى تحدي الرياح وعوامل الطبيعة، فجلست
على ظهر الرابية مواجهة الرياح رقيباً عليها. لم تعبأ بتقلبات الطبيعة، بل راحت
تنظر شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً لتحمي أرضها المحيبة بها.

يجيء نهر العاصي من الجنوب متوجهاً شمالاً، ولهذا سمي العاصي، فإذا وصل إليها
تمهل في سيره وانساب بتؤدة، يمعن النظر إليها باحترام. مفتوناً بها ناظراً إليها من
الغرب مُشّرقاً ثم يدور حولها نصف دورة معبراً عن محبة وإعجاب وولاء، كمن يزور
عظيماً مهيباً.

ثم ينطلق نهر العاصي متزوداً بما أفاضته عليه غدرانها وينابيعها، فما يخرج إلا مشلاً
بما يحمل من هداياها. فهو يمر بواود كثیر العيون والينابيع، من عين الغزال، إلى
عين الغربية في جنوب غربى الرستن، إلى عين أبي يزيد غربي الرستن، إلى عين
التين وعين العجوز شرقي الرستن وكلها ينابيع غزيرة الماء، فبدلاً من أن تأخذ منه
تعطيه قبل أن يغادرها، وبعد أن يكمل نصف الدائرة يتوجه شرقاً في خط متعرج،
وقد أحاطت بهأشجار الحور والصفصاف والقصب والعليق وبساتين الجوز والتين
والرمان واللوز والمشمش من البستان غرباً، والسللة وعين موسى شمالاً، وزور عين
التين شرقاً، وقد بقي هذا الزور منفرداً بعد أن غمرت مياه بحيرة سد الرستن كل ما
وقع خلفه على ضفاف العاصي من بساتين وحدائق غناه، إلى أن يتوجه شمالاً،
ليخرج من سهول الرستن متوجهاً إلى مدينة أبي الفداء حماه.

على هذه الرابية حطت مدينة الرستن، كما يحط النسر على الهضبة، لم تتسلق
الهضبة كعادة المدن، بل حطت عليها من الأعلى كما تفعل النسور، وانتشرت من

القمة إلى السفح من الجهتين، الجنوبية ، والجنوبية الغربية . أما الجهتين الشرقية والشمالية فقد بقيتا عاريتين بسبب شدة الانحدار .

بيوت هذه المدينة مبنية بالأحجار التي قطعت من الصخور البازلتية السوداء المنتشرة في سهول الرستن . حيث عمد أهلها إلى بناء بيوتهم بهذه الحجارة ، فكانت معظم البيوت متشابهة إلى حد كبير .

حيطان الدور كلها حجارة سوداء ، بعضها معالج بشكل بسيط ، والآخر عولج بشكل فني . وقد أبدعـت يـد الـبـنـاء في تصـمـيمـه ، فأعـطـيـ شـكـلاً جـميـلاً ، كـلوـحة مـرـسـوـمة على الـوـرـق فالـحـجـارـة مـصـمـمـة عـلـى مقـاسـ وـاحـدـ ، وـقـد عـمـد الـبـنـاء إـلـى اختيار حـجـرـ أوـأـكـثـرـ مـنـ لـوـنـ مـغـايـرـ غالـباـ مـاـ يـكـونـ الأـبـيـضـ ، وـقـامـ بـتـرـيـبـ الـحـجـارـة لـيـعـطـيـ شـكـلاً هـنـدـسـياً بـزـواـيـاـ وـمـسـتـقـيمـاتـ وـأـبـعـادـ مـنـسـجـمـةـ حـفـرـ عـلـىـ بـعـضـهاـ رـسـومـ نـبـاتـيـةـ جـمـيـلةـ أوـكـلـمـاتـ دـيـنـيـةـ ، وـلـاـ سـيـماـ فـوـقـ المـدـخـلـ ، وـهـيـ حـجـارـةـ ثـمـيـنـةـ وـذـاتـ قـيـمـةـ مـادـيـةـ وـأـثـرـيـةـ كـبـيـرـةـ . مـعـظـمـ الدـورـ مـصـمـمـةـ عـلـىـ نـسـقـ وـاحـدـ ، صـنـدـوقـ مـفـتوـحـ ، حـيـثـ بـابـ الدـارـ ثـمـ فـسـحةـ هـيـ صـحـنـ الدـارـ ، تـطـلـ عـلـيـهاـ الغـرـفـ مـنـ كـلـ الـاتـجـاهـاتـ .

وـقـدـ تـمـ بـنـاءـ هـذـهـ الدـورـ بـتـلـكـ الـحـجـارـةـ ، فـكـانـ جـدـرـانـهاـ ذاتـ سـماـكـةـ كـبـيـرـةـ إـذـ ماـ قـيـسـتـ بـجـدـرـانـ الـبـيـوـتـ فـيـ هـذـهـ الأـيـامـ ، فـكـانـ الـبـنـاءـ يـتـمـ بـمـاـ تـوـفـرـ مـنـ طـيـنـ وـحـجـارـةـ ، وـبعـضـ أـسـقـفـ هـذـهـ الـبـيـوـتـ كـانـ مـنـ تـلـكـ الـحـجـارـةـ أـيـضاًـ ، إـذـ أـنـ سـقـوفـ بـعـضـ هـذـهـ الـبـيـوـتـ كـانـتـ تـشـيـدـ عـلـىـ قـنـاطـرـ ، وـهـذـهـ الـقـنـاطـرـ يـجـبـ أـنـ تـكـوـنـ مـزـدـوـجـةـ ، وـغالـباـ أـرـبـعـ أوـسـتـ قـنـاطـرـ تـبـدـأـ مـنـ الأـسـفـلـ عـلـىـ شـكـلـ رـكـيـزةـ ، تـقـابـلـهاـ رـكـيـزةـ أـخـرىـ ، تـلـقـيـانـ عـلـىـ شـكـلـ قـوـسـ فـيـ الأـعـلـىـ ، يـتـمـ الـوـصـلـ بـيـنـ الـقـنـاطـرـ الـأـوـلـىـ وـالـثـانـيـةـ بـوـاسـطـةـ حـجـارـةـ باـزـلـتـيـةـ سـوـدـاءـ طـوـيـلـةـ ، ثـمـ تـوـضـعـ الـحـجـارـةـ مـنـ كـلـ الـاتـجـاهـاتـ لـتـشـكـلـ السـقـفـ ، الـذـيـ يـعـلـوـ مـزـيـجـ مـنـ الطـيـنـ الأـبـيـضـ الـمـمـزـوجـ بـالـتـبـنـ لـيـصـبـحـ السـطـحـ مـسـتـوـيـاـ مـاـنـعـاـ لـمـطـرـ وـثـلـوجـ الشـتـاءـ وـحرـ الصـيفـ . وـالـبـيـوـتـ الـمـبـنـيـةـ بـهـذـهـ الـطـرـيـقـةـ أـقـلـ تـأـثـرـاـ بـعـوـافـلـ الـطـبـيـعـةـ ، وـأـقـلـ عـرـضـةـ لـلـتـصـدـعـ بـفـعـلـ غـصـبـهاـ .

كانت معظم مداخل الدور (باب الدار) مصممة على طريقة القناطر، وبعضها قد حوى على الحجارة المزخرفة، وبعضاً خلا من تلك الزخارف.

أما باب الدار، فهو كبير بقدر القنطرة، مصنوع من الخشب، ويكون مفرداً، في الغالب يدخل منه أصحاب الدار ومواسיהם، أو يكون مزدوجاً يحتوي في وسطه باباً صغيراً لدخول صاحب الدار وأهل بيته وزواره.

أما الباب الكبير فلا يفتح إلا مرتين أو ثلاثة في اليوم، مرة في الصباح لإخراج الماشية والذهاب إلى الحقل، وأخرى في المساء لإدخال الماشية عند العودة من الحقل. وكل من البابين الصغير والكبير قفل مناسب له، فللباب الكبير قفل كبير يسمى الخوخة وله مفتاح من خشب ذو أسنان للفتح. أما الباب الصغير فهو بحاجة إلى الإغلاق فقط ولا يستخدم له قفل إلا في النادر، ولا سيما في الليل عندما يأوي أصحاب الدار إلى النوم فكانوا يضعون له ما يمنع فتحه إلا من الداخل.

وبما أن الإنسان ابن بيته وعليه أن يتكيّف معها، فقد تكيّف أهل الرستن مع بيئتهم وما إنشاء القناطر إلا تكيّف مع البيئة القاسية التي كان يعيشها أهل بلدتي، خصوصاً في السنوات الغزيرة الأمطار.

هذه البيوت التي شُيِّدت بتلك الطريقة قليلة في بلدتنا، إذ ليس بمقدور كل صاحب دار أن يبني قنطرة، فهي الملجأ الوحيد للأسرة والأسر المجاورة في أيام الشدة، عندما يشتد البرد، ويقصف الرعد وتهطل الثلوج. فأين المفر؟ عندها يلجؤون إلى هذه القناطر، فهي بيت الأمان لناشده.

أما باقي البيوت، فسقوفها من الخشب والقصب، الذي تعلوه طبقة من التراب المجبول بالتبغ حيث لم يكن الإسمنت متوفراً، وهي لا تمنع تسرب الأمطار التي تبدأ تدلّف داخل البيوت مما يجعل الشتاء عصيّاً، إذ تبادر قطرات المطر بالتسرب من السقوف وتتساقط على رؤوس ساكنيها، الذين يعمدون إلى وضع بعض الأواني لتجمیع الماء المتتساقط (الدلّف) من السقوف.

وعندما يهطل المطر ، تستحم هذه البلدة بمائه ، ولكنها مرتفعة عما حولها فإن المطر يغسل شوارعها ، إذ تنحدر المياه من الأعلى جارفةً للأتربة والغبار عن السقوف والجدران والشوارع لتلقىها في المنخفضات المحيطة بالرنين ، حيث تنطلق في كل الاتجاهات لتحط رحالها في نهر العاصي ، الذي يتقبل ذلك بارتياح في بعض الأوقات ، وقد يثور غضبه في أوقات أخرى ، فيهيج ويتكدر ، ويزبد مزاجاً ، فيضرب هنا وهناك ، وينغير على من حوله فيضرب هذا ويبطش بذلك ، وهو في ثورة غضبه يهدم البيوت التي بناها الفلاحون على جانبيه ويقتلع بعض الأشجار ، ويغرق المزروعات المجاورة لمجرأه .

كانت طُرقات الرستن مرصوفة بالحجارة البازلتية السوداء ، وكنا نسميها (البلدية) لأن البلدية هي التي قامت برص تلك الشوارع ، إذ لم يكن عندنا شوارع إسفلية باستثناء الطريق الدولي الذي يعبر الرستن في أسفلها من الجهة الغربية .

كانت شوارع الرستن القديمة تبدأ من المدخل الجنوبي ، حيث سور الرستن الجنوبي إذ يسير هذا الشارع بخط مستقيم متوجهاً شمالاً ، ثم يبدأ بالتفرع إلى شارع ضيق تتعرج ضمن بيوت البلدة ، لتنتهي كلها عند طاحونة وجسر الرستن القديم على نهر العاصي من الجهة الشمالية ، حيث موضع السد الآن .

أما ما انبسط من أرضها من الجهاتين الجنوبية والجنوبية الغربية ، فقد أحيط بسور شيده أهلوها بالحجارة الضخمة ، وهي حجارة لا يستطيع الفرد أن يحمل أصغرها بمفرده مهما بلغت قوته ، يتکامل هذا السور مع واد سحق من الجهة الغربية الشمالية ، ومن الجهة الشمالية والشرقية ، وقد تداعى هذا السور العظيم ولم يبق منه إلا بقايا ، وكان ذلك بفعل سكان البلدة ، لا بفعل الحروب وعوامل الطبيعة ، إذ عمد المتأخرون من أهل البلدة اللذين قدموا إليها بعد عام أربعين وثمانمائة وألف إلى هدم بعض جوانب السور للاستفادة من حجارته في بناء بعض الدور . يبلغ ارتفاع هذا السور حوالي خمسة أمتار وكما ذكرنا فقد أحاط بالرنين من الجهاتين الجنوبية والجنوبية الغربية ، وهي المنطقة المنبسطة والتي يتوقع الخطر منها ، فهي

سهل منبسط إذا حاول الأعداء اقتحام المدينة على حين غرة من أهلها من هذه الجهة .

أما الجهات الشمالية الغربية والشمالية الشرقية، والتي تشكل قوساً يحيط بالرنين، عبارة عن وادٍ سحيق لا يسمح للمعتدين بالاقتراب من المدينة، فهو مانع طبيعي حيث يمكن لقلة من المدافعين عن المدينة صدُّ جيش كبير وهزيمته والسور يحيط بالبلدة على شكل قوس من الجهتين الجنوبية والجنوبية الغربية ليلتقي شرقاً وغرباً بالوادي .

الرنين بلدة محصنة تحصيناً جيداً بالوادي والسور ، وإذا نظرت إلى سورها ، هالك ما ترى من حجارة ضخمة ، كيف تم رفع تلك الصخور إلى ذاك الارتفاع من السور؟! وقد وضعت الأحجار الضخمة من الخارج ، بحيث يصعب زحزحتها على من يريد اقتحام المدينة بوسائل ذلك الزمان . أما السور من الداخل فحجارته صغيرة ، وقد استخدم في بنائها الطين والكلس .

إن هذا الارتفاع ، إضافة إلى وجود بعض الحُجُرَات الصغيرة ضمن السور ، هي عبارة عن نقاط مراقبة يستخدمها المكلفوون بالمراقبة لرصد تحركات الأعداء اللذين يقتربون من البلدة جعلاً من الرنين حصناً منيعاً .

و بالرغم من هذا الموقع الحصين وهذا السور العظيم ، فقد كانت الرنين غير مأهولة لمدة طويلة بسبب الأوبئة وكثرة الغزوات ، وجميع سكان الرنين الحالين قد وفدوا إليها واستوطنوها بعد دخول الجيش المصري بقيادة إبراهيم بن محمد علي باشا في العقد الرابع من القرن التاسع عشر الميلادي .

وعلى ما يبدو فإن أول المهاجرين إلى الرنين الحديثة كمجموعة كبيرة نسبياً كانت عائلة المشايخ نسبةً إلى كبيرهم الشيخ علي .

أما آل فرزات ، فإن كل الوثائق المحفوظة تشير إلى أنهم قد حضروا إلى الرنين في العقد السابع من القرن التاسع عشر الميلادي ، وقصة قدومهم إليها أنهم كانوا يسكنون قرب مدينة حلب بجانب أولاد عمومتهم آل الحراري ، وقد كانوا في رغد من

العيش ، حيث أعفتهم الدولة من الضرائب والخدمة العسكرية ، لانتسابهم إلى الأسرة الهاشمية ، إلا أن والي حلب وبعد خروج الجيش المصري من بلاد الشام اتهمهم بإساءة استغلال الامتيازات الممنوحة لهم ، فصادر ممتلكاتهم وأمرهم بمعادرة ولاية حلب ، فهاجروا إلى قرية قمحانة شمالي مدينة حماه ، حيث مكثوا فيها حوالي عقدين من الزمن إلى أن توفي كبيرهم " السيد فرزات " ، والموجود مقامه قرب قرية " معروشور " الواقعة شمال شرق مدينة حماه ، حيث توزعوا ، فرحل قسم منهم إلى قرية " بيشش " في محافظة إدلب ويلقبون باسم كبيرهم " السيد علي " .

وقسم آخر رحل إلى الرستن ويلقبون باسم كبيرهم " السيد فرزات " ، ومع مرور الأيام وللتحفيف حذفت من الاسم كلمة السيد ، وبقي اللقب " فرزات " . إلا أن بعضاً منهم يلقبون " طلاس " نسبة إلى لقب جدهم ، وهي من نساء آل فرزات التي زوجت من ابن عمها ، ولأنها كانت ذات شخصية مميزة ، وعلى عادة أهل الريف في مثل هذه الحالات فقد عُرف ابنهما الوحيد أحمد بلقب أمه . أما من بقي منهم في قرية قمحانة فسرعان ما غادروها إلى مدينة حماه ، ويلقبون بنفس الكنية " فرزات " . وقدر عدد آل فرزات وطلاس في مدينة الرستن في مطلع القرن الواحد والعشرين حوالي أربعة آلاف نسمة .

هذه الرستن ، تعلقت بها ، وأحببتها ، كما يتعلق الطفل بأمه ، بل كما يتعلق بوالديه ، ولأمر ما يحن الإنسان إلى بلده ، فهو بعض منها ، كما الطفل بعض من أمه . فالإنسان ينتمي إلى بلدته ، ألا ترانا نقول : حمصي - حموي - تلاوي - رستناوي . وإلى الأقطار التي هو منها ، فنقول : هذا مصري - جزائري - تونسي - عراقي . وبطبيعتي كنت متعلقاً بهذه البلدة ، ربما كغيري ، وربما أكثر من غيري . هي بالنسبة لي كل الدنيا ، ولا غرابة في ذلك ، وفيها كان مولدي في ربيع عام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف للميلاد ، حين حزم الشتاء أمتعته ، وولى ببرده وصقيعه ،

وهبت على البلدة نسمات الربيع التي تحمل بشارة الحياة . وأشرق الأرض بالربيع ، ولبست الأشجار ثيابها ، وتفتحت أزهارها ، وسرى الدفء في الأرض ، في السادس من آذار من ذلك العام كانت ولادتي .

عندما بدأت أعي الحياة ، تبين لي بعد تفكير متواضع ، وكما يحلو لي ، استطعت أن أستنتاج أن الرستن هي مركز العالم ، وسبب ذلك أن الرستن تبعد عن مدينة حمص بنفس المسافة التي تبعدها عن مدينة حماة ، وكذلك تبعد الرستن عن مدينة دمشق بنفس المسافة التي تبعدها عن مدينة حلب . كما أنها تبعد عن عاصمة الفاطميين بيت الله الحرام . الرستن هي المركز ، ومنها بدأت أقيس المسافات . استنتاج جميل ! إذاً الرستن مركز العالم منها نبدأ القياس وإليها ينتهي القياس ، وأن مدينة غرينتش البريطانية ليست أكثر أهمية منها .

ومع مرور الزمن وتقدم السن تبين لي أن هذه النظرية التي قلتها في تلك السن المبكرة لم تكن خاطئة تماماً ، وعدت أغبط ذلك الطفل الذي كنته ، على هذا الاكتشاف في تلك السن المبكرة . اكتشاف مبكر في سن مبكرة !

كنت شديد التعلق ببلدي ، شديد الحب لها . وكانت أجد فيها ميزات ، لا أجد لها في غيرها من البلدان التي عرفتها آنذاك . وأفضلها على غيرها من المدن ، لا لأدرى لأنها جميلة حقاً ، تفضّل غيرها ، أم هو الحب والألفة ، فالمحب لا يرى في من يحبه إلا الجمال ، فللحب لغة وللحب مرامي وللمحب في الجمال نظريات وآراء .

الحقيقة : أن الرستن لوحة تشكيلية رسمتها الطبيعة فأبدعت وأتقنت ، إذ كان وقت إبداعها وقت صفاء وعطاء وتفوق ، فجمعت فيها بين السهل والوعر ، بين الانخفاض والارتفاع بين الاستقامة والترجع .

إذا وقفت في شماليها على ضفة العاصي ونظرت إلى الأعلى ، رأيت ثم رأيت منظراً عجباً بلدة تجلس على الجبل ، وتنحدر من أعلى إلى أسفله ، في منظر يبعث البهجة والسرور . وقد تسلقت شجيرات الرمان ، والتين ، والجوز ، والحوار ، والصفصاف ،

والقصب والعليق في شبه مهرجان جماعي ، تنظر إلى الرستن بإجلال وخشوع ، تنصت إلى حديثها ، وقد شخصت أبصارها وتعلقت بها . فإذا ما هجعت البلدة في الليل ، أيقظتها موسيقى شدو الأطياف ، وحفيظ أوراق الأشجار ، وصوت ناعورتها ، وشلالات طاحونتها .

مما يدل على أن من اختار مكانها مسكنًا كان عاملاً ، عaculaً ، عارفاً ، فناناً وعنيداً . إذا وقفت في غرب المدينة ، لاحظت كيف هي إرادة التحدى ، وكيف عمد أهل هذه المدينة إلى السفح الغربي منها فقابلوا الرياح دون أن يقيموا أي وزن لتقلبات الطبيعة ورياح الشتاء الباردة وثلوجه وصقيعه .

وهكذا نلاحظ أن البيوت قد هبطت من رأس التل الذي هو أعلى نقطة في البلدة . كنت مفتوناً بالرستن في كل الفصول ، خاصة عندما يهطل المطر . أنزل من بيتنا إذا كان الوقت عصرًا وانقضت الغيموم . أقف في الجهة الغربية للرستن أنا ورفافي ، وأنظر إلى المدينة والشمس ترنو إليها وقت الأصليل ، فتبعد لي البلدة بشوارعها وببيوتها ذات الحجارة السوداء . تبدو البلدة عاكسة أشعة الشمس على حجارتها المبللة ، بما تبقى من قطرات المطر ، فتتألأ حجارتها بوهج بريق جميل ، يختلط بأشعة الشمس المرتددة على الحجارة المبللة . فتبعد الرستن كقلادة من الحجارة الكريمة السوداء ، على صدر فتاة بيضاء في ريعان الصبا . وقد تضافت الأصداد ، والصدُّ يظهر حسنه الصدُّ .

والمنظر الأكثر جمالاً وإشراقاً والأبعد تأثيراً في نفسي ، كان منظر البلدة عندما يهطل المطر في فصل الربيع .

كنت أذهب أنا ورفافي ، محمد مشهور فرزات ، وأحمد يوسف الحسين ، ومصطفى بيج فرزات ، وأحمد ربيع فرزات ، وربيع كردوش فرزات ، وفائز محمود فرزات ، وعبد الحبيب قاسم فرزات ، وقاسم محمد كبريت طلاس ، ومحمد (عدنان) سعيد أيوب ، وهشام محمد إدريس ، ورشيد أسد منصور ، وحسين شمسي ، ونادر القصیر ، وأحمد نجيب الشيخ علي ، وإبراهيم مصطفى المحمود ، وعدنان صبري فرزات ،

وحمود الكسم ، ومحمد الخطيب ، وعبد الرزاق الحسين ، ومكرم سعد الدين ، وعبد الرزاق أحمد سعد الدين ، وعبدو سعيد الطويل ، وعمر جمعة ، ومصطفى محمود مطر ، وشعلان زكي المحمود ، وعبد القادر سليمان درار طلاس ، وعبد الحسيب محمد فرزات ، و Hammond عرعرور ، وفضل شيخان ، ونصر عبد الرزاق الدالي ، وأحمد خالد شايب فرزات ، و محمد مصطفى شايب فرزات ، و سليمان عبد خطيب ، وإبراهيم يوسف أيوب ، وخضير سعيد بحبح ، وفائز سعيد صبري فرزات ، وعبد العزيز محمد فرزات ، و عبد الرحمن مصطفى رجب ، و شعلان حسن دالي ، وقاسم زعبي الذي أصبح لاحقاً خطيب جامع أبي يزيد البسطامي ، ولغيف آخر من الأصحاب الذين تابع معظمهم دراساتهم حتى الجامعية منها ، إلى الجهة الغربية من البلدة والمسماة بـ **بسنوكو**، نرب قوس قزح الذي رسم نصف دائرة فوق البلدة ، ونمتل النظر باللون الطيف .

في دارنا التي نشأت فيها والتي تقع في منتصف السفح الغربي لمدينة الرستن تشرف على سهولها الغربية وتراقب أرضاً الواقع في **بسنوكو** كأنها في وسطها تحرسها ليلاً نهاراً. أمضيت طفولتي. كل الغرف كانت جميلة ، والغرفة الأكثر جمالاً ، هي الغرفة التي كان يتتخذها والدي كمضافة له ولأصحابه .

كانت المضافة هي الأكثر جمالاً في دارنا ، فهي غرفة واسعة ، ولها إضافة إلى بابها المتجه جنوباً ، أربعة نوافذ ، مصنوعة من الخشب الثمين اثنان ينظران غرباً واثنان ينظران جنوباً على فسحة الدار . وكان خشب هذه النوافذ مزین بزخارف بد菊花 ، وكان في النافذة الواحدة عدة فتحات ، تفتح بحسب الحاجة ، وجمعيها مدهونة باللون الأخضر الفاتح .

في الحائط الشرقي لمضافة والدي ، يوجد سقية كان يضع عليها أثاث المضافة ولوازم الضيوف وقت النوم ، كنا نسميهها (التختية) . وخزانتان صغيرتان محفورتان في حائط المضافة الشمالي على شكل مستطيل من الأعلى إلى الأسفل ، ولكل

منهما باب صغير مغطى بمرآة ، مزود بقفل ، كان والدي يضع أشياءه الثمينة ، والتي يخشى عليها من الكسر في هاتين الخزانتين لحمايتها من عبث الصغار ، وكنا نسميها (الخورستان) .

في مدخل المضافة عتبة قد انخفضت عن أرض الغرفة قليلاً وحجزت بحاجز . للعقبة استخدامات كثيرة في مضافتنا وفي كل بيوت البلدة ، فهي مكان الاستحمام لمن يريد أن يستحم من أهل البيت ، وهي مكان لخلع الأحذية ، وهي الجزء الذي لا يفرش في كل غرفة ، أما اللبيوان في بيتنا القديم فهو غرفة جميلة ، بُني سطحها على شكل عقدة حجرية .

جميع غرف دارنا كانت تطل على ساحة غير مسقوفة ، تسمى الحوش أو صحن الدار . وهي عبارة عن فراغ في وسط الدار ، تتجه أبواب غرف الدار إليها ، وكذلك النوافذ، وهي مبلطة بأحجار بازلتية سوداء معالجة ذات وجه ناعم ، ليس كما هي الحال في معظم بيوت البلدة الأخرى ، حيث كانت ذات فسحة ترابية تحوي أحياناً حجارة معالجة أو غير معالجة .

وهذا ما يزيد الحال تعقيداً وسوءاً في أيام الشتاء عند هطول الأمطار، فتمتلئ الدار بالوحول ، بينما كان صحن دارنا مبلطاً ومائلاً قليلاً ، فالبناء بالأحجار البازلتية السوداء مكلف لذلك كانت معظم صحنون الدور ترابية .

كانت دارنا جميلة ، فهي مبنية من الحجارة البازلتية السوداء ، وكانت مميزة عن معظم الدور في بلدتنا . كان في دارنا غرفة مخصصة للمونة ، كما نضع فيها المأكولات ، وما نريد تخزينه من طعام ومن مؤونة الشتاء ، ولا سيما أنه لم يكن في بلدتنا أفران تنتج الخبز الجاهز ، فكان في هذه الغرفة صويمعات صغيرة يسمى كل منها (حاصل) ، كما نضع فيها القمح والدقيق وبعض المواد الأخرى مثل الذرة والحمص وبدور دوار الشمس المحمصة... إلخ . توجد الحواصل في أطراف غرفة المونة ، ولها فتحة واسعة من الأعلى لصب المواد المراد حفظها ، وأخرى صغيرة من

الأسفل لأخذ المواد بالقدر المطلوب ، وهذه الحواصل كانت أيضاً مصنوعة من الطين المقوى بالتبغ. كذلك تحوي غرفة المونة الأشياء الجاهزة للأكل كالمكَدَسات والزيتون وغيره من مؤونة الشتاء .

وكان يتم تحضير الخبز عندنا وعند غيرنا بوسائل معروفة . إذ تقوم أمي بأخذ الكمية المطلوبة من الطحين ، وتضعه في وعاء يسمى (لكن) بعد تنظيفه بواسطة المنخل ، ثم تُصبُّ عليه الماء وتضييف الملح بالقدر المطلوب ، ثم تقوم بعجنه حتى يصبح كتلة واحدة فإذا ما انتهت من عجنه غطته ليستريح بعض الوقت ، فإذا تَخْمَرَ ، انبعثت منه رائحة زكية عندها كانت أمي تعمد إلى تقطيعه إلى كرات صغيرة ، توضع على طبق كبير من القش ثم تغطي هذه الكرات بعد تقطيعها ، و إضافة شيء من الطحين إليها ، ومن ثم تحملها إلى التنور وهناك تتم صناعة الخبز .

كان التنور موجوداً في معظم بيوت بلدتنا ، وهو موقد كبير من مواد النار ، وله طريقة خاصة لصناعته ، فتربيته كانت تُجلب من مكان خاص في بلدتنا ، فهي تربة مختلفة عن التربة التي تُشَادُ منها البيوت ، فهي تحمل درجات الحرارة العالية .

تربة التنور صفراء ، تُجلب من جبل شرق البلدة ، تقوم النساء بجمعها ، ثم نخلها ، ثم تضاف إليها خيوط الكتان الدقيق المقطع ، وتعجن عجينة خاصة شديدة متماسكة ، ثم يصنع التنور منها بعد تحضير العجينة الجيدة ، التي هي أقرب إلى عجينة الفخار ، حيث يتم بناء التنور على شكل وعاء مخروطي الشكل كالفنون العالميارتفاعه حوالي المتر ، له قاعدة كبيرة تضيق في الأعلى قليلاً ، وله فتحة مربعة الشكل في الأسفل لإخراج الرماد. في أحد أطراف الدار غرفة تسمى (بيت التنور) ، يبني التنور في وسطها وبجانبه من اليمين مكان لوضع طبق العجين الجاهز ، وفي الجهة الأخرى مكان لوضع الخبز بعد إنصажه في التنور ، ويكون ذلك بتحويل كرة العجين إلى قطعة دائرية رقيقة ، ثم تضع على يدها ما يمنع النار من الوصول إليها ، ثم تعمد إلى لصق هذه الرقائق على جدران التنور الداخلية ملامسة لهب النار مباشرةً ، فإذا نضجت ، عادت ونزعتها لتجمعها في مكانها المخصص على يسار التنور .

و للتنور أحاديث وأحاديث في بلدنا ، فكانت النساء تتباهي بدقّة صنع الرغيف ، و تباهي بعضهن الأخرى به ، فلانة ذات رغيف جميل ، وتلك رغيفها أجمل ، وكانت تتم عملية تحضير الخبز عادة مرة كل أسبوع ، وبطقوس خاصة ، فعلى الأغلب تجتمع عدة نسوة ويتعاونن على تحضير الخبز بعد أن تكون كل واحدة قد أعدت عجنتها للخبز ، ففي هذا توفير في استهلاك الحطب في التنور . وحتى يصبح جاهزاً للخبز ، يحتاج إلى كمية كبيرة من الحطب ، وهذا تبذير لا ترضى به ربة الأسرة . وللتنور في بلدنا كما في البلدان الأخرى ذكريات وأغانيات ، فهو مجمع للصبايا ولا سيما بعض هذه (الثنائي) الذي كان يوضع خارج الدار ، إذ تجتمع عليه الكثير من الفتيات وهنا يتبارى الشباب للتجمهر لاستراق النظر إلى الجميلات .

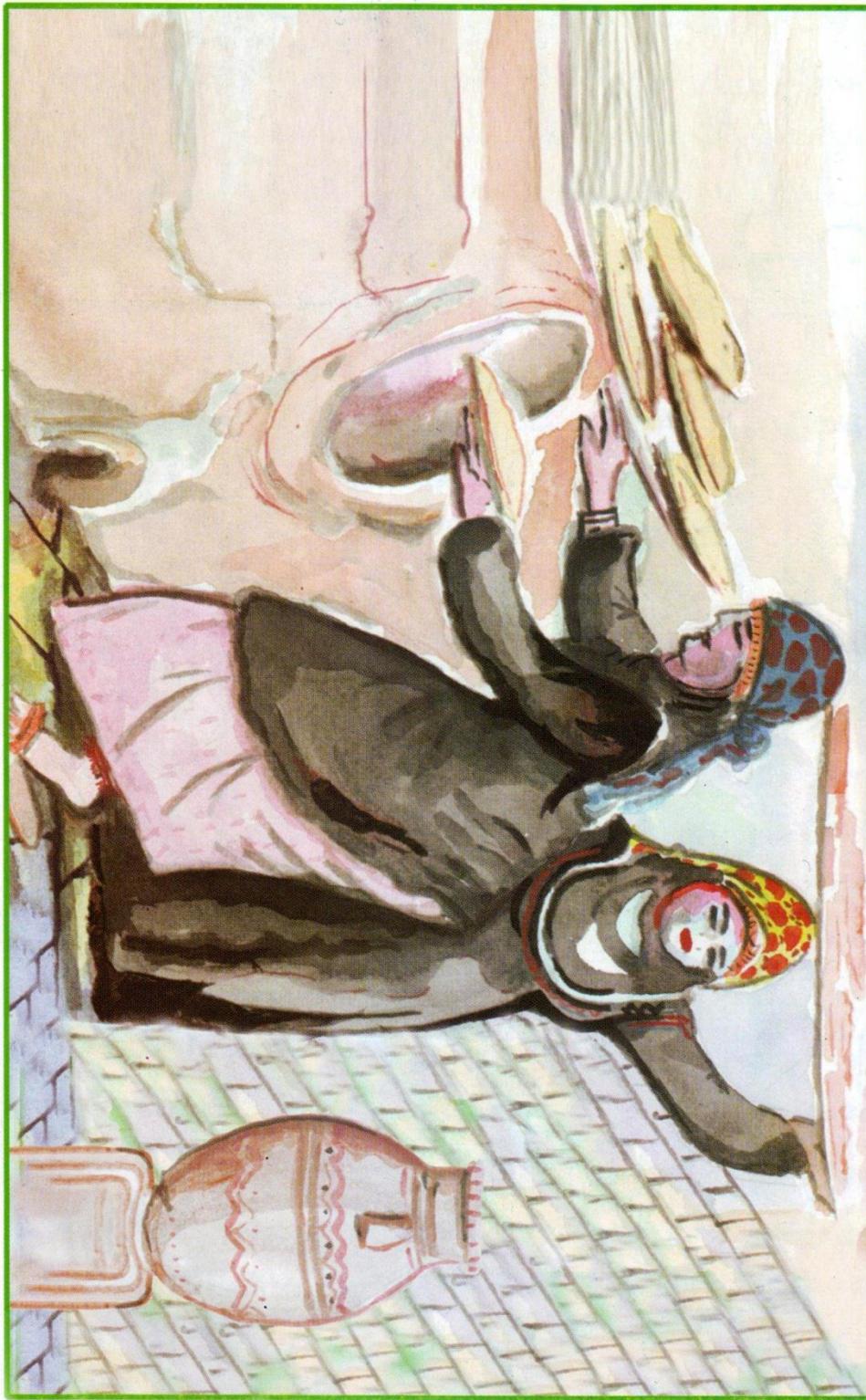
وكثيراً ما كانت تحصل خطبة الفتيات وهن يقمن بخبز الرغيف على التنور ، إذ تعمد المرأة صاحبة العقل والذوق إذا أرادت معرفة الكثير عن كنفتها إلى مراقبتها وهي تضع خبزها على التنور ، وبذلك تتحقق أكثر من غرض ، عندها تتعرف إلى رغيفها إن كان متجانساً ريقاً ناضجاً ، أو سميكاً رطباً غير ناضج .

والأمر الأهم من ذلك أن النار لا تبقي على أي أثر لمواد التجميل إن وجدت ، والتي نادراً ما كانت الفتاة تُحمل نفسها بها، فيبدو وجه الفتاة على حقيقته من دون تزويق أو تلوين . والتنور كان ركناً أساسياً في معظم دور بلدنا ، فهو من أساسيات البناء ، وله عَدُّ كثيرة من الغرف ، فنقول : غرفة التنور والإسطبل والتَّبَان . وكم أُفت عليه من أغاني وحكايا ، وكم تعرف الفتيان والفتيات على بعضهم عند التنور فحصلت علاقات الغرام التي انتهت بالزواج .

مسعد يا تنور يا مجمع الحلوات ... مسعد يا تنور ...

وبالعوده إلى غرفة المؤونة ، كانت هذه الغرفة مزودة برفوف ، توضع عليها المحفوظات كالزيت والسمن والجبين والزيتون والمكدوس والفسق والقضاءمة والجوز واللوز والبادنجان والبامياء المجففة ... إلخ . إلى جانب ذلك كنا نخزن ما تبقى من منتجات الصيف المتأخرة ، كالبندوره الزرقاء والبطيخ الأحمر .

الرسنبايات والخبر على التلوك.





الرستنوية ، والخبر على الصاج .

حقاً كانت هذه الغرفة هي غرفة المؤونة، وكانت لا تخلو منها دار .
كنا نضعها في أماكن مخصصة لها على التبن ، ونقطيدها فيه ونستخرج منها بين الحين والآخر البندورة المحمّرة ، ونضيفها إلى المائدة . وكذلك البطيخ الأحمر (الجَبَسُ)
كانت هذه المواد تبقى صالحة للطعام ولا يصيبها التلف والتعرق حتى نهاية شهر
شباط . حيث يهم الشتاء بالرحيل على مبدأ (خبي قرشاك الأبيض ليومك الأسود)
كما هو شائع في بلدتنا ، إذ لم يكن في تلك الفترة في بلدتنا بيوت بلا ستوكية تأتينا
بالخضار متى نشاء ، وفي أي وقت من السنة .

كنا نحتال على الشتاء وصقيعه وشدة برد़ه ، فنخفي عنه أشياءنا حتى لا يداهمنا
ويأخذها منا عنوة . هكذا كنا نخاتل الشتاء بوسائلنا المتاحة .

كان أمّام غرفة المؤونة في دارنا هذه درج حجري له درايزون حديدي نرتقيه إلى
غرفة أخرى ذات نوافذ كبيرة تسمى (عُلَيَّة) ، تنفتح على فضاءات بلدتنا من كل
الجهات فيخيل للجالس فيها أنه يستطيع احتواء الرستن من هذه الغرفة إن هو أطال
الجلوس فيها.

كذلك كان في دارنا صويمعات مربعة صغيرة ، كنا نخزن فيها بذور الحنطة ، وبذور
دوار الشمس والحمص والفستق الفائق عن استهلاكنا ، ليكون بدار للأرض في العام
المقبل بعد بيع الفائق من الإنتاج ، وكذلك كانت معظم بيوت بلدتنا تحفظ الفائق
من البدار بطريقة أو بأخرى .

كان في دارنا إسطبل ، وكان في هذا الإسطبل على الأغلب بغل أو بغلان ، وكان
وجود بغل أو اثنين ضروري عند من يقدر على اقتناهما ، لحراثة الأرض ، ونقل
المحاصيل .

إلى الأسفل من الإسطبل كان يوجد مستودع ، نسميه (الثَّبَان) ، كنا نضع فيه
التبن والشعير ، ليكونا علفاً وطعاماً للبغال وباقى المواشي - إن وجدت - في فصل
الشتاء ، وبغال الحراثة يجب أن تكون سمينة ، قوية ، ومعلومة لأن الجهد المطلوب
منها كبير .

أما وجود البغال في بلدتنا فهو أمر مألوف ومعتاد ، فتكاد لا تخلو منها دار من دور البلدة وسبب ذلك أن الأرض كانت تحرث بواسطة البغال والثيران، ولا وسيلة أخرى متوفرة في ذلك الزمان ، فقد زارنا الجرار الزراعي في النصف الثاني من خمسينات القرن العشرين . وإلى جانب البغال ، كان يوجد المحراث وباقى عده الحراثة .

والمحراث مؤلف من قطعة خشب طويلة أسطوانية ، تنتهي من الخلف بحديدة على شكل رأس الرمح لحرث الأرض تسمى (السكة) ، يركب في أعلىها قطعة خشبية لها مقبض يقبض عليه الفلاح ويربط بها حبلان ، كل حبل لبغل من البغليين ، للتحكم بهما من الخلف و هناك قطعة خشب زودت بماخذ ، يوضع عليها قلادة من جلد تتدلى عن قطعة الخشب ، لتنهي بقطعتي خشب . توضع القطعة الخشبية المستطيلة بهما ، وترتبط ، وتوضع القطعة الخشبية المستطيلة على رقبتي البغليين بعدٍ متساوٍ ، وكانوا يسمونها (النير) وتشد عليهما ، مما يسهل على الفلاح قيادة البغليين أثناء عملية الحراثة .

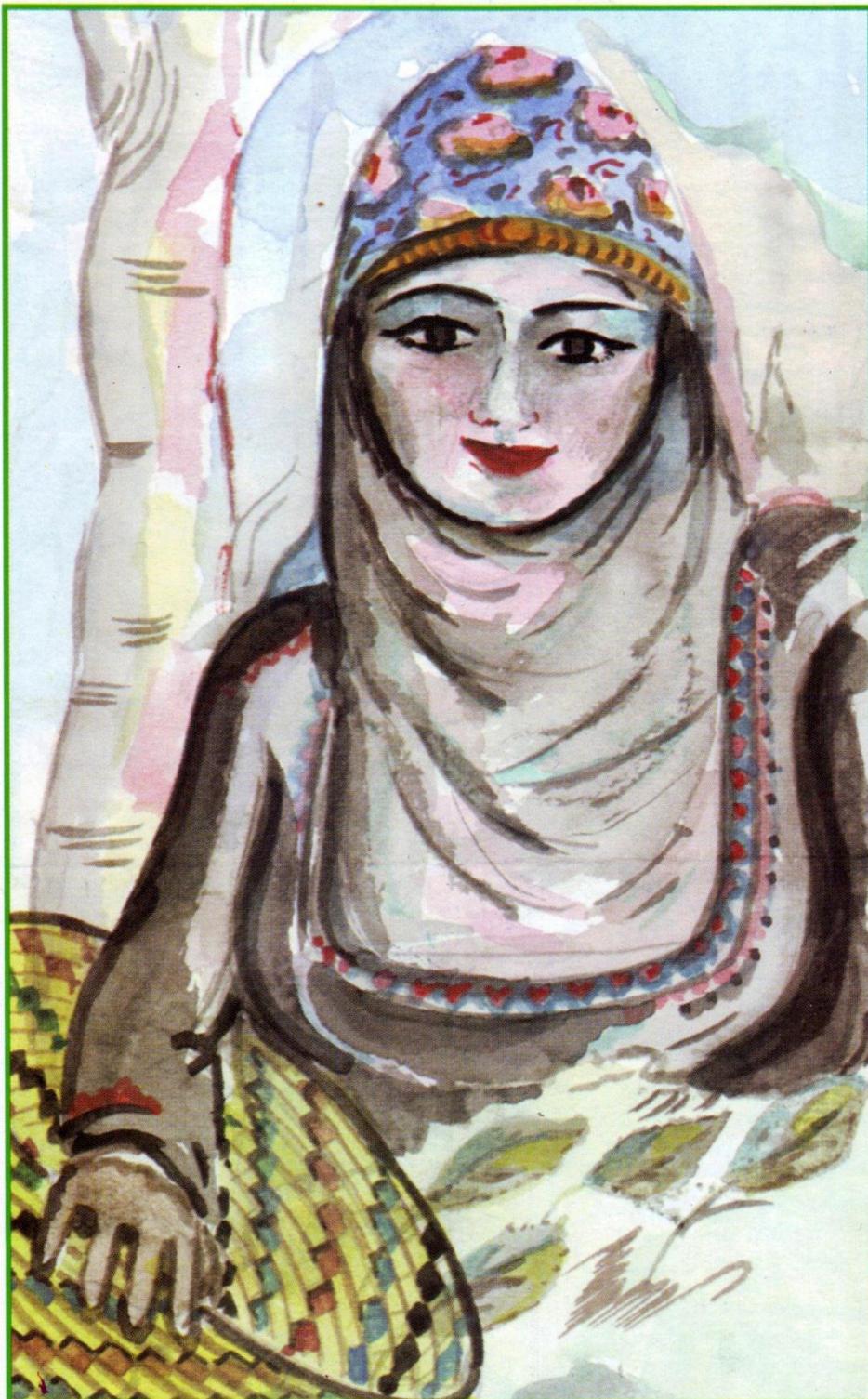
يضاف إلى هذه الأدوات سوط يحمله الفلاح بيده لإرغام البغليين على السير عند التوقف ، وعصا طويلة في نهايتها أداة حادة لتنظيف السكة تسمى (المأسس) . وانتشار الدواب في ذلك الزمان في بلدتنا أمر طبيعي لأنها وسيلة الخدمة الوحيدة آنذاك إذ لا وجود للدراجة والسيارة والجرار ، ولا أي شيء آخر من آليات الحراثة إلا بشكل نادر جداً.

وهذه الدواب كانت وسائل النقل المتوفرة ، فبواسطتها تقرب المسافات ، وب بواسطتها كنا ننتقل ضمن مزارع البلدة وما حولها ، وعليها كنا ننقل غالل الأرض ، لتخزنها في دورنا إلى وقت البيع ، وإذا أراد أحدنا السفر في أطراف البلدة ، فلا بد له من أن يتمطي حماراً أو بغلًا من أجل ذلك ، كان وجود بغل أو حمار مربوط بباب دار أحدنا أمراً عاديًّا لا يبعث على الهجنة كما هو الحال الآن .

من أجل ذلك ، كنت ترى الناس في الصباح وقد خرجوا من بيوتهم ، راكبين

رسم تعبيري لمدخل دارنا القديمة، حيث أمضيت طفولتي.





الرستناوية ، ونقال القش.

دوا بهم وهم يهمون بالانطلاق إلى حقولهم ، بعيدة كانت أو قريبة . مع إشراقة الشمس ، كنت ترى طرق القرية تعج بهم ، وهم يمتطون الحمير والبغال على الطرق الزراعية ، إلى أن يتفرقوا ، حيث يصل كل منهم إلى مزرعته . وهذا دأبهم في ساعات النهار حتى الأصيل ، وقت عودتهم من عملهم إلى بيوتهم مساءً . ولكن هذه الوسيلة التقليدية ، انقرضت بدخول الآلة ، مثل الجرارات الصغيرة والكبيرة وكافة وسائل النقل الأخرى .

بسبب ذلك انقطعت العلاقة التي كانت تربط بين المزارع وتلك الحيوانات ، وفجأة ما عدت ترى في البلدة من تلك المظاهر شيئاً ، إنها العداثة ، ومواكبة الزمن والخضوع لقوانينه .

ذاك بيتنا الجميل الذي أمضيت طفولتي فيه ، كنت شديد التعلق به ، فكل ما فيه كان يوحى لي بالمتانة ، والأمان ، والدفء . وله صورة جميلة لا تغادر ذاكرتي ، ولشدة تعلقي به كان لا يخطر ببالني أنني سأضطر إلى مغادرته في يوم من الأيام ، فكل ما فيه كان شديد اللصوق بي ، بل إنني لأشعر أنه كان جزءاً مني ، ومن تكويني ، بل هو من أشيائي والإنسان شديد التعلق بأشيائه ، ولكن والدي - سامحه الله - باع هذه الدار ، سنة تسعة وخمسين وتسعمائة وألف ، باعها بعد أن بنى بيته آخر يناسب العصر . بيته من الحجارة والإسمنت ، على الطريق الدولي ، ليناسب التطور الذي بدأت تشهده بلدة الرستن . كم كان حزني شديداً لابتعادي عن هذا البيت ، مما كان بمقدوري أن أتصور في تلك الأيام أنني سأغادره ، أو كيف سأستبدل به آخر غيره ،ولي فيه ذكريات ، وذكريات لا تمحى ولا تنسى ، لأنتحول إلى دارنا الجديدة ، عندها تأكد لي أنني لن أعود إليه إلا زائراً إن دعاني مالكه الجديد .

كنت صاحبه ومالكه ، فكل ما فيه لي ، لا ينزعني عليه ولا على حارته أحد . بني والدي بيته الجديد بالحجارة البازلتية السوداء والإسمنت ، كان بيته عصرياً بكل معنى الكلمة بمقاييس ذاك الوقت ، وقد شيده وأحكم تشييده ، فلم يدخل عليه شيء فكان بيته مميزاً ، ذو موقع مميز بالنسبة للرستن ، ولكنني برغم ذلك لا زلت

أحن إلى بيتنا القديم وحارته وأزقتها ، ولا أتصور كيف باعه والدي ، ومهما تكن الظروف ، ومهما كان البديل ، فإني لا أزال أحن إلى ذلك البيت ، وأعتبره الأفضل والأجمل من كل بيوت الدنيا ، بل ومن أجمل قصورها .

**كم منزل في الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبداً لأول منزل**

إنها الألفة ، وأيام الطفولة ورفاق الطفولة ومدارج الصبا ، نعم إنه المنزل الأول .
**وما سكنتى القصور وإن تباهت
نعم إنه بيتنا القديم ، نعم إنه حبي القديم**

والإنسان يحن إلى مرابع صباح ، وإلى أشيائه القديمة ، فله معها علاقة ، وله معها ذكريات لأنه في الواقع يحن إلى صباح ، وما تعنيه من صحة وسعادة .

**لبيتٌ تخفق الأرواح فيه
ليس هذا غريباً عن طبيعي ، فأنا إنسان ، والإنسان يحن إلى منزله ، كما الطيور تحن إلى منازلها القديمة .**

عندما غادرنا منزلنا الجميل ، وعمري لم يتجاوز الحادية عشرة ، تاركاً فيه ذكريات لاثمحي ، وطفولة هي أعز علي من بيوت الدنيا كلها .

**مهد الطفولة والبراءة والقا
والعيش أخضر والزمان زمامي**

**والدهر ملكي والزمان بحوزتي
ما زلت أذكر ، بعد أن تقدمت بي السنون ، ذاك البيت الأول وأحن إليه رغم أن
بيوتنا الجديدة أحسن منه و من جميع النواحي . ومع جمال البيوت وبساطتها
في بلدنا ، إلا أن هذه البساطة كان لها تعقيداتها الكثيرة والمحرجة في أيام
الشتاء ، ولا سيما إذا كانت السنة سنة خير وعطاء ، فبقدر العطاء والخير بقدر ما يكون
الجهد والعناية شديدين على أهل بلدي ، وبقدر ما تكون الفرحة كبيرة بانتظار
المواسم الجيدة والغالل الوفيرة . بيوتنا القديمة كما هي معمظ القرى، كانت**

مشيدة بما هو متوفّر في بيئتنا من الحجارة والطين ، أو من الطين الخالص ، والذي يزيد تشييد دار كان عليه إما أن يقوم بإحضار الحجارة ، ومن ثم يقوم بمعالجة هذه الحجارة بالمطرقة الحديدية ، ثم يكون تشييد الجدران بها وبالطين ، وهو عمل مكلّف ، ويحتاج إلى مال ووقت كثير. والذين يقومون بهذا العمل ، قلة من البناءين . والطريقة الثانية هي الأسهل والأقل كلفة، إذ يعمد من يزيد أن يبني داراً إلى جمع كمية كبيرة من التراب ، ثم يضيف إليها التبن الخشن ويخلطهما بعضهما حتى يتوزع التبن على كل التراب بالتساوي ، ثم يضيف الماء إلى هذا الخليط، ويقوم بجبله حتى يصبح عجينة متماسكة من الطين ، فيقطع هذا الطين المعجون إلى قطع مستطيلة بواسطة قالب مصنوع من الخشب أو الحديد مستطيل الشكل أعد لهذه الغاية وتترك هذه اللبّات الرطبة مُعرضة للشمس والهواء حتى تجف تماماً.

والمشهد الأجمل هو مظاهر التعاون والألفة السائدة بين أبناء بلدتي ، فإنك لا ترى في تلك الأيام رجالاً يقوم بهذا العمل بمفرده ، أو هو وزوجته وأولاده ، وإنما يعاونه الكثير من الأقرباء والجيران والأصدقاء ، فما أن يهم أحدهم ببناء منزل ، إلا ويتبارى إليه جيرانه وأقاربه ، يساعدونه على تحضير اللبّات وتقسيعها ، فإذا هم بالبناء وجدت جمعاً من الرجال وكلهم في ثياب العمل ، كل واحد منهم قد بدأ بركن من أركان البيت ، فما هي إلا أيام حتى يتم تشييد البيت ، فإذا ما انتهوا من تشييد الجدران ، عمدوا إلى وضع الخشب للسقف ومن ثم يضعون القصب ، ويربطونه على شكل حصير يوضع فوقها القش ثم طبقة من الطين الذي بنيت منه الحيطان .

والمشهد الأجمل ، تلك المشاورات التي كانوا يقومون بها عندما يهمنون ببناء البيت ، وبعد أن تنتهي مشاوراتهم ، ويجمعون الرأي ، إذ الرأي عادةً للأكبر ، المعروف برجاحة العقل وسداد الرأي والخبرة ، تبدأ طقوس العمل . وهم يهجزون ويرددون الأغاني الشعبية التي تحت على العمل والكد . فإذا ما انتهوا من العمل ، أخذوا يرددون أغنية أخرى تعبيراً عن انتهاء العمل .

كان هذا العمل ، يتم في أجواء بسيطة من الألفة والمحبة ، وكنت أغبطهم على

هذه الروح الجماعية ، لحبهم لبعضهم ، وهم يمزحون ويمرحون ، فإذا ما انتهى العمل بالنسبة للرجال ، وانتهت حفلة الطعام (العزيمة) ، جاء دور ربة المنزل صاحبة الدار ، فتبدأ بمساعدة جاراتها عملية طلاء جدران المنزل وسقفه بالطين المخلوط بالتين ، فإذا ما أتمت طلاء الجدران والسقف بالطين ، وهو ما يسمونه (التسييع) ، عند ذلك يحضر صاحب الدار قطعة من الحجر أسطوانية الشكل ، ثم يقوم بذلك التراب والطين على السطح الذي لا يزال يحتوي على بعض من الرطوبة .

كانت هذه الأداة البسيطة تسمى (المعرجانة) . يستمر ذلك بها حتى يصبح السقف متماسكاً ، لا يسمح للأمطار بال النفاذ منه ، وهو أمر وللأسف لا بد من حدوثه . بعد ذلك ، تعمد صاحبة الدار إلى صناعة رف أو أكثر في كل غرفة من غرف الدار ، تصنعه من الطين السابق ذكره ، وتجعله في صدر الغرفة . وتخصصه لوضع الأواني القابلة للكسر أو أشيائها التي تريد المحافظة عليها من عبث أطفالها وأطفال جيرانها . لا يتتجاوز عرض هذا الرف العشرين سنتيمتراً ، ويمتد على عرض الحائط ، وتقوم ربة المنزل ، بالتفصين في صناعة هذه الرفوف .

ولهذا البيت سحر وجمال خاص به ، فبعد أن يتم تشييده ، لا بد من عمل آخر ، هو أن تقوم ربة المنزل بطلائه من الداخل والخارج باللون الأبيض (الحوار) ، وهو ما كانوا يسمونه (تحوير) البيت ، والحوال عبارة عن صخور كلسية تؤخذ من الجبل الواقع شمالي الرستن ثم تنفع بالماء أياماً ، إلى أن تصبح محلولاً أبيضاً ، تعمد عندها ربة البيت إلى القيام بطلائه بهذا اللون من الداخل والخارج ، إذا كانت البيوت مشيدة بالطين ، أما البيوت التي شيدت حيطانها بالحجارة البازلتية السوداء ، فتطلى حيطانها من الداخل فقط .

بعد أن تم عملية طلاء البيت ، تعمد ربة المنزل إلى تلوين الرفوف بلون مغاير للون البيت مما يلفت نظر الجالسين ، ترسم بعض النقوش على الجدران من الداخل ويكون جمال تلك النقوش ، واختيار الألوان دليلاً على ذوق صاحبة البيت ، وقدرتها على العمل والإبداع . على الجانب المقابل لهذا الرف ، تصنع ربة المنزل رفأ صغيراً ،

وبطريقة مغایرة ، تستخدمنه لوضع السراج عليه ، والذي يتم بواسطته إنارة المنزل ، وأغلب الدور في فترة الأربعينات وبداية الخمسينات من القرن العشرين ، كانت تُنار بهذه الطريقة . إذ أن الكهرباء ، كانت قد دخلت بلدنا ، ولكن البيوت التي وصلتها ، كانت تعد على رؤوس الأصابع ، ومنها دارنا ، فقد كان والذي سباقاً إلى اقتناء ما أنتجه الحضارة من وسائل ترفيهية ، ولا سيما الكهرباء والمذيع ، الذي كان صندوقاً خشبياً كبيراً وجميلاً ، أما معظم الدور ، فكانت تُنار بالسراج ، وهو الوسيلة الوحيدة في تلك البيوت ، والدار قد تحوي سراجاً واحداً أو اثنين ، ويكون ذلك تبذيراً ، وزيادة في استهلاك الوقود (الказ).

السراج هو عبارة عن وعاء مصنوع من الزجاج على شكل حَوْجلَة ، لها عنق صغير ، قاعدتها كبيرة ، هي خزان الوقود (الказ) ، وعنقه مسنن ، يركب عليه قطعة من الحديد دائيرية يخترقها في وسطها مسمار ، في آخره قرص دائري لتحريره ، لإعطاء الضوء المناسب ، لأن المسمار يتحكم بمسنن تمر عبره فتيلة ، وهي التي تصدر النور بتحديد الكمية المشتعلة منها ، ويوضع فوق الفتيلة ، زجاجة مخروطية الشكل ، شفافة على شكل حاصل ، يتسع من الأسفل ، ويضيق في الأعلى ، تسمح هذه الزجاجة بمضاعفة ضوء المصباح .

وكان إلى جانب ذلك ، كوسيلة للإنارة الطارئة ، (الفانوس) وهو مصمم بحيث يسمح للمستدير به أن يحمله بواسطة يد معلقة في أعلىه ، وقد صمم بحيث لا يسمح للهواء بإطفاء دُبالتة ، وكان يسمى ضَوْ عَرب . أما وسيلة التدفئة في بيونا القديمة ، فكانت تعتمد على الحطب ، الذي كان يصنع له موقد خاص من طينِ كطينِ التنور ، وله مكان للحمل ، وهو دائري أو مستطيل الشكل له قاعدة مناسبة ، وجدرانه سميكية ، يتم إشعال النار في هذا الموقد ، فإذا ما خمدت النار وأصبحت جمراً ، حمله واحد أو اثنان إلى المنزل ، كانوا يسمونه (المَحْمُول) ، وربما كانت تسميته المحمول لأنه كان يحمل بجمره إلى المنزل ، ويوضع في وسط الغرفة ويتحلق الناس من حوله ، فإذا ما خمد جمره وتلاشى حُرك ، فإن لم يبق فيه دفعه أعادوا

إشعال النار فيه مرة أخرى، وهكذا دواليك .

وكنت ترى مداخل الدور وحيطانها ممتلئة بالحطب المكدس ، والذي كان يستخدم للتندفعة وصناعة الخبز وشواء الكبة ، وكانت المحاميل الحديدية قليلة إذا ما قيست بالمحاميل المصنوعة من الطين .

وعاد الشتاء إلى بلدي ، كما في كل عام ولكنه في هذا العام كان شديداً قاسياً ، فهذا العام هو عام خير ، لقد أضافت السماء من بركاتها على الأرض ، وعلى بلدتنا في سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف ، وكنت حينها طفلاً . لا أزال أذكر كيف غمرت الثلوجُ الطرق وسطوح البيوت ، واشتد الجهد على سكان بلدي ، وطال مكوث الثلوج زمناً.

حتى كان يخيل إلى الناظر أن لا وجود لبلدة في هذا المكان ، لولا بعض البيوت التي كانت ما تزال ظاهرة في ما ارتفع من البلدة ، كان كل شيء أبيضاً . منظر جميل ، يبعث عند الطفل البهجة ، فلا هم للأطفال إلا ما يروق لهم . أما الكبار فكانوا في شدة وجهد .

أخذت سقوف البيوت (تدلف) ، وهي كما ذكرنا مصنوعة من الخشب والقصب ومنغطة بالطين ، والثلج ينبعي سطوح المنازل . أخذت قطرات المطر تتسرّب من بين قصب السقوف وتتسقط على رؤوس الجالسين من أهل المنزل ، فأين المفر ؟

لم يبق أمامهم من ملجاً يلجؤون إليه إلا بعض الأقبية ومنها قبو دارنا . كان هذا القبو مبنياً على شكل قناطر ، وهو يتسع للكثير ، وعملاً بالمثل الشائع في بلدتنا البيت الصيق يتسع لألف صديق . ولا أزال أذكر ، وال طفل يذكر . لقد لجأت العديد من الأسر إلى قبونا ، الذي كان من البيوت القليلة التي لم تخترقها المياه لما أسلفنا من طريقة بنائه .

كان قبو دارنا يعج بالكثير من الأسر التي لجأت إليه اتقاءً لبرد ومطر ذلك العام ، ورغم أن مساحته لا تتجاوز الأربعين متراً مربعاً ، فقد استوعب حوالي عشرين أسرة ، وكانت سعيداً جداً فقد كان معظم أولادهم زملائي وأصدقائي ، وكنا نلهو ونلعب .

من الأكلات الشعبية المعروفة في بلدنا (الكبة المشوية) وهي أكلة مُكلفة ، لذلك كانت تتم بطبقوس خاصة ، تصنع الكبة المشوية من جريش الحنطة الناعم المخلوط باللحم الأحمر (هَبْرَه)، بعد أن يضاف إليه بعض الملح والبهار ، حيث يمزج ويعجن جيداً بواسطة اليدين ، ثم يوضع في جُرُن حجري ، ويضرب حتى يتماسك تماماً ويتحدم اللحم مع الجريش فلا ينفصل . والجرن حجر بازلتي كبير فيه حفرة عميقه في وسطه ، يوضع فيها جريش البرغل المخلوط باللحم ، ويضرب بواسطة مطرقة من الحجر الأسود نفسه مصنعة خصيصاً لذلك يسمونها (الميجهنة) ، ولا يزال موجوداً في الكثير من بيوت بلدنا حتى الآن ، إلا أنه استعيض عنه بأدوات الحضارة الجديدة السريعة التحضير وبعد أن تتم صناعة عجينه الكبة ، تصنع على شكل رقاقات دائرية ، يوضع اللحم والشحم والمكسرات على إحداها ومن ثم تلتصق مع رقاقة أخرى حتى يتم الالتحام ، فكل رقيقتين يصنع منها قرص واحد . ثم تعرض على النار بعد أن يحمد لهيبها ، ولم يبق إلا الجمر فإذا ما تم نضجها فهي الكبة المشوية ، وهي أكلة لذيذة وجودتها عنوان للخير والبركة وسعة الرزق . تُصدر عند شوائها على النار رائحة زكية ، فكل الجيران يعرفون مصدر هذه الرائحة ، هو بيت فلان . لذلك كانت تُحضر هذه الأكلة ضمن طقوس خاصة ، فيتفق أهل الحرارة على صناعتها كلُّ في بيته ، حتى لا يسبب إحراجاً لجيرانه . أما إذا عمد أحدهم لصناعتها منفرداً ، فلاشك أنه سيؤدى من الغنيمة بالإياب إذ سيتعرض لغزو الجيران ، فلا يحصل من عمله إلا على الجهد وخسارة المال .

فلا بد له من أن يدعوا جيرانه ليشاركونه طعامه - كبه مشوية - وإن لم يفعل انهم بالبخل ، وهذا ما لا يليق برجل محترم يسكن حارتنا ويسير بين جيرانه دون خجل أو وجع .

لرمضان .. شهر الصوم طقوس خاصة ، تبدأ قبل قドومه بأكثر من عشرين يوماً ، استعداداً لاستقبال هذا الشهر الكريم .

أجواء من الروحانية تعم البلدة ، كل شيء فيها يوحى بقدوم رمضان المبارك .

الاستعدادات لملاقاته كمن يتهيأ لاستقبال عزيز طال غيابه . فإذا كان قدوم رمضان - في أيام تصحو فيها السماء - خرج النسوة والرجال يربون الأفق الغربي ، ينتظرون غروب الشمس وأذان المغرب . في هذه الأثناء ، وضمن تلك التجمعات في الحرارة حيث تجتمع النسوة ، يقمن بعمل مرتبط بشهر رمضان وهذا العمل هو تحضير الشعيرية ، التي هي مع البرغل ، طعام السحور في رمضان (برغل بشعيرية) .

أما كيفية تحضير الشعيرية فتكون بواسطة عجن كمية من دقيق القمح ، ثم يقمن بقطيعه وتحويله إلى خيوط دقيقة ، تقطع هذه الخيوط إلى قطع صغيرة لا تتجاوز عدة سنتيمترات توضع هذه القطع متقاربة على طبق من القش ، وتعرض للشمس والهواء حتى تجف ويندو لونها أصفر يميل إلى الحمرة ، فإذا ما تم جفافه جمعته ربة المنزل ووضعته في حزف في البيت ليكون مع البرغل طعام الصائمين عند السحور . والعجيب في هذا الأمر أن هذه العادة كانت سائدة في كل بيوت بلدنا ، ولا استثناء فيها بين ميسور الحال وغيره .

فكل البيوت تتناول على السحور هذا الطعام (البرغل بشعيرية) ، وكنا نظنها أكلة مقدسة لأننا كنا لا نتناول هذا الطعام إلا في هذا الشهر الكريم .

كانت تتم عملية تحضير الشعيرية بين نساء بلدنا في أجواء تسودها الألفة والمودة ، وما كنت لترى امرأة تقوم بإعداد الشعيرية منفردة .

فطعام الجميع على السحور (برغل بشعيرية) ، وإذا توفر اللبن أضيف إليه الماء ليُشرب مع طعام السحور ، وكان هناك شائعة في بلدنا تقول بأن السحور يجب أن يكون تحديداً من هذا الطعام وإنما .

فالبرغل مع الشعيرية والعيران ، يمنع الجوع والعطش في ساعات الصوم ، التي قد تطول أو تقصر ، بحسب مجيء شهر رمضان في فصل الصيف أو الشتاء . كانت هذه الأجواء من الأشياء التي تلفت نظر المشاهد ، فقد كان يلفها الكثير من الألفة والتعاون . أما تحضير العيران (شَنِينَة) ، فقد كان منتجاً ثانوياً ، يُنتج عند فصل

السمنة الحيوانية من اللبن ، و كان يتم ذلك ، بوضع اللبن والماء في جَرَّةٍ فخارية (مَحَضَّة) ويتم حَصْبُها لعدة ساعات ، حتى تتبول الجُزِيئات الدسمة وتنفصل عن باقي السائل ، ثم تُسْكَبُ في قدرٍ كبير (دَسْت) حيث يطفو الدسم على السطح ، ويؤخذ فيُغلى إلى أن تطفو السمنة ويتربَّب ما تبقى من ماء وعلاقه في أسفل القدر. أمّا السَّيَّالات ، فكانت الحلويات الأفخر في بلدنا ، وكانت تُصنَّع في شهر رمضان الكريم أو عند انتهاء موسم الحصاد الصعب ، كمكافأة للعاملين فيه ، على جهودهم وحسن بلائهم ، وكانت النساء تصنعها من مزج الماء بالطحين ليُشكّل عجيناً سائلاً ، يتم سكبها مباشرةً على صفيحة حديدية مُحدبة الشكل (صاج) لا يزيد قطرها عن سنتيمتراً ، تشتعل النار تحتها فيتحول العجين السائل مباشرةً إلى راقية دائريَّة. توضع فوق بعضها في وعاءٍ مسطح (لَجَنْ) ثم تُنْعَطُ بالسمنة المُسخَّنة ، ويُسْكَب عليها محلول السكر بالماء المغلي . فتصبح برايئة سمنها ومذاق طعمها قِبْلَة للذواقين .

مع تقدم الأيام ، ودخول نسائم المَدَنِيَّة إلى بلدنا ، بدأت هذه الظاهرة تخف وانقرضت هذه المأكولات ، وأكاد أجزم بأنها انقرضت من جميع البيوت .

لا بد أن وجود هذه المأكولات في ذلك الزمان ، كان من وسائل تكيف الإنسان مع بيئته فهي طعام كلفته بسيطة ، وتحضيره أبسط .

فالدقيق موجود في البيت ، والبرغل والسمنة كذلك ، وهنَّ من أساسيات المؤونة التي تحضر بشكل مستمر ، ومحضدة في كل أوقات السنة ، والعديد من الأطعمة الحالية الجاهزة ما هي إلا من قبيل الفدلكة أو ما يسمونه (الضحك على اللحم) إذ لا جديد في هذه الأطعمة إذا ما قيسَت بما سبقها ، فالبرغل نفسه ، والعجين والسمنة نفسها ، ولكن وسائل التحضير هي التي اختلفت .

كانت الرستن تعاني من مشكلة حقيقة اختارتها لنفسها ، وذاك بسبب موقعها المميز الذي اختاره أهلوها ، عندما تم تشييدها بهذه الطريقة ، فلكل شئ ثمنه ، ومن يريد السكن عالياً عليه أن يتحمل مشقات الوصول إلى هذا السكن .

وبلدتنا كسائر بلدات الريف السوري ، فالحضارة لم تهب أنسامها عليها إلا في النصف الثاني من القرن العشرين ، وكان الحديث عن توافر الماء في الدور وجوده في صنابير كل بيت في الخمسينات ضرب من الخيال ، ووهم من الأوهام .
الماء في كل بيت من بيوت البلدة ! حديث لا يصدق !

وبما أن بلدتنا الرستن اختارت أن تترفع على قمة الهضبة ، فمن الطبيعي أن الماء لن يكون في الأعلى وإنما في ما انخفض من أرضها ، في الوديان حول الهضبة .
وكانت مصادر الماء متوفرة ، ولكنها في أسفل البلدة ، في وديانها .

كان المصدر المائي الذي يشرب منه سكان الحي التحتاني ، عين أبي يزيد ، والعين الغربية وماء كلا العينين صالح للشرب والاستخدامات الأخرى . ولتسمية كلا العينين سبب ، فعين أبي يزيد لقناعة الناس بأن مصدر مياهها يأتي من تحت جامع أبي يزيد البسطامي . وهي تقع في الوادي الغربي من الرستن ، والمتوجه بانحدار من الجنوب إلى الشمال . والعين الغربية لوقوعها جنوب غربي بلدة الرستن .

أما الحي الفوقي فكان يتزود بالماء من عين يسمونها عين التين ، وهي عين تقع في الوادي الشرقي من الرستن ، وقد أحاطت بها أشجار التين المعمرة ، ومن هنا كانت تسميتها بعين التين . إلى جانب ذلك انتشرت على نظام وغير نظام أشجار الرمان والجوز والصفصاف والقصب والعليق وغيره .

وكانت النساء يتهادين زرافات ووحداناً ، وهن يحملن الحرار الفارغة ليعدنها مملوقة بالماء من تلك الينابيع الواقعة في الوديان المحيطة بالبلدة ، ولا سيما عين التين فكانت الأكثر بعداً عن المنازل والأكثر انخفاضاً ، وبالتالي بعدها عن المنازل ، وإحضار الماء منها أكثر صعوبة . إذ أن مهمة إحضار الماء من مهمات النساء ، وكان ذلك مشكلة المشاكل بالنسبة لنساء البلدة ، فإذا وقفت غرب الرستن ونظرت إلى البلدة عند الأصيل ، أو أي مكان يشرف على البلدة لاحظت أسراب النساء (الرستنويات) وهن يرتدين زيهن التقليدي ، يحملن جرارهن الفارغة وبهبطن بها باتجاه العين ، أو يرجعون بجرارهن المملوقة بالماء في حركة دائبة .

كان منظراً رائعاً لمن يشاهد، وشاقاً لمن ينقل ، نساءً يحملن الجرار ويرتدبن الذي التقليدي ، وكان عبارة عن روب سابغ من القماش ذي اللون الأسود المطرز بالحرير الأحمر والأصفر على فتحة الصدر ، وعلى ذيل الثوب ، ولا سيما من الجهة الأمامية. أما غطاء الرأس فهو عبارة عن خمار أسود من القماش الناعم يلف الرأس ، ويغطي فتحة الصدر التي رسمت على شكل نصف دائرة ، وبعلوه ، خمار يسمونه الشال ، وكان يسمى (محرمة) ذات ألوان متداخلة تعكس ألوانها على وجه المرأة فتزدهر جمالاً ، وكل امرأة تختار لون (المحرمة) التي تناسب لون بشرتها ليكون ذلك أكمل لمظاهرها. تراهن يحملن جرارهن مملوءة بالماء ، ويتسلقن الجبل في تلك الطرق الضيقة الوعرة والجرار على رؤوسهن ، متوجهات إلى بيوتهن في البلدة ، ليدخلن البلدة ويختفين خلف البيوت فجأة ريشما يفرغن الجرار ، ليُعدن سيرتهن الأولى من جديد كان هذا دأبهن في الصباح الباكر مع شروق الشمس ، وعند الأصيل عندما تميل الشمس للمغرب . ولهذا التوقيت أسباب ، منها أن النسوة يكن قد عدن مع أهلهن من العمل في الحقل وهو وقت فراغ يملأنه بإحضار ما يلزم للبيت من الماء ، وبعد ذلك يحضرن الطعام بعد أن تكون الشمس قد انحدرت وحل الظلام .

والسبب الثاني أن هاتين الفترتين ، فترة الصباح ، وقبيل الغروب ، يكون الجو فيهما لطيفاً ولا يضاعف المشقة على حاملات الجرار الم المملوءة ، ولا سيما وقت الظهيرة حين يشتد الحر في تلك الوديان ، ولا سيما في الجهة الشرقية حيث يكون الحر في الظهيرة شديداً لأن جبال الرياح خلف الجبل من الجهة الغربية .

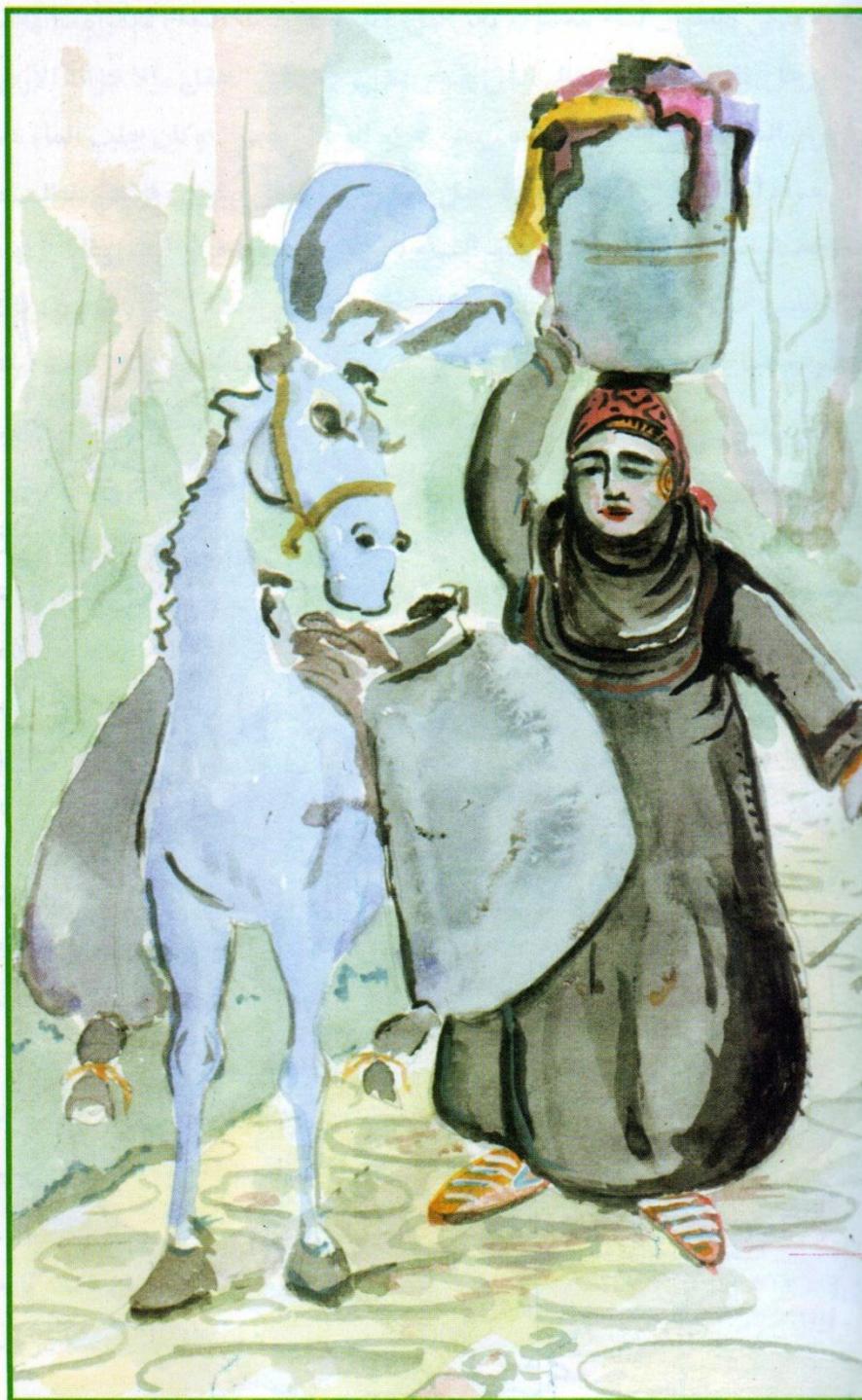
فإذا نظرت من مكان مشرف على المدينة من غربها أو شرقها ، لاحظت النساء وهن يحملن جرارهن على رؤوسهن في خط متعرج على الطرق المتلدية ، يصعدن الطريق في الجبل ، لا يفصل بين الواحدة والأخرى إلا بضع خطوات ، وقد يحلو لهن الحديث وقص بعض السير وهن يحملن جرارهن ، ويدو من حركات الأيدي أنهن يقمن بحل بعض المشكلات ، أو يتواعن على العودة من جديد ، فهن يقمن

بعملهن بنشاط لا يعرف الكل ولا الملل ، بجلد على التكيف مع قسوة الطبيعة وشدة الظروف .

والسعيدة منهن من توفرت لها راوية تحضر بها الماء ، والراوية عبارة عن مزادتين مصنوعتين من الكاوتشوک الذي يمنع نفاذ الماء ، لها عنق يسمح بصب الماء فيه ، ويوزع الماء على المزادتين بالتساوي ، ولها من الأسفل مأخذ ضيق مصنوع من جلد طري يسمح ب النفاذ الماء بالقدر المطلوب ، ويمكن ربطه أثناء ملء الراوية بواسطة خيط ثخين يمنع تسرب الماء منه . تتسع الراوية لحوالي مائة لتر من الماء ، بينما لا تتسع الجرة لأكثر من خمسة عشر لتراً .

كانت الراوية توضع على ظهر الحمار أو البغل ، ويتم ملء الراوية بواسطة وعاء ، وبعضهن كانت تحضر معها قمع من التوقياء لملء الراوية ، تضعه في عنق الراوية ، حيث تضع سطلاً تحت مصب النبع ، تجمع الماء فيه ، ثم تفرغه في الراوية ، فإذا ما امتلأت ساقت حمارها أو بغلها وانصرفت ، فما هي إلا نقلة أو اثنان حتى تقضي حاجتها من الماء . كان الماء يوضع في الخوابي ، وفي دنان كبيرة مصنوعة لهذه الغاية ، في زاوية من زوايا الدار . أما الخابية ، فهي وعاء فخاري كبير يتسع لجرتين أو ثلاثة من الماء ، وكانت توضع في مدخل الغرفة خلف الباب في مكان مخصص دخل بعضه في الحائط الذي خلف الباب . وكان الشباب عند الأصيل يتقاطرون إلى طرقات العين . يراقبون الفتيات وهن ينزلن إلى العين ، أو حين يرجعن إلى بيتهن بجرارهن ، وكل منهم له محظية منهن يرنو إليها ويبادلها الإشارات ، وتبادله ، وكان درب العين مسرحاً للقاء العشاق بعضهم ببعض ، فالفتيات يذهبن لإحضار الماء في أجمل ثيابهن ، وكذلك يذهب الشباب بشيابهم الجميلة ، وكأنهم على موعد مضروب من قبل .

كانت مهمة إحضار الماء من اختصاص النسوة ، رغم صعوبة إحضاره والمشقة التي تعانيها النسوة في سبيل ذلك ، ولا سيما اللواتي كانت بيتهن في أعلى البلدة أو في أطرافها الجنوبية ، فالارتفاع والمسافة كبيران .



الرستناوية والراوية.



الرستنويات ، ونبع أبا يزيد البسطامي.

ولا يعني ذلك أن نساء بلدتنا لم يكن لهن عمل إلا إحضار الماء ، فالمرأة شأنها شأن الرجل تقوم بكل الأعمال التي يقوم بها الرجال في الحقل ، إلا حراة الأرض ، وري المزروعات والمحاصد ، فهي من عمل الرجال حصراً ، وكان جلب الماء مهمة المرأة أما الرجال فلا، فللمرأة عمل ، وللرجل أعمال أخرى ، فلا هي تتطلب منه إحضار الماء ولا هو يتطلب منها القيام بأعمال الحراة وري المزروعات ، فهذه تتطلب جهداً عضلياً لا يناسب طبيعة المرأة . وللماء وإحضاره ذكريات وذكريات ، فرغم بساطة الحياة ، وتتوفر الماء حول البلدة من تلك الينابيع التي كانت مياهاها تزيد عن حاجة البلدة ، فتتزوى بها المزروعات وتنطلق لتغذية نهر العاصي في الليل ، إلا أن أمر إحضار الماء لا يخلو من بعض المعوقات.

حيث تترافق النسوة على نبع الماء ، ويتجمهرن ، ويعملون للحظ ، وينتعلى الصراح ، وما هي إلا أن تشبّع مرارة تبدأ بالكلام لتنتهي بالضرب والسباب ، وبالسرعة التي ظهرت بها هذه الزوبعة تنتهي ، إذ سرعان ما تتدخل بعض النساء العاقلات للحجز بين المتخاصمات ، ومن ثم إجراء المصالحة بينهن ، وغالباً ما كانت تتم المصالحة بقيام الصغرى بتقبيل رأس الكبرى ، وتبادلها الأخرى القبلة ، وتنتهي المسألة كأن شيئاً لم يكن .

كان والدي متعدد الأعمال ، وكنا نقطن حينها - أي في الخمسينيات من القرن الماضي - منزلًا نستطيع تسميته (سراة حي الرستن التحتاني) ، وقبل بداية حي الرستن الفوقاني كما هي تسمية الحيين في ذلك الوقت ، التحتاني والفوقاني وهي تسمية لا تزال حتى يومنا هذا .

فمنزلنا يقع في وسط السفح الغربي ، في منطقة متوسطة في الرستن ، فمنه إلى الذروة تقرباً نفس المسافة منه إلى أسفل الوادي الغربي ، تحضنه الرستن من جميع الاتجاهات.

كان والدي نشيطاً موفقاً، يستمر ما يملكه من أرض ورثها عن جدي رحمه الله ، وإلى جانب ذلك كان يقوم باستئجار أراضٍ أخرى ، وتشغيل أسر فيها ، مما در عليه

مكاسب جيدة في حينها ، كان موفقاً ومربٌ ذلك إلى نشاطه ومثابرته ، فكان حفظه الله ، يغتنم كل صغيرة وكبيرة كان جاداً لا يؤخر عمل يومه إلى غده ، وقد عمل في التجارة ، فكان موفقاً وجني أرباحاً لا بأس بها .

كان لا يخاف الجديد ، فمزارعه كانت نموذجية مقارنة بغيرها ، وكان أول من أحضر غراس العنبر الحفرزي إلى الرستن ، من شمالي محافظة إدلب في أواخر الأربعينات من القرن الماضي . وفي ربيع كل عام من الخمسينات ، وعند تقليمنا لجفن العنبر الحفرزي لا يتبقى لدينا أيٌ من أغصانها بسبب طلب الناس لها لزراعتها ، وكان والدي مسروراً بذلك يقدمها مجاناً ، بالرغم من حاجتنا الماسة لها كوقود للطهي والتدفئة . ولم تنتهِ الخمسينات إلا والعنبر الحفرزي محصول الرستن الرئيسي على الإطلاق . ونفس الشيء تكرر في السبعينات مع زراعة الدراق .

كانت تجارة القطن في الخمسينات حُرّة ، قبل أن تضع الدولة يدها عليها . وكان والدي يشتري القطن من المزارعين ويبيعه لحسابه في حلب ، وقد استفاد من هذه التجارة التي درت عليه مكاسب جمة ، أذكر أنه في منتصف الخمسينات من القرن العشرين ، كان قد اشتري القطن بثلاثمائة ليرة للقنطار الواحد ، وقد تضاعف الثمن فكان ربحه في تلك السنة عظيماً .

أستطيع أن أقول أن والدي كان ميسور الحال نسبياً في تلك السنوات ، إذ كان حاله مميزاً بين أقرانه ، من عمله تاجرًا للأقطان واستئجار الأراضي التي كان يقوم بتشغيل العمال فيها بالميومة أو بالحصة ، وهو ما يسمونه المُرابعة ، حيث يقدم مالك الأرض أو مستأجرها كل شيء من بذار وحراثة وأسمدة ، ويقوم الفلاح صاحب الربع برعاية المزروعات وريها وجني المحصول ، فالجهد على الفلاح ، أما الكلفة فهي على صاحب الأرض . في خريف عام ستة وخمسين ، وكما ذكرت سابقاً ، كان لدى الحاج سليمان - حفظه الله - عدة مشاريع زراعية مستأجرة ، منها قطعة أرض تقع شمال طريق قرية الغجر (غرناطة حالياً) الواقعة جنوب غرب الرستن ، وتبعد

عن طريق حمص - حماه حوالي كيلو متر واحد ، و كان يعمل بها المرحوم أحمد شريف خطيب وأسرته ، وفق نظام المراقبة الذي كان سائداً في ذلك الوقت . كان الحاج سليمان و كعادته قد أنفق الكثير على قطعة الأرض هذه ، من الأسمدة العضوية والكيميائية و الفلاحة ، ولم تكن الأرض جاحدة فقد كانت غالباً وفيرة في ذلك العام وخصوصاً من القطن الذي كان محصولها الرئيسي ، كان المحصول في ذلك العام جيداً في هذا المشروع وغيره من المشاريع المستأجرة ، شأنها في ذلك شأن أرضنا المروية في منطقة بَسْكُو غربي الرستن ، والتي كانت مزروعة بالأقطان والفاصولياء والبصل إضافة إلى أشجار التين والجوز والرمان و كروم العنبر الحَفَرَزَلي الدائع الصيت ، أما أرضنا غير المروية في منطقة الْكِنْ شرقي الرستن فقد كانت مزروعة بالقمح .

بعد جني محصول القطن في مشروع طريق قرية الغجر ، تم استئجار جرار زراعي مجنز لفلاحة الأرض ، وحيث أن شجيرات القطن مرغوبة كحطب لاستخدامات المنزليه فقد رغب المزارع أن يجمع شجيرات القطن مباشرة من وراء سكة الجرار قبل أن تُطمر بالتراب ويصبح جمعها أصعب .

في عصر أحد أيام ذلك الخريف ، ذهبت مع والدي واثنين من أصحابه إلى مدينة حمص حيث شاهدنا فيلماً أمريكياً عن رعاة البقر ، في لوج (غرف صغيرة مستقلة كراسيها منجدة بالمخمل الأخضر) في سينما القاهرة ، كانت أول مرة أشاهد فيها فيلماً في إحدى دور السينما ، حيث كنت قد شاهدت من قبل فيلماً زراعياً عرضته إحدى السيارات الحكومية الخاصة على جدار مخفر الدرك في الرستن .

وعند عودتنا إلى الرستن قبيل منتصف الليل بقليل قرر والدي النزول عند مفرق قرية الغجر على الطريق الدولي ، بينما تابع صاحبه طريقهما إلى الرستن ، وسرت على الأقدام مع والدي إلى المشروع ، وذلك للاطمئنان على سير العمل في فلاحة الأرض وتجهيزها للموسم القادم . كانت الأمور تسير على ما يرام ، فالجرار يفلح والمزارع الذي كان يلبس ثوباً (جلابية) رمادية اللون يجمع شجيرات القطن

المقلوعة . وأخذني والدي إلى خيمة في طرف المشروع للاستراحة قليلاً وشرب الشاي قبل العودة على دراجته الهوائية إلى الرستن ، وما إن وصلنا إلى الخيمة حتى بدأ الصراخ يعلو من جهة الجرار ، وأسرعنا إلى هناك ، حيث شاهدت المراجع شبه ميت والدم ينزف من فمه ، فقد علق ثوبه بدولاب سكة الفلاحة ، الذي سحبه وعصره دون أن ينتبه سائق الجرار لذلك ، ودون أن يسمع استغاثته بسبب ضجيج الجرار المرتفع ، وما إن انتبه صدفة ، حتى أوقف الجرار ، إلا أن الرجل البالغ من العمر حوالي الخمسين عاماً كان غائباً تماماً عن الوعي ودون حراك .

وحمله والدي ابن الأربعين عاماً إلى دراجته الهوائية ، متوجه نحو الطريق الدولي بقصد إيجاد سيارة لنقله إلى مشافي حمص وأنا أركض خلفهم .

ولكن أين السيارة في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟! وتوفي الرجل ... لأول مرة في حياتي أشاهد رجلاً طالما أحبيته ميتاً . ولأول مرة في حياتي أيضاً أشاهد الحاج سليمان ، الرجل الذي لم أره قط في حالة ضعف ، يضم المتوفى ويبكي بكاءً شديداً . وبدأت أبكي معه ، وضمني والدي وأصبحنا نبكي سوية . تركت هذه الحادثة آثارها العميقه علىّ ، وفاة رجل عايشته وأحبيته ، كنت ألعب مع أولاده وبنته ، أزورهم ويزورونني . أما بكاء والدي الذي كنت أظنه جباراً لا تؤثر فيه الأنواء والنائبات ، قوياً وشديداً ، اكتشفت فيه ما لم أكن أعرف ، اكتشفت فيه قلباً عطوفاً رحيمًا ، اكتشفت فيه الإنسان الكبير الذي يعطي كل مقام حقه دون زيادة أو نقصان ...

إلى جانب بيتنا القديم في وسط الرستن كانت تقوم دكان مصطفى محمود الذي كان معروفاً بمصطفى النمر رحمه الله . كان دكان النمر صغيراً لا يتتجاوز الستة أمتار مربعة ، وقد وضع بعد مدخل الدكان طاولة كانوا يسمونها (ميسْتُدُور) ، وكان يقف خلفها ليبيع الزبائن وكانوا من جميع أنحاء الرستن . كان ذواقاً في اختيار معروضاته من أغطية الرأس للنساء التي كنا نسميها (العصبة) ، وهي محارم ملونة ، والأحدية والأقمصة وما شابه ذلك .

كنت في الحادية عشرة من عمري عندما أخذني والدي إلى دكان جارنا النمر وقال له ممازحاً: سمعنا بأنك جلبت إلى دكانك وعلى غير عادتك أحذية جلدية ممتازة . كان الذين في مثل سني يتعلون الأحذية البلاستيكية (جزمه) ، وحتى الكبار كانوا يتعلونها، وهي أحذية ترد الماء عن القدمين والساقيين فقط ، أما الصيق فلا .

قال النمر : أجل ، ولكن لمن تزيد الحذاء ، فأجابه مداعباً جاداً : أريد حذاء للأستاذ محمود ، فلا يليق بالأستاذ أن ينبع حذاء بلاستيكياً ، الأستاذ محمود يجب أن ينبع حذاء جلدياً ثميناً يليق بأستاذ مثله ، هكذا كان والدي يلقبني في تلك السن المبكرة وهكذا كان ينفث في روعي ويهيني للقادم من الأيام .

لقب الأستاذ كلمة عظيمة كان والدي يطلقها علي ، وأشك في أنه كان يعرف ماذا تعني بالنسبة لطفل في مثل سني ، وهي كلمة لها ما لها من دويٌّ خاص في نفسي في تلك الأيام منذ أن دخلت المدرسة الصفراء ، وهي المدرسة الوحيدة للذكور في بلدتنا آنذاك ، وكنا نسميها بالصفراء لأن جدرانها قد طليت باللون الأصفر ، لأن هناك مدارس أخرى تغاييرها في اللون . كانت الأحذية الجلدية قليلة في ذلك الزمان وغالبة ، ولا يستطيع كل إنسان أن ينبع حذاء جلدياً ، فهذه كلفة ، والحذاء الجلدي نوع من الترف والرفاهية التي لا يقدر عليها معظم سكان بلدتنا . أحضر النمر الحذاء الجلدي الجديد ، وكان موضوعاً في علبة من الورق المقوى ، وكان الحذاء على مقاس رجلي تماماً .

انتعلته ، وببدأت أنظر إليه فرحاً ، ولاحظ والدي كم كان سوري بحذائي الجديد الشمين ، بعد خلعي حذائي الجلدي القديم العادي ، المبلل بالماء ، وانتعلاني الحذاء الجديد .

كنتأشعر بالسعادة تملأ جوانحي ، لا سيما أني سأسير به بين زملائي وأقراني الذين يتعلون الأحذية البلاستيكية ، ولهذا ماله من وقع وتميز بين أقراني وخالاني . كم تزيد ثمن الحذاء ؟ سأله والدي النمر الذي أجابه : اثنين عشرة ليرة سورية . لكن والدي أجابه مداعباً جاداً ، ليرة سورية واحدة ربح حلال ، ولكن النمر أصرَّ

على موقفه اثنى عشرة ليرة سورية وإنما أعاد الحذاء إلى مكانه ، وكاد الأمر يفلت من يدي ونظرت إلى والدي الذي أشار إلى أن أضع له حذاءه في علبة الورق المقوى ، مسيراً إلى حذائي القديم . فما كان مني إلا أن وضع الحذاء القديم في علبة الورق المقوى بدلاً من الحذاء الجديد ، وناولت والدي العلبة ، الذي أعادها بيده إلى البائع . فما كان من النمر إلا أن أعاد العلبة بما فيها إلى مكانها القديم على أحد الرفوف وهو يظن أنه الحذاء الجديد ، ومررت الدعاية على النمر ، وذهب مع والدي مسروراً مزهوأً أختال بحذائي الجديد . أما البائع النمر فإنه لم يشاهد ما حصل بيدي وبين والدي وذهابي بالحذاء الجديد بسبب وقوفه خلف الطاولة (المستدور) .

وفي طريق عودتنا إلى البيت قال لي والدي : سوف يكتشف النمر دعابتنا ، وسوف يقبل عرضنا بليرة سورية واحدة ربح حلال . وهنا زالت دهشتي مما حدث . كان ذلك في أوائل كانون الثاني ، وبعد حوالي سبعة أشهر وفي أواخر شهر تموز كان حذائي الجلدي الجديد قد اهترأ أو كاد ، وكنت حينها أجلس مع أبي وبعض أصحابه في صيف ذلك العام ، نشرب الشاي أمام دارنا .

وإذ بالنمر يطلع علينا وهو يتمتم ويصرخ بعبارات يفهم بعضها وبعضها الآخر أو معظمها لا يفهم ، وبهذه العلبة والحذاء القديم الذي وضعته له فيها قبل أكثر من سبعة أشهر ، وبالصدفة كنت أنتعل نفس الحذاء الجلدي الذي كنت قد اشتريته منه . لم يكتشف النمر رحمة الله الدعاية إلا بعد مضي هذه الأشهر ، والسبب في ذلك بسيط وهو أن من يشترون هذه الأحذية قلة ، وهذا الحذاء بالإضافة إلى كونه جلدياً ثميناً فهو حذاء للأطفال ، والذين يشترون لأطفالهم أحذية جلدية نادرون لبساطة الحال وقلة المال .

فقد حضر أحد الموسرين إلى النمر ، وطلب منه حذاءً جلدياً لابنه الذي هو في مثل سني وبدون الحاجة إلى إعمال الفكر أو تقليل البضاعة أمسك النمر بالعلبة ذاتها وأعطتها للرزيقون ، وعندما فتح الرزيقون العلبة ، وجد فيها حذاءً مهترئاً هو حذائي القديم

ولكن الشاري حمل الحذاء بيده وأراه للنمر معاً غاصباً ، فليس الوقت وقت سخرية وما جئنا لهذا . ووضع الحذاء أمامه على الطاولة ، عندها نظر النمر إلى الحذاء المهترئ ، لم يعمل الفكر كثيراً ، ولم يتعبه بالكد والبحث ، فمسألة كشف الفاعل لا تحتاج إلى الكثير . منذ حوالي سبعة أشهر جاء أبو محمود وولده ، وآخر من عرض عليه الحذاء هو محمود إذاً هو الذي فعلها . ودون اعتذارٍ من المشتري أغلق دكانه وحمل الحذاء القديم المهترئ في العلبة ، وجاء إلينا مُرعداً مُزبداً ، وكرر مقولته الأولى : أريد ثمن الحذاء اثنين عشرة ليرة سورية . لكن والدي ردّ عليه مرة أخرى مداعباً مؤنباً ، قلت لك : ليرة سورية واحدة ربح حلال ، كما قلت لك من قبل ، ورفض النمر . فقال لي والدي : أعد له حذاءه ، وكان قد أصبح مثل سابقه شبه مهترئ ، وفوراً خلعتُ الحذاء . وهنا صاح النمر : موافق ، هات تسع ليرات سورية ثمن الحذاء . ثمانية ليرات وليرة سورية ربح حلال ، ليصبح المبلغ تسع ليرات . ونَقَدَهُ والدي ثمن الحذاء ، وهكذا حلّت المسألة بهذه البساطة ، بساطة أهل البلدة الذين وإن كانوا باعة وتجاراً فهم لا يعرفون الكذب ولا يأكلون الحرام - ومن لا يكذب - تهون كل عيوبه الأخرى .

فالنمر لم يقل لوالدي تسع ليرات وأخرى ، فيكون المبلغ عشر ليرات ، هكذا حلّت المسألة دون حلف أيمان كاذبة كعادة الكثير من الباعة في ترويج بضاعتهم في هذه الأيام . دفع والدي ليرة سورية واحدة ربح حلال للبائع النمر .

كان والدي مقداماً ، لا يترك أمراً فيه منفعة مباحة إلا بادر إليه . كان يجرب الأمور وينجح كثيراً ويفشل قليلاً . وكان يحسن الاختيار ، فقد كان رجلاً عملياً ذو نظر ثاقبة ، إضافةً إلى أنه كان كثير الإحسان والمساعدة لأقربائه وأصدقائه وجيشه حتى البعيدين منهم فكان شديد التواصل حتى مع أقربائنا في مدينة ينبع وحماء ، ناهيك عن علاقاته الواسعة والمتعددة داخل الرستان وخارجها وخصوصاً مع السادة العلماء . كان من ميسوري الحال في بلدتنا ، فقد كان ينظر ببصره الثاقب إلى البعيد وإلى ما يجب فعله في القادم من الأيام .

وما قصة بيعه لبيتنا القديم إلا لنتقل إلى الأفضل ، وتحقق منه إلى ما سيؤول إليه حال الدُّور وموقعها في المستقبل ، وكان له ما أراد فهو يُقدم إذا كان لا بد من الإقدام ، وكان في الإقدام مَغْنِمٌ ، ويُحْجِم إذا كان لا بد من الإحجام ، وكان بغيره مَعْرُمٌ . شهدت بلدتنا في فترة الخمسينات مرحلة نهوض اقتصادي ، فقد دخلت الكهرباء إلى الرستن في أواخر العقد الرابع ، وببدأ تشييد معمل الإسمنت في شرق الرستن في أواخر العقد الخامس ، وقبل ذلك بأكثر من عقدين بُني معمل توليد الطاقة الكهربائية على مجرى العاصي غرب الرستن .

كان المذيع (الراadio) من وسائل الحضارة التي دخلت مع غيرها إلى بلدنا مع دخول الكهرباء ، على أنني أظن أن عدد أجهزة المذيع في الرستن في تلك الفترة كان لا يتتجاوز أصابع اليد . ودخل الهاتف الرستن في مطلع السبعينات ، وكان يعمل بالطريقة اليدوية (مائًا ويل) .

كل هذه الوسائل التي كانت تعتبر من أشكال الرفاهية والترف ، كانت موجودة في بيتنا القديم . والشيء الذي يلفت النظر كان المذيع ، كان الناس لا يكادون يصدقون صدور هذا الصوت ، أو سماع هذا الغناء من هذا الصندوق الخشبي . كانوا يحسبون أن هناك أشخاص في داخل هذا الصندوق يتكلمون وينون ، وربما يكونون من مخلوقات أخرى .

وكانت مسألة إقناع السامعين من المعضلات التي يشقُّ على المتنورين حلها في تلك الأيام إلا أن هذه المعضلة لم تلبث طويلاً حتى حلّت مع الأيام ، ومع انتشار أجهزة الراadio ذات الأحجام المختلفة في معظم بيوت البلدة .

لم يكن والدي يجيد القراءة والكتابة ، ولكنه كان متعدد المواهب . إضافة إلى استئجار أرضه الموروثة عن أبيه رحمه الله ، واستئجار غيرها ، وتجارة الأقطان ، كان يتعمد بناء بعض المنشآت الحكومية الصغيرة والمتوسطة . وافتتح صيدلية زراعية كانت الوحيدة في البلدة ، كان يبيع فيها البذور الزراعية والأسمدة

والمبيدات الحشرية . و مخبزاً لصناعة الخبز على الطريقة الحديثة . جهزه بما يلزم من آلات العجن وتقطيع العجين وترقيقه ، فلم يبقَ من العمل اليدوي في هذا المخبز إلا الخباز ، ومن يقوم ببيع الخبز وتحضير المواد . ليتهيأ أو ليكون ذلك إيداعاً ببداية انقراض التنور ، (والضد يظهر حسه الصد) . فهناك مشقة وخوف ، وهنا راحة وأمان ، مخبزٌ ينتج خبزاً بكميات كبيرة وطازجة في زمن بسيط ، بينما التنور لا يقدر على ذلك.

كان الناس رجالاً ونساءً يتلقاطرون على مخبزنا الحديث ، ويعودون بالخبز . وقد لاحظ الناس الفروق الكبيرة بين تنورهم القديم وهذا المخبز الحديث ، الذي ينتج الخبز الكثير في وقت وجيز ، كان مخبزنا يقدم الخبز لأهل بلدتي في الوقت المطلوب ، وقبيل ذهاب الناس إلى أعمالهم ، فقد كان يبدأ بالعمل بعيد منتصف الليل بقليل ، وينتهي العمل في الصباح وهكذا وضع والدي نظاماً لتشغيل مخبزنا الحديث ، وكان معظم العاملين فيه من مدينة حمص ، فكان هذا المخبز من أفضل وسائل الترفيه على الناس بشكل عام ، والنساء بشكل خاص .

كان تحضير الخبز يكلف ربة البيت يوماً من كل أسبوع ، من تحضير الطحين ونخله وعجنه وانتظار اختمار العجين ، ثم تقطيعه و تحضير الحطب لإيقاد التنور ، ثم صنع الرقائق من العجين المقطع ، إلى خبزه ، بتلك الوسيلة التي فيها ما فيها من خطر على ربة المنزل ، إذ قد تلتهم النار بعضاً من ثيابها وتلحف وجهها وتحرق يديها . ولّى عهد التنور وقصصه ، وحلّ محله هذه الصناعة الحديثة ، وكان والدي أحد السباقين في إدخالها إلى البلدة .

كانت وسائل البناء تقليدية عملاً بالموجود المتوفر ، ولم يكن متوفراً من مواد البناء في بلدتنا إلا الحجر والطين ، وكانت البيوت تشيَّد بهذه المواد ، ومع هبوب أنسام الحضارة على بيوت الرستن ، كان والدي من السباقين مع غيره إلى إقامة مكبس لصناعة الخفاف وهو مُصنَّع من الحصى والرمل والإسمنت . كان المكبس ينتجها بمقاس واحد حسب الحاجة . وكان مزوداً بقوالب من مختلف القياسات ليصبح

الخفان مادة البناء الأساسية ، وليكون له اليد الطولى مع متمماته في انحسار مواد البناء التقليدية ، ومنها - لأسف - الحجر البازلتى الأسود أيضاً ، فكلفة البناء بالخفان أقل وعملية إحضاره أسهل ، والمسافة التي تُحْجَر لتشييد الجدار به أقل بكثير من مثيلتها التي تُشَيَّد بالحجارة البازلتية السوداء ، ومع دخول البيتون المسلح ولِى عهد الخشب والقصب .

فما عاد الذي يريد أن يبني بيتاً ، يسقفه بالخشب وحصيرة القصب والطين ، بل أصبحت البيوت تُسقَف بالبيتون المسلح .

كان والدي يعمل تاجراً لحديد البناء والإسمنت وأنابيب الماء ، يشاركه المرحوم محمد خرفان إدريس . يشتريها من المؤسسة الحكومية المستوردة لها ، أو من المستوردين في حلب ودمشق . كان مستودعه يغطي معظم احتياجات مدينة الرستن وما جاورها من هذه المواد حيث بقي هذا المستودع يقوم بمهملته إلى أن قامت الدولة في مطلع السبعينيات من القرن الماضي ، بحصر تجارة هذه المواد في مؤسسات حكومية أُحدِثت لهذه الغاية .

كان والدي من أوائل من اقتني الدراجة النارية ، وفيما بعد سيارة شاحنة من نوع (فارغو) وهي من أوائل السيارات التي دخلت بلدنا مع هبوب أول أنسام الحضارة على الرستن في فترة الخمسينيات .

وما أزال أذكر ، وكيف لا أذكر ؟ كان سائق سيارتنا أرعنَا ، وكان الطريق إلى بيتنا القديم يمر من أسفل الوادي من الجهة الجنوبية ويتوجه صاعداً شماليّاً ليقطع السفح إلى نصفين .

كان الطريق ضيقاً ومتعرجاً ، وغير معبد إلا بتلك الحجارة البازلتية ، وكنت مع لفييف من أترابي ، نركب في صندوق السيارة الخلفي وقد تعلقنا بجدران الصندوق من هنا وهناك على جانبيه ، وفجأة اصطدم صندوق السيارة بالحائط ، وعلقت أصابع يدي اليسرى بين الحائط والصندوق ، ومع مسير السيارة هُرست أصابعِي وتناثر ما عليها من جلد ولحم ، وتدى عظمها . عندها صرخ الأطفال الذين يركبون بالسيارة

مستغيثين ، فأوقف السائق - سامحه الله - السيارة ، حيث قاموا بدفع الصندوق بالأيدي وتمكنوا من تخلص يدي.

وعندما ترجل والدي من السيارة حيث كان يجلس بجانب سائقها ، ورأى ما حل بأصابعه لم يتوان كعادته في اتخاذ القرارات الصائبة في الوقت المناسب واختيار المكان المناسب .

أرسل والدي في طلب سيارة أجرة ووضعني إلى جانبه فيها ، وأنا أتلوي من شدة الألم وقد تأكد لي أنني سأفقد بعض أصابع إن لم أفقد معظمها. ولكن والدي لم يتخوف من ذلك وأمر السائق بالاتجاه إلى دمشق فوراً بعد إجراء الإسعافات الأولية في حمص ، وبالسرعة الممكنة ، وما هي إلا سويعات قليلة بعد الحادثة حتى كنا في إحدى مسافي العاصمة الممتازة ، وهناك أدخلوني إلى غرفة العمليات ، ليعاد ترتيب أصابعه التي تدللت فأعيدت إلى موقعها من جديد ، وتمت العملية ، وبعد عدة أيام عدت مع والدي بكامل أصابعه لم أخسر أيّ منها والحمد لله. هذه صفات والدي ، الجيد في وقت الجد .

وكما أسلفت ، كان والدي أمياً ، لم يدخل مدرسة قط سوى الكتاب ، ولكنه كان متعدد المواهب ، مدرسته الأيام ، فيها تعلم ، ومنها تخرج ، وحصل على شهاداته .

وفي العطل المدرسية ، وكعادة الأطفال في لهوهم ومرحهم كنت أجتمع مع أطفال حارتي نلهو ، نلعب ، نمرح ، نركض ، نجلس ، نتجمع ونترافق ، لسبب أو لغير سبب ، فلا شيء مطلوبٌ منا ، وما علينا إلا أن نمضي الوقت ، طوال ساعات النهار . فإذا كان الليل وحلَّ الظلام تركنا اللعب لنمضي إلى بيوتنا ، ونأوي إليها حتى الصباح ، ولا يمنعنا من اللعب إلا الجوع فكنا نترك اللعب ، لتناول الغذاء أو العشاء ، كان يحدد مواقيت طعامنا شعورنا بالجوع وليس الوقت ، لهذا فلا عدد محدد لوجباتنا . من الألعاب التي كانت سائدة في خمسينيات القرن العشرين (لعبة الجل والدوامة) ولها تين اللعبتين عادات وقوانين ، وكذلك لعبة (الخبّابة) .

كان الأطفال يلعبون هذه الألعاب - وأنا منهم - ولا سيما في الفترة الواقعة ما قبل انتسابي إلى المدرسة الصفراء ، حيث كنا نقضي معظم أوقات فراغنا في هذه الألعاب.

الجل هو كرة صغيرة من الزجاج الملون بألوان مختلفة ، كان كل طفل يقتني عدداً لا بأس به من هذه الكرات ، يضعها في جيوبه ، ثم يتفق مع أحد أصدقائه على اللعب وعلى الأغلب كان الذين يقومون باللعب اثنان أو ثلاثة ، بل ثلاثة على الأغلب ، وفي هذه اللعبة رابح وخاسر ، ويتم اللعب إما بحفر ساقية وتنظيمها من الحصى لتكون ميداناً للعب أو أن هذه الساقية قد حفرتها مياه الأمطار في الأزقة الضيقة في حارتنا القديمة ، وفيما انفوج من ساحاتها . ويوضع كل واحد من اللاعبين كرة الزجاج ، فيكون عددها ثلاثة إذا كان اللاعبون ثلاثة وتكون المسافة بين الكرة والأخرى ما يعادل متراً ، وببدأ اللعب من مكان مختار يبعد عن الكرة الأولى بما يعادل المتر والنصف ، ومنه ينطلق اللعب بنظام وترتيب، الأول، ثم الثاني، فالثالث، فإذا ما انتهى الدور الأول ، ويكون بإصابة الكرات كلها، عمدوا إلى إعادة غيرها من جديد ، ويكون البدائي في اللعب أولاً، الثاني، وهكذا فالثالث ، وكل من يصيب كرة يغتنمها ، وتصبح لحسابه . والعجيب أننا - ونحن الأطفال - نحترم هذه القاعدة، ولا نخل بها فلا يحدث بينما أي مشاجرات، وكان الخاسر يفترض من الرابع أو يشتري منه بعض الكرات ، ليعيد اللعب من جديد ، وتنتهي اللعبة بخسارة اثنين لصالح الثالث .

واللعبة قد تستمر و تستمرة ، وقد يتحول الموقف ، فربما أعاد المفترض ما افترضه ، وربما ربح ما لدى أصحابه من اللاعبين .

كما كنا نلعب (الخبّابة) ، حيث كنا نعمد إلى مكان هو الهدف ، يسمى (الماد) ، يحرسه واحد منا بعد أن يغمض عينيه ، ويختبئ الباقون ، وبإشارةٍ يبدأ اللعب ويبدأ حارس الماد بالبحث عنهم ، وعلى مناكتشف مكانه الجري سريعاً للمس الماد قبل أن يمسكه الحارس والخاسر فيها من أمسكه الحارس وعليه دور الحراسة ، وهكذا ...

واللعبة الأخرى كانت لعبة الدوامة ، وكنا مولعين بها ، وهي قطعة من الخشب مخروطية الشكل ، وتنهي بمسمار مُثقب الرأس .

ويكون اللعب بالدوامة بشكل جماعي ، لكل دوامة خيط ثخين ، في طرفه الأعلى فتحة توضع فيها الإصبع الوسطى ، ويلف الخيط على الدوامة بشدة ، بدءاً من المسamar حتى ينتهي ويُضغط جيداً ، ثم تُقذف في الهواء ورأسها للأسفل لتسقط على مسامارها ، وتبدأ بدوران سريع ، وسرعة الدوران ومدته ، تتناسب مع استواء الأرض وصلابتها وقوه شدّ الخيط على الدوامة ، فكلما كانت الأرض ملساء قاسية ، وكان فتل الخيط شديداً كلما طال زمن دوران الدوامة على الأرض ، فإذا ما خفت سرعتها ، وكفت عن الدوران أعيد المشهد مرة أخرى هكذا بدون انقطاع ، وربما نسي الطفل جوعه متلهياً بها .

كان بعض المهرة من اللاعبين بالدوامة ، يعمد إلى ضرب دوامة رفيقه بدوامته ، وكان هذا يسبب لصاحب الدوامة المصابة الضيق والأذى .

كان فهيم أبو مشهور رحمه الله ، يبيع الدوامات في دكانه ، إلى جانب ما يبيعه من أشياء أخرى ، المهم أن الدوامات كانت في دكان فهيم ، وكان يعرف كل أطفال حارتنا فهو ابن الحرارة ، وهو إلى جانب ذلك ، كان عارفاً بكل شيء عنا ، ابن فلان ، وأمه فلانة وحده فلان أي هو يعرف أطفال الحرارة ، كونه كبيراً يعرف عنا أكثر ما نعرف عن أنفسنا وربما عرّفنا ببعضنا ومدى القرابة التي تربط بيننا ، كالمصاهرة والنسب ، وما إلى ذلك .

جائني صديقي أحمد بن يوسف الحسين وهو قريب لفهميم ، يريد شراء دوامة ، فذهبت معه إلى الدكان ، وطلب أحمد دوامة ، وكان كل من أحمد وفهميم عارفاً بالآخر معرفة تامة ، قال فهيم لأحمد مخادعاً : لم يبق عندي دوامات ، لقد بيعت جميعها ، ولم يبق منها ولا دوامة ، لقد اشتراها أطفال الحرارة . وهمنا بالانصراف ، ولكن فهيم استوقفنا سائلاً صديقي أحمد : ابن من أنت ؟ وهو العارف له أكثر مني . ولما أجبه أحمد ، هز فهيم رأسه ، وقال لأحمد : لا بأس عليك يا ولدي ، أنت ابن

أخي ، ولأجلك فقد بقي عندي دوامة واحدة أحبّها لابني مشهور ، وأنت مثل ابني مشهور ، فخذها ، ولكنها دوامة مميزة وسعّرها أكثر من سعر مثيلاتها ولم تنطلِ اللعبة على أحمد ، وهو العارف بفهيم وأساليبه ، أجابه شاكراً له على ملاطفته وحسن إشاراته قائلاً : أنا لا أريد دوامة ابن عمّي مشهور ، فدعها له ولا تحرمه دوامته المميزة ، ونظاھرنا بالانصراف ، ولكن فهيم استوقفنا بعد أن أمسك بيده أحمد قائلاً : لا تغضب يا بني أنا أمزح معك ، ألا تعرف المزاح من الجد ، عندي دوامات كثيرة ، فأيتها شئت فخذ ، وبالسعر المعتاد الذي أبيعكم به ، أنت يا أحمد لا تتحمل المزاح . ولكن أحمد العارف بأساليب فهيم ، قال لفهيم : لم يعد عندي رغبة في شراء دوامة ، هيا لننطلق يا محمود ، وهنا بدأت المساومة بين فهيم و أحمد ، ولمعرفة أحمد بأساليبه تمكّن أحمد من شراء الدوامة بسعر أقل من سعر بيعها العادي الذي هو سعر مثيلاتها ، وذلك بسبب حنكة الطفل أحمد الذي عرف كيف يداري رغبته في الشراء أمام إلجاج فهيم على البيع .

وبدلًا من أن يحقق فهيم ربحاً بدوامته ، (رضي من الغنية بالإباب) ، وربحاً الصفة وأخذ أحمد الدوامة بسعر أقل .

وبالعوده إلى فهيم أقول : كان فهيم بائعاً لبقاً ، وابن زمانه ، فقد حوى في دكانه - إلى جانب ألعاب الأطفال - أنواعاً من الثياب ، وأغطية الرأس ، منها ما هو للرجال وغيرها للنساء ، كالكوفية ، والشال ، والجلابية ، وأرواب النساء . وكان أهل حارتنا يشترون ما يلزمهم من عنده ، لكن من النوعيات الشعبية .

ومن طريف ما حصل لفهيم مع صديقي أحمد بي الشیخ علي ، أتنی ذهبت معه إلى دكان فهيم ، وطلب أحمد جلابية ، فأعطاه جلابية وقال له : هذه جلابية على مقاسك تماماً ، ومن عادة الزبون أن يقيس الجلابية .

ارتدى أحمد الجلابية ، فوجدنا أن أكمامها كانت طويلة ، فقال لفهيم : انظر هذه الجلابية أكمامها طويلة ، فرد فهيم : لا بأس عليك يا ولدي ، عند الغسيل تقصير الأكمام .

قال أحمد : الجلابية قصيرة ، وليست سابعة الطول على مقاسِي ، وردَّ فهيم : لا بأس يا ولدي أحمد، الجلابية عند الغسل تطول . وقد تعجبتُ - وصاحبِي أحمد - من كلامه تقصير الأكمام عند الغسل ، وتطول الجلابية !!؟ وكأن الأكمام من قماش والجلابية من قماش آخر .

لم يرق لأحمد ما سمع من دفاع فهيم ومدافعته ، فهو يقول ما يراه في مصلحته . بالرغم من حنكة فهيم وأساليبه المتناقضة ، لم يستطع تمرير الصفقة على أحمد بي الذي رفض الشراء بالرغم من تخفيضات فهيم المتلاحقة للسعر ، والتي حاول إغراءه بها ليتمكن من بيع الجلابية .

ومن الألعاب الأخرى التي كانت سائدة في حارتنا القديمة ، بل وفي كل حارات بلدنا لعبة المُنْقلة: وهي لعبة كان يلعبها الصغار والكبار ، وقد تعلمتها الصغار عن الكبار ، وتتم هذه اللعبة في أوقات الصحو ، في الربيع ، والصيف ، والخريف ، حيث تتم اللعبة بين شخصين أمام كل واحد منهما ستة حفر ، تملأ هذه الحفر بالحصى ، وكل منهما حصى يختلف عن حصى صاحبه لوناً، وتنتهي اللعبة بأن يحوز أحد الخصمين على كامل الحصى الذي عند صاحبه .

أما لعبة الضامة ، فكانت ترسم على شكل مربعات ملونة بلوتين ، الأسود والأبيض ، وتتم هذه اللعبة كذلك بين اثنين ، فلكل واحد منهما ستة عشر حجراً ، ولهذه اللعبة مشجعين يقف كل فريق منهم خلف لاعبه . والرابع من حاز على ما عند خصميه من أحجار بالكامل ولعبة أخرى كانت سائدة ، ولاسيما بين الأطفال ، هي لعبة أبو إدریس . حيث يصنعون خطوطاً بيضاء على حجرة بازلية سوداء ، هذه الخطوط على شكل مستطيل ، وفيه مستقيمات متقطعة ، وكل من اللاعبين حمى يدافع عنه . لباس أطفال حارتنا في تلك الفترة كان الجلابية ، وهو لباس كل البلدة كباراً وصغاراً جلابية ذات لون ما ، والغالب كانت الألوان الداكنة ، لتحمل الغبار والأتربة والطين.. الخ، وغالباً ما تكون من اللون الأسود أو الرمادي .

أما الرجال ، فكانوا يرتدون السراويل السوداء تحت الجلابية ، ويضعون على رأسهم الكوفية والعقال ، وهو الزي التقليدي لبلدة الرستن ، فكل الرجال في تلك الحقبة من خمسينات القرن العشرين ، كانوا يرتدون الجلابية والكوفية والعقال ، وما كنت لترى أيّاً منهم يرتدي بنطالاً ، وإن ارتداه فهو لا يستطيع الخروج به ، والجلوس بين الناس ، لا يزال هذا الزي سائداً في الرستن ، ولا سيما عند كبار السن من الذين درجوا منذ الصغر على لباسه ، ووالدي واحدٌ من هؤلاء .

أما الحذاء الذي كان ينتمله معظم أهل البلدة كباراً وصغاراً ونساءً ، فكانت أحذية بلاستيكية وذلك أن الأحذية الجلدية كانت غالباً الثمن وقليلة في بلدنا .

ومن الصور التي تقاد لا تغادر مخيلتي ، جلابيتي البنية ، أو ذات اللون الكرزي ، والعلاقة التي كانت تربط بيني وبينها - والإنسان مفظور على التعلق بأشيائه - والأطفال أشد تعلقاً إذ لا يستطيعون مُداراة ذلك ، ولا إخفاء رغباتهم وميولهم . ولكن جلابيتي كانت من نوع آخر ، وما أدرك ما جلابيتي ، إنها بنية أو كرزية اللون ، لها صدر مزخرف جميل على شكل سبilla طويلة ، وكذلك أكمامها مزينة بالبنود التي كانوا يسمونها (الخرج) ، وهي بنود تُخاط باشكال جميلة فوق فتحة الصدر والأكمام بشكل نافر تعطي الثوب جمالاً وكمالاً .

جلابيتي الكرزية كانت مُخرجة الصدر والأكمام ، وكانت شديد التعلق بها ، فهي جلابية تختلف عن غيرها من جلابيات أقراني ، فجلابياتهم ليس لها خرج ، بل جلابياتهم عادية أما جلابيتي فهي جلابية مميزة بخرجتها ، وأكمامها المخرجة بالبنود ، فذاك منظر يوحى بما يوحى لطفل في السادسة من عمره .

ولكن جلابيتي الكرزية اعتبرها ما يعتري الثياب ، لقد اتسخت ، وثياب الأطفال هي الأكثر اتساخاً ، ولا بد لها من تنظيف . كانت عملية غسل الثياب ذات طقوس خاصة في بلدنا في بداية الخمسينات من القرن العشرين ، إذ تجمع ربة المنزل الثياب المتتسخة في صُرّة كبيرة ، وتحملها - إن كانت تستطيع ذلك - على رأسها مع عدة الغسل (المنظفات والمخباط) وإن لم تقدر على ذلك ساعدتها على الحمل ، إما



الرستنويات ، غسيل الثياب على ضفاف نهر العاصي.



الرستناوية والمخضنة.

جارتها ، أو أن تحمل على بعض الدواب المتوفرة بشكل جيد في بلدنا .
كان المخبات والصابون هما عدة الغسل المعروفة عندنا ، كما عند أهل البلدة
والمخبات هو قطعة مستطيلة من الخشب موشورية الشكل ، مصنوعة من خشب
الصفصاف ، والنوع الجيد منه هو الذي يصنع من خشب التوت والجوز ، فهذا
المخبات أفضل الأنواع .

هذه القطعة من الخشب ، كان لها مكان من الخلف يسمح بمسكها جيداً باليد هو
المقبض ، وآخر عريض وسميك هو المستخدم للضرب على الثياب .

كانت عملية غسل الثياب تتم إما على عين أبي يزيد أو على عين التين ، أو على
ضفاف العاصي ، ولذلك كانت المرأة تعمد إلى إحضار حَجَرَة كبيرة ملساء لوضع
الثوب عليها بعد أن ينقع بالماء ، ويضرب بالمخبات ضربات وضربات ، حتى يتحلل
ما علق به من أوساخ ، ثم يضاف إليه الصابون - ولمرة واحدة - ويعاد ضربه
بالمخبات ثم يزال عنه الصابون بالماء وينشر على جذوع الشجر ، أو على أغصان
أشجار الصفصاف ، أو الحجارة المنتشرة على ضفاف العاصي ، أو العُلَيْق المنتشر
حول العيون ، فإذا كان الجو مشمساً أتمت غسيل ما عندها من الثياب المتتسخة ،
وجمعتها - بعد أن تجف - في (صرة) كبيرة ، تتسع لكل الثياب وعادت بها نظيفة
إلى بيتها .

واستخدام المخبات عملية اقتصادية ، فهو يوفر الصابون على ربة المنزل ، ويتم غسل
الثياب بنقعها في الماء حتى يتحلل ما عليها من أوساخ عالقة ثم توضع على الحجر ،
ويصب عليها الماء ، وتُضرب بالمخبات حتى تصبح نظيفة ، لذلك فلا حاجة
لاستخدام الصابون إلا مرة واحدة ، وبمقدار ليس فيه إسراف ، وفيه من التوفير ما فيه
وذلك بسبب نقص المنظفات وغلائها في تلك الأيام .

حملت أمي - رحمها الله - ثيابنا المتتسخة ، وذهبت بها - مع غيرها من جاراتها -
إلى العين ، وهناك بدأت بغسل ثيابنا ، وبالطريقة ذاتها إذ لا طريقة غيرها .

وكانت إحدى صديقاتها تساعدها في غسل الثياب ، وكانت جلابيتي البنية الكرزية

منقوعة بالماء فأخذتها جارتنا ووضعتها على الحجر ، وأخذت تضربها بالمخبات ، ولكن جلابيتي - إما لصغرها أو لضعف في قماشها ، أو ؟ لم تحمل ضربات المخبات التي انهالت بها جارتنا عليها علماً أنها كانت جديدة ، لم تعمر طويلاً عندى ، فمزقت من هنا وهناك .

ويا لحزني وامتعاضي لما حصل لجلابيتي الأثيرة الغالية ، يا لهول ما حدث !!! جلابيتي الكرزية تمزقت . وكنت قد أعددتها لألبسها في أول يوم لي في المدرسة الابتدائية .

لقد حزنت على جلابيتي البنية الكرزية حزناً شديداً ، وقد فكرت كما يفكر طفلٌ مثلي أن السبب هو تلك المرأة التي ساعدت أمي في غسلها ، لقد أسرفت في ضربها بالمخبات وليتها لم تساعد أمي في غسل الجلابية ، إذاً لما تمزقت جلابيتي ذات التخريجات البدعة رغم أن والدي اشتري لي جلابية جديدة أفضل منها ، إلا أنني لتعلقبي بها كنت بين الحين والحين أرتديها ، وعندما يراها والدي علي ، كان يعاتبني ويخلعها عنني ، وعندما تكرر هذا العمل مني عدة مرات ، أخذها والدي ورمها بحيث لا أستطيع لبسها بعد ذلك وبقيت هذه الجلابية في ذاكرتي ، ولعلها أول صورة ترسم في تاريخ ذاكرتي . وقد كانت صورة حزينة .

في حارتي القديمة التي لا تتجاوز مساحتها الدونمات القليلة ، كان لدى إحساس كبير بالنشوة ، الحرارة حارتي ، وأهلها أهلي ، فهي ميداني الخاص ، ألهو وألعاب كما يحلولي ولا مثالي من أطفال الحارة الذين كنت أحبهم ، ويهبونني ، وقد مارست في هذه الحرارة مع رفافي كل هواياتي ، من اللعب بالكلّ ، والدوامة ، والضامة ، والركض ، واللهو البريء والمصارعة مع الأقران وأصدقاء الطفولة .

أبناء حارتي الذين كنت ألهو معهم وألعب ، محمد مشهور فرزات ، والذي أصبح فيما بعد مدرساً للعلوم الطبيعية ، والذي تربطني به - إلى جانب صداقة الأطفال -

رابطة القرابة لكنه كان لا يشاركنا نشاطاتنا المسائية بسبب ضغوط والديه غير العادلة كونه وحيدهم من الذكور . وكذلك مصطفى بيج فرزات ، وفائز محمود فرزات ، وربيع أحمد كردوش فرزات وكذلك أحمد بيّ نجيب الشيخ علي ، وأحمد يوسف الحسين ، الذين أصبحوا فيما بعد من رجالات التربية في مدينتنا ، وإبراهيم مصطفى محمود الذي أصبح ضابطاً في الجيش السوري وابن عمي فائز خالد فرزات ، وعلى قاسم طلاس ، ومصطفى محمود طلاس ، وكذلك كان لي رفيق من الحارات الأخرى ، كان نادر القصير ، وهشام إدريس ، ومصطفى مطر ، وعمر عكيل جمعة ، وآخرين غيرهم .

كنت اجتماعياً بطبيعي وتربيتي ، وكان والدي يشجعني - منذ وقت مبكر - على أن لا ألعب وحدي ، وأن لا أسمرو حدي ، وأن أكون مع رفافي دائماً . نلعب ، نسمر معاً ، نأكل معاً ، وكثيراً ما ننام معاً ، كذلك كانت عادة أهل حارتي . كان من الطبيعي أن تراها نجلس ثلاثة أطفال ، أو أربعة أو خمسة ، عند حلول الظلام في غرفة واحدة ، عندي أو عند أي من جيراننا ، نتعشى ، ونسمر معاً ، وننام في نفس المكان . كان هذا أمراً معتاداً ، وكان والدي يشجعني عليه ، وعلى تكثير الأصدقاء ، وزياراتهم لبيتنا . كان والدي يحب استقبال أصدقائي وخدمتهم ، ويشجعهم على النوم عندنا ، مثلما كان يشجعني باستمرار على مصارعتهم .

في أواخر أيام شهر رمضان الكريم من صيف عام ثمانية وخمسين ، كنت عائداً إلى الرستن من زيارة إلى مزارعها الغربية ، مشرقاً وحيداً مسرعاً بعرض الوصول إلى بيتنا قبل موعد الإفطار ، مراقباً ضوء مئذنة جامع أبي يزيد ، الذي كان يضاء تماماً عند رفع أذان المغرب وأنا أسير على الطريق بالقرب من خربة البدقة ، نظرت إلى السماء الصافية وبقياها ضوء الشمس تنعكس عليها ، فرأيت فيها فتحة دائرة يُرى منها نور شديد غير مجهد ، يتدلّى من أحد أطراها سلم له عدة درجات ، مزدحم بأشخاص

ينزلون آخرون يصعدون عليه ، وما إن يصل الصاعدون إلى النور حتى يغيبوا فيه عن ناظري مثلهم كمثل النازلين الذين ما إن يصلوا إلى أسفل السلم حتى يغيبوا ، ولكن في الظلام ، وهم في حركة دائمة ، يلبسون ثياباً مختلفة الأزياء والألوان ، إلا أن ما لفت انتباهي الذين يزقدون السروال (البنطال) العريض الفتاحة من الأسفل خلافاً لمعلمينا الذين يرتدون بنطالاً ضيق الفتاحة من الأسفل .

بقيت ناظراً إلى الأعلى أراقبهم وأنا أسير مسرعاً دون أن أحيد عن الطريق الترابي الضيق أو ترتطم قدماي بأي من حجارته ، إلى أن توقفت حركتهم وسحب السلم ليغيب عن ناظري في النور وتبدأ الفتاحة بالانغلاق بهدوء .

اكتشفت أنني قد سرت أكثر من ثلاثة كيلو مترات ناظراً إلى هذه الفتاحة ، وأنني أصبحت على حدود الرستن ، وأن مصباح مئذنة جامع أبا يزيد البسطامي قد أضيء . وقصصت ما شاهدت مباشرة على Ahli وجيراني وزملائي ومعلمي من أبناء الرستن الذين تفاوتت مواقفهم بين مصدق ومستغرب ، لكنهم جميعاً سألوني إن كنت قد توجهت إلى الله بأي دعاء أثناء ذلك ، مؤكدين أنني قد شاهدت ليلة القدر وأجبتهم جميعاً أنني لم أدع الله شيئاً ، لأنني لا أعرف أنها ليلة القدر وأن علي الدعاء فيها ، إلا أنني كنت وما زلت موقناً أن الله جل جلاله يعرف ما يغيني ويسعدني في دنياي آخرتي حتى لو نسيت أن أسأله ذلك .

وفي نفس العام واستعداداً لعيد الأضحى المبارك الذي كان يهل علينا في أواخر الصيف ، وفي يوم وقفة العيد رافقت والدي إلى قرية جرجيسة الواقعة شمال غرب الرستن على الضفة الأخرى من نهر العاصي لشراء الأضحية ، واشترى والدي بقرة ومعها عجلٌ صغير وجميل وقال لي سنضحي البقرة هذا العيد ونربى العجل للأضحى القادم .

كنت طول الطريق ألعب مع العجل محاولاً أن أركب عليه ، وكان هذا يضايق والدته البقرة وأبي يحدرنني من مضائق العجل لأن هذا يستفزها ، والبقر من الحيوانات الحقودة . وعند وصولنا إلى مزرعتنا غربي الرستن في مساء ذلك اليوم ،

ربط والدي البقرة إلى شجرة التوت بجانب البيت ، وبسبب حرارة الطقس نمت وجميع أفراد العائلة على مسطبة أمام بيت المزرعة ، إلى أن استيقظت على صجة حولي فوجدت البقرة مذبوحة ودماؤها تغمر فراشي .

لقد حاولت الانتقام مني على إزعاجي للعجل ، وخلال الليل أفلتت من عقالها وهجمت على فراشي ، فما كان من والدي الذي كان يتوقع منها ذلك إلا أن عجلها بالذبح ، منقذاً إياي من موت محقق . واستيقظت الأسرة وبدأنا فرحة العيد على غير عادتنا في ليلة العيد .

كان الحاج صالح أحمد فرزات وجيه آل فرزات والرستن في حينها ، رجلاً طاعناً في السن وقوراً حليماً مهيباً ، تلمح التواضع في وجهه وتصرفاته ، يغدو في أوقات الصلاة إلى جامع أبي يزيد البسطامي ، فإذا كانت صلاة العصر ، وعاد من مسجد البسطامي ، يأتي إلى بيتنا ويأخذني معه ، إلى مضافة آل فرزات ، وكان الحديث بيني وبينه شيئاً جداً ومفعماً بالمحبة و مليئاً بالصدق ، وكان - رحمه الله - يحدثنـي حديثاً دافناً عن ماضيه ، وعما يحب على الإنسان فعلـه ليكون إنساناً صالحاً في المستقبل . و كنت أحدهـه عن دروسـي وبـعض الأناشـيد التي تعلـمتـها في المدرـسة . كان بـيـث هـموـه لي و هو لا يـعلم أـنـي لا أـسـتوـعـب إـلا القـليلـ منها .

كان حديثـه دافـناً ، يـصدرـ عن نفسـ عـظـيمـة ، رـجـلـ جـربـ الأمـورـ وـعاـيشـها ، فـحدـيـثـه صـادرـ عن تـجـارـبـ ، كانـ حـديثـهـ ليـ مـملـوءـاًـ بـالـحـمـيمـيـةـ ، وـالـصـدـقـ ، وـالـمحـبـةـ . كـنـتـ شـدـيدـ التـأـثـرـ بـهـ ، وـأـشـعـرـ بـالـفـرـاغـ فـيـ الـيـوـمـ الـذـيـ لـأـرـاهـ ، وـلـأـسـتـمـعـ إـلـىـ حـديثـهـ . كانـ رـحـمـهـ اللهـ - يـحدـثـنـيـ كـمـنـ يـحدـثـ صـدـيقـاًـ لـهـ ، لـاـ كـكـبـيرـ يـحدـثـ طـفـلاًـ ، لـمـ يـكـنـ يـشـعـرـنـيـ بـالـفـرـوقـ بـيـنـ طـفـلـ فـيـ مـثـلـ سـنـيـ ، وـرـجـلـ مـجـربـ مـحـنـكـ فـيـ مـثـلـ سـنـهـ ، وـقـدـ يـشـعـرـنـيـ بـالـفـرـوقـ بـيـنـ طـفـلـ فـيـ مـثـلـ سـنـيـ ، وـرـجـلـ مـجـربـ مـحـنـكـ فـيـ مـثـلـ سـنـهـ ، وـقـدـ شـارـفـ عـلـىـ السـبـعينـ. لـذـلـكـ كـنـتـ أـحـدـهـ بـأـرـيـحـيـةـ عـنـ طـمـوـحـاتـيـ وـأـحـلـامـيـ وـعـنـ أـصـدـقـائـيـ مـنـ أـبـنـاءـ حـارـتـنـاـ ، وـكـانـ يـسـتـمـعـ وـيـشـدـ عـلـىـ يـدـيـ ، وـيـغـبـطـنـيـ عـلـىـ تـلـكـ الـطـمـوـحـاتـ فـيـ تـلـكـ السـنـ الـمـبـكـرـةـ ، وـمـاـ يـدـورـ فـيـ رـأـسـيـ مـنـ هـوـاجـسـ.

كنت أحدهم عن الدروس التي كنا نأخذها في المدرسة الابتدائية (الصفراء) ، إذ لم يكن في البلدة مدرسة أخرى للذكور غيرها ، لا ابتدائية ، ولا إعدادية .

كان يشعر بالوحدة بعد أن توفيت زوجته - رحمها الله - كنت أسليه بأحاديثي العفوية البريئة ، والقصائد التي كنت أحفظها من المدرسة ، وغيرها من القصائد والأناشيد التي تعبّر عن طموحات طفل لا يزال في بداية الحياة .

في مسافة آن فرزات التي كان الحاج صالح يصطحبني إليها ، كان يجلسني إلى جانبه ويعاملني كما يعامل الكبار ، فما كان يشعرني بأنني طفل ، وأن مجلسي يجب أن لا يكون بين الأطفال ، بل بين الكبار ، والمضاقة هي مجلس الكبار .

كان يستمع إلي ، كما كنت أستمع إليه ، وكان الحديث بيننا يطول ، ويمتد من بعيد صلاة العصر حتى صلاة المغرب ، حيث يمضي لأداء الصلاة في جامع البسطامي .

كانت أيامًا لا تنسى ، وأمسيات سعيدة ، قضيتها مع ذلك الرجل الفاضل ، ضارباً بكل الفروق التي تفصل بين الكبار والصغرى . كان يفضي إليَّ بأسراره ، بل كنت كاتم أسراره فقد كنت مستمعاً جيداً ، كما كان بيده يشجعني على حفظ سور القرآن الكريم ، والقصائد التي فيها حماسة ، وتدعى إلى المكارم ، كان يناقشه كما يناقش الرجل نداء له ، ويستمع إلى تعليقاتي وآرائي بكل تواضع وانتباه .

كان الحاج صالح - بالنسبة لي - جزءاً من الحارة ، وعلماً من أعلامها ، واحداً من ركائزها وأساسياتها ، كبيوتها وطرقها ، وكان موضع ثقة معظم أبناء الحارة ، يساهم في حل مشاكل البلدة ، وكان الناس في البلدة يقرؤون له بهذا الفضل ، يقدرون فيه سماحته ، ونبيل خصاله ، وحسناً فعل والدي الحاج سليمان - دون أن يدرى - إذ باع دارنا في الحارة مباشرةً بعد وفاة الحاج صالح وانتقاله إلى دارنا الجديدة على الطريق الدولي كي لا أشاهد أماكن اجتماعاتي بالحاج صالح رحمه الله .

كان رحيله صعباً علي ، وعلى غيري من أهل البلدة ، لما أسلفت من صفات كان يتمتع بها . فقدت الحارة جزءاً من أجزائها ، وركنا من أركانها .

بعد حين يبدل الحب دارا
ودياراً كانت قدِيماً ديارا
غادرت حارتنا رغمَّ عنِّي وفي نفسِي ذكريات وذكريات لا تنسى ، هي ذكريات
الطفولة والبراءة ، إنها ذكريات لا تنسى ...

كيف أنسى ذكرياتي
إنها صورة أيامِي
على مرآة ذاتي

كانت الرستن في تلك الأيام ، في النصف الثاني من خمسينات القرن العشرين ،
تعيش الأحداث السياسية التي هبت على الوطن العربي وسوريا ، والرستن جزء من
التكوينية السياسية ، فكان لها ما لها من نشاط .

ظهرت الأحزاب ، ونشطت في بلدتنا " وكل حزب بما لديهم فرلون " .
الأحزاب البرلمانية ، وهي التي كانت تعامل مع المخاتير ، (والمحاتير) هو وجيه
الحي في البلدة ، وهو المسؤول عن التعريف بما يدور في الحي الذي هو مختاره
كنت ترى ضمن العائلة الواحدة أكثر من تيار سياسي واحد .

كنت تجد في العائلة الواحدة من ينتمي إلى هذا الحزب ، وأخر ينتمي إلى حزب
آخر وكان والدي مع نخبة من أصدقائه ، ينتمون إلى التيار الاشتراكي . من هؤلاء ،
محمود نجيب فرزات ، ومحمد خالد فرزات ، ومحمد خرفان إدريس ، وسعيد
صبري فرزات ومحمد شهاب ، وشريف الرز ، ومحمد حمود مطر ، وحسين سليمان
فرزات ، ومحمد عبد الكريم نايف فرزات ، و Mohamed عبده فرزات ، وسَكَار طلاس ،
ومصطفى محمد طلاس . هؤلاء وغيرهم كانوا مع تيار التغيير ، دون معرفة بما ينتهي
إليه هذا التغيير ، وكنت أسمع أحاديثهم السياسية المتواضعة ، وأحفظ شيئاً منها ،
وأُعرضُّ عما لا أعرفه كانوا جميعاً متفقين على التغيير وكلُّ يتصور التغيير بما يرغب
ويشتهي . دون أي خبرة وتصور دقيق لما سيؤول إليه هذا التغيير . كانوا يجتمعون
عند والدي ، ويتفقون - بعد ما يناقشون الأفكار المطروحة - فيبدون تأييدهم لهذا

التيار ، ورفضهم لذاك التيار ، وكانوا متفقين على التغيير ، فقد كان التغيير لهم هدفاً وليس وسيلة .

كان والدي قد هيأني - منذ نعومة أظفاري - بما يلزم من وسائل الدفاع الذاتية ، كحمل العصا ، والبوكس الحديدي ، والمقلاع ، والخنجر ، تلك كانت وسائل القتال المتوفرة .

وقد كان والدي حريصاً على أن أقتني هذه الأسلحة وأن أتدرب عليها ، وأحسن استخدامها للدفاع المشروع عن النفس ، كان يمتنعني دائماً من الاعتداء على الآخرين لكنه كان شديد الغضب إذا لم أرد الصاع صاعين لمن اعتدى على دون وجه حق ومبرر مشروع .

العصا معروفة ، وكانت على الغالب من شجر الرمان . أما البوكس ، فهو قطعة مصنوعة من البرونز الأصفر له مقبض ، وكانت تدخل فيه الأصابع وتجمع ، وفوق الأصابع مسننات ، كل مسنن حاد كالمسمار التخين ، كنا نستخدمه في أوقات الخصومات ، وكان البوكس يعطي تفوقاً لحامله ، فضرباته متنوعة ، فهو يقوم بفعل العصا والسكين والمطرقة .

أما المقلاع ، فكان مصنوعاً من الصوف ، وهو ذو خيطين ثخينين متوازيين من الصوف ، وفي وسط الحبلين مكان يوضع فيه الحجر ، وله مكان في أحد الحبلين يثبت في الإصبع الوسطى لليد اليمنى ، وكنا نستخدمه لرمي خصومنا بالحجارة عن بعد ، وكان منا المهرة في رمي المقلاع .

زودني والدي بهذه الوسائل وغيرها ، فكنت - لا أفتأ - أغري أصدقائي بالمصارعة ، وكان والدي يشجعني على ذلك ، لما يعرفه من أن عراك الأطفال في هذه السن ، والمصارعة، تساعد على بناء الأجسام القوية ، وتكون حافزاً دافعاً إلى التحدي البريء ، لذلك كنت أغري قربي محمد مشهور فرزات بالمصارعة ، ولكنه كان يرفض ذلك بسلبيته المعروفة منذ الصغر ، ويمتنع عن منازلتي ، رغم تحدياتي له بالمبازلة . كان يضحك من تحدياتي ، وي الفلسف الأمر بطريقة عقلانية مقبولة ، إذ كان

يقول لي: ما الفائدة من مصارعي لك ، وأنا أكبر منك بستين ؟ إن صرعتك قالوا أكبر منه (والأكبر منك بيوم يغلبك دوم) ، وإن صرعتني ، فتلك المصيبة ، سيقولون : صارع محمود وهو أصغر منه بستين وغلبه محمود ، ثم إن أباك سيساعدك أثناء عراكنا ، ولن يسمح لي بأن أصرعك فتكون الغالب بكل الحالين ، وأكون الخاسر سواء صرعتك أم لا . كنا - كأطفال - نقيم تحالفات ضد أطفال الحارات الأخرى ، نتشاجر ، نتضارب بالأكف والعصي ، والوسائل الدفاعية التي كنا مزودين بها . وكان في هذه المعارك الصغيرة غالب ومغلوب ، وربما شج بعضنا خصمه ، ولكن سرعان ما يتدخل الكبار في الحرارة ، وتقى المصالحة بين الأطفال ، وتفض الخصومة . كان احتياطنا ، أقرباؤنا الأكبر سنًا بقليل ، وكنا نستعين بهم عند الضرورة ، ومنهم خالد بيج فرزات ، و محمود محمد فرزات ، وأحمد أخوه فرزات ، وعدنان صبري فرزات ، وغيرهم كثير .

و غالباً ما كانت المصالحات تتم في مزرعة والدي ، حيث تتم بأكل العنب الحفرزي الذي كان متوفراً بشكل كبير في مزرعتنا غربي الرستن .

في إحدى المرات وبمناسبة بدء العام الدراسي ، دعوت أكثر من عشرين زميل من أصدقائي ، أبناء حارتي والحرارات الأخرى إلى مزرعتنا ، لأكل العنب الحفرزي ، وبالسعادة ، فقد كانوا كالجراد المنتشر ، أمامهم أخضر ، وخلفهم يابس ، لم يبقوا على شيء فقد التهموا كل ما يقدرون على التهامه من العنب الحفرزي وغيره .

والعنب الحفرزي كان فاكهة الصيف المميزة لما له من سمات تفضل غيره من أنواع العنب الأخرى ، فهو لذيد جداً ، خصوصاً خلال شهر أيلول عندما يصبح الجو بارداً في الليل فكانه البراد ، حيث لا برادات في ذلك الوقت .

في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين اجتاحت بلادنا موجة من الجفاف ، أثرت على جميع مناحي الحياة ، وكانت الشرائح الأكثر تضرراً منها أصحاب الماشي ورعايتها من البدو ، فقد ماتت معظم أشكال الحياة في بادية الشام ، مما اضطر أهلوها

من البدو إلى الرحيل مع ما تبقى لديهم من المواشي باتجاه مناطقنا حيث يتوفّر القليل من كل الماشي سواء من بقايا زراعة الأقطان أو الفاسوليات أو حتى شجيرات الكرمة .

في خريف عام تسعه وخمسين حضر إلى سهول الرستن ، مجموعة من البدو ، وأقام وجيههم وليمة عشاء دعا إليها عدداً من رجالات الرستن ، للتعارف والتعاون في حل أية مشكلة قد تنشأ لاحقاً بين جماعته من البدو وأحد أبناء الرستن .

وكان عادته في تلك المرحلة من الزمن ، اصطحبني والدي معه إلى الوليمة ، وعند اقترابنا من بيت الشعر الذي أقيمت فيه العشاء ، هجمت علينا مجموعة من كلاب صاحب الدعوة ، صرخ فيها صاحبها فهربت جميعها إلا كلباً واحداً منها ظلّ يهاجمني ويحاول عضي دون سائر الرجال اللذين كنت برفقتهم ، ورغم محاولات صاحب الدعوة المستمرة لطرد الكلب وإبعاده ، إلا أن محاولاته كانت تبوء بالفشل .

وهنا تدخل الحاج سليمان ، وكان شديد الاعتداد بنفسه وبقوته ، وخطاب صاحب الدعوة محتداً ومشيراً بيده إلى الكلب: ما هذا يا رجل ، لماذا لا تقتله فتستريح وتُريح ؟ فأجاب البدوي : " يا بومحمود اللي بيـه خير حمـيل شـره والله ما يحمـينا من الذـباب إلاـ هو " وصمت والدي دون أي تعليق . وتابعنا الطريق حتى الوصول إلى مكان الدعوة حيث تناول الجميع العشاء إلا أنا بالرغم من إلتحاق الحضور على بتناول الطعام ، فقد كنت أفكـر بـتفسير وفهم ما سمعـت من صاحب الدعوة .

ولما كان صباح اليوم التالي قمت ، ودون أن يعلم والدي ، بقطاف وتعبئة سلة (قرطل) من العنبر الحفرزي الفاخر ، بالكاد أستطيع حملها ، وذهبت منفراً باتجاه مضارب البدو وما إن هاجمتني الكلاب حتى جلست أرضاً لعلمي أنها لا تهاجم جالساً ، إلى أن حضر بعضهم حيث أخذوني إلى وجيههم صاحب دعوة البارحة ، الذي قدمت له سلة العنبر الحفرزي الأحمر ، فرحب بي وأجلسني بجانبه مستفسراً عما أريد .

قلت له : أريد أن تشرح لي ما قلته البارحة لوالدي : " اللي فيه خير حميل شره " فَسُرَّ كثيراً وشرح لي ذلك قائلاً : إن أي مخلوق يعتمد عليه في الملمات سواء كان إنساناً أو حيواناً ، يجب تحمل نزواته ومشاكله في أيام الرخاء ، أما من لا خير فيه في أيام الشدة فلا داعي لتحمله في أي وقت ، ثم أمر بإكرام وفادتي ودعاني إلى إفطار غني باللحىب والقصدة ورافقني إلى حدود مزرعتنا ، طالباً مني نقل حياته إلى والدي .

ما تزال هذه العبارة راسخة في ذاكرتي ، استحضرها في كل موقف مناسب ، وكم من مرة خدمتني ووجهتني لأتحمل من أعرف عنهم الخير والموافق النبيلة ، وعندما كبرت اقتنعت بأن هذه العبارة هي ^{ليست} هامة من لبيات إعداد الإنسان اجتماعياً وسياسياً . كان تيار التغيير مقبولاً أكثر من غيره في الرستن ، بسبب تعاطفه مع الفلاحين ، والرستن معظمها من المزارعين الصغار ، أما القرى المحبيطة بالرستن فكانت تعانى من تحكم الإقطاعيين ، فالأراضي للإقطاعي ، أما سكان القرى فهم فلاحون عند الإقطاعي .

لم تعان الرستن من الإقطاع ، فلم يكن في الرستن إقطاعي ، ولا إقطاعيات ، ومعظم أهل الرستن من مالكي الأراضي ، ولكن هذه الملكيات كانت صغيرة ، ونسبة الذين لا يملكون أرضاً كانت قليلة نسبياً . والسمة الغالبة ، أن معظمهم يملك الأرض ، ولكن بحسب متفاوتة . في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين ، لامست الصناعة الرستن ، فقد تم إنشاء أول معمل لتوليد الطاقة الكهربائية ، كان هذا المعمل يقع على ضفة العاصي الشرقية ، غرب الرستن ، وقد سمي المكان باسمه ، فكان الرجل إذا سأله أحدهم إلى أين أنت ذاهب فيقول : إلى الكهرباء . إذا كان له أرض في تلك المنطقة . وكذلك الطريق الذي ينطلق من الرستن مغرباً ، سمي بطريق الكهرباء . فقد قامت شركة كهرباء حمص بتجهيز هذا الطريق الزراعي ليصبح سالكاً على مدار السنة . كان هذا المعمل يزود مدينة حمص بالطاقة الكهربائية . أما الرستن فلم تستفد منه إلا في أواخر الأربعينيات ، حيث دخلت الكهرباء إلى بعض بيوتها .

كان اختيار هذا الموقع غربي الرستن خطأ ، إذ لم تمض إلا سنوات قليلة على تشييده حتى جاء الأمر بإنشاء سد الرستن – الذي غمرت بحيرته المعامل – فتم نقل معدات المعامل إلى مكان آخر .

فترة الخمسينيات .. كانت مرحلة نهوض اقتصادي في الرستن ، لم تعرف لها مثيلاً من قبل . فلو أن السنوات اللاحقة للخمسينيات ، استمرت على نفس التيرة ، لكانت الرستن بلداً يعمل معظم سكانه في الصناعة ، وما يعني ذلك من دخول مرتفعة ، ومستوى معيشة مرتفع . في نهاية هذا العقد من الزمن ، تم تشييد سد الرستن ، هذا المعلم الحضاري الذي حجب مياه الفيضانات عن منطقة الغاب ، وزودها بالماء اللازم لري أيام القحط ، وقد تم تشييده شمالي الرستن ، حيث يضيق مجاري العاصي ، ويشتد انحداره بين الجبلين .

وفي نفس العقد ، تم تشييد معمل الإسمنت في الرستن ، في المنطقة المنخفضة ، إلى الشرق من المدينة ، حيث توفر الجبال التي تصلح تربتها لصناعة الإسمنت . هذا المعامل يزود محافظة حمص بالإسمنت ، وكذلك المحافظات الأخرى ، لم تشهد بلدتي ، بعد هذا العقد أي نشاط اقتصادي ، إلا ما قام به بعض الأفراد من إشادة بعض المنشآت الحرفية .

عندما أطل خريف أربع وخمسين وتسعمائة وألف ، دخلت المدرسة الابتدائية (المدرسة الصفراء) ، وكان لا يُسمح للأطفال بدخول المدرسة قبل إتمام سن السابعة أما أنا فقد دخلت المدرسة في السادسة من عمري ، فرحت سنة دراسية كاملة ، وكان ذلك بفضل المعلم غازي مصطفى فرزات ، والذي كان مديرًا للمدرسة الابتدائية (الصفراء) ، وفي عام ستين كنت قد أنهيت الدراسة الابتدائية بنظام الست سنوات ، إذ أن (شهادة السرتيفيكا) ذات السنوات الخمس كان قد أنهى العمل بها قبل ذلك . هذه السنوات الست التي قضيتها في المدرسة الريفية ، ومدرسة ابتدائية ثانية جديدة افتتحت في دار مستأجرة ، كانت أجمل أيام حياتي كتلميذ في مدرسة .

كنت الأول بين التلاميذ في صفي دائمًا، من الصف الأول حتى السادس، وكانت في السادس تتم مسابقة إتمام مرحلة التعليم الابتدائي، فمن ينجح في المسابقة يذهب إلى التعليم في المدارس الحكومية، ومن يربض يلتحق بالتعليم الخاص، وعلى نفقته. كنت دائمًا عريف الصف، في كل السنوات التي قضيتها في المرحلة الابتدائية. وكان العريف يُنتخب من قبل التلاميذ، فكانوا ينتخبوه عريفاً لكل سنة، والعريف هو المسؤول عن ضبط الصف في غياب المعلم، والأهم من ذلك، يجب أن يكون الأول في جميع مواد الدراسة، وكنت الأول بلا منازع، فقد كنت مفطوراً على حب العلم والتنافس فيه، لا أرغب أن يغلبني في ذلك أحد من أترابي، بالرغم من محبتى الشديدة لهم، وتمنياتي لهم بالتفوق والنجاح.

كان المعلم الحاج أحمد مطر - رحمه الله - رجلاً طويلاً القامة، بل كان أطول رجل في الرستن، كانوا يسمونه (الحجي)، كان يرتدي بنطالاً وقميصاً، ويضع على رأسه كوفيةً عقالاً، أمرد الوجه، ذو عينين سوداويين تشعاش ببريق المحبة للأطفال. لم يكن لهأطفال برغم أنه عمره حوالي الستين، فكان أطفاله مدرسته هم أبناءه وأحبابه.

كان أبواً للجميع، لم يترك أثراً سيئاً عند أي منهم، بل ترك ذكرى المحبة، والوفاء من كل الناس لشخصه الذي كان محبوباً من كل أهل البلدة، رجالاً، ونساءً، وأطفالاً.

لم يكن ليتساهم مع أحد من المقصرین، كان يكافئ المجد، وبعاقب المسيء بالضرب الشديد، كان له عصا طويلة، يحملها داخل الصف وخارجها، ومع هذا لم يكره أحد، كان مربياً، ومعلماً بكل معنى الكلمة، ومتفانياً في خدمة أطفال بلده.

إذا سار في الشارع حفّ به الأطفال من تلاميذه من كل صوب، لينهالوا عليه بالأسئلة، والشكواوى، وهو لا يتذمر، يرد عليهم بتواضع وعطف الأب.

كان من السهل عليك أن تعرفه إذا قدم من بعيد، جاء الأستاذ الحجي. فقد كان عملاقاً لا يخفى على أحد، ولو كان في سوق مكتظة بالناس.

أذكر أنني عندما حصلت على شهادة إتمام مرحلة الدراسة الابتدائية ، وكانت المسابقة تجري في مدينة حمص في نهاية السنة الدراسية للصف السادس الابتدائي ، وكان لها طقوس خاصة ، كما طقوس الشهادات في أيامنا ، كافأني ، لأنني كنت الأول على المتسابقين ، فاصطحبني معه بمرحلة ، بدأت من المدرسة الريفية (الصفراء) غربي الرستن حتى معمل الإسمنت الذي يقع شرقي الرستن ، الطريق إليه ترابية ملتوية ، تقدر بأكثر من خمسة كيلومترات ، وهناك في المعمل تجولت بصحبته بين أقسام المعمل الذي كان حينها في طور التشغيل الأولي ، لم نركب سيارة ولا دراجة ، لقد ذهبنا سيراً على الأقدام ، في جو الصيف الحار والذي تستند حرارته في مكان المعمل ، بسبب انخفاض المنطقة التي شيد عليها المعمل عما حولها ، قضيت برفقة أستاذى الحاج مطر في المعمل حوالي الساعتين من التجوال ، وبعدها عدنا إلى بيتنا الصيفي في المزرعة غربي الرستن ، وعاد هو إلى بيته الذي يقع في أقصى الطرف الشرقي من الرستن ، فكان مجموع ما ساره يعادل أكثر من سبعة عشر كيلومتراً ، في طقس حار ، وطرق ترابية وعرة ومتعرجة .

كان بيت المعلم مطريقع إلى الشرق من بلدة الرستن ، وعلى السفح الشمالي الذي يطل على مزارع الرستن في (زور الدردار ، والزرقاء ، وقليلج) .

فيبيته في أقصى شرق البلدة ، والمدرسة الصفراء في أقصى غرب البلدة ، وكانت المسافة التي يقطعها من بيته إلى المدرسة أكثر من أربعة كيلومترات ونيف هبوطاً وصعوداً في الذهاب ، ومثلها في الإياب ، ومع ذلك كان كأركان المدرسة ، جزءاً لا ينفصل عن مكوناتها ، كحائط المدرسة ، أو سورها ، أو بابها .

فإذا ذهبنا مبكرين إلى المدرسة في الدوام الصباحي ، كان أول ما يطالعنا فيها المعلم الحجي ، بقامته المديدة ، وكوفيته البيضاء ، وعقاله . كان - رحمه الله - مثلاً للتفاني في خدمة التلاميذ لبناء جيل المستقبل ، كان حريصاً على زرع قيم الخير والفضيلة فيه . وإنك لتعجب من طريقة إلقائه لدروسه ، ومن حرصه على شد انتباه الطلاب إليه بالتمهيدات التي كان يقوم بها قبيل البدء بدرس ، وبالحركات

التي كان يؤديها أثناء إعطاء الدرس ، فهو يقرأ ، ويمثل بالحركات التي يؤديها بيديه ، فينقل طلابه من الصف وهم على مقاعد الدراسة، إلى المكان الذي كانت تجري فيه حوادث الواقعه ، بقيامه ببعض الرسوم التي يرسمها على السبورة ، وكثيراً هم الطلاب الذين خرجوا من الدرس بعد انتهاءه ليجددوا ما قاله الأستاذ في الدرس ، وكان يتطلب من التلاميذ القيام بأداء الحركات المناسبة أثناء التسميع ، فإذا كانت قصيدة ، طلب منهم تمثيل ما يقولونه بحركات بالأيدي.

كان يضرب الكسول ويشيد بالمجتهد ، لا يحابي أحداً لقرابة أو لبعد ، وكان معظم أهل البلدة يقرؤون له بالفضل ، وبقدرون فيه ذلك رغم بساطتهم .

كانوا يؤيدون تصوفاته ويمدحونها ، والأغرب من ذلك أنه كان يعرف كل تلاميذه معرفةً جيدةً ، ابن فلان وفلانة ، فلا يسأله أحد عن ابنه إلا أعطاه وصفاً حقيقياً له .

أستطيع القول : أن المعلم مطر - رحمة الله - كان مميزاً ، مهيباً ، عليه الأنظار ولا تقتصره ولا يخفى ذلك على أحد .

وبتعبير أدق .. كان - رحمة الله - كشجرة النخيل بين أشجار البستان ، لا تخفي على ناظرها وإن كثرت الأشجار .

ومن المعلمين - الذين كانوا من بلدة الرستن - المعلم غازي مصطفى فرزات ، والمعلم سعيد شايب فرزات ، ومحمد فياض ، و محمد سعيد طقطق ، و علي الشيخ علي . أما باقي المعلمين فكانوا من خارج الرستن .

كان غازي فرزات معلم ال دروس الزراعية ، وكان تطبيقياً ، مجدداً ، نشيطاً . فقد استطاع بإمكانات بسيطة إنشاء حديقة مدرسية نموذجية ، تحوي معظم الفواكه والخضروات التي نعرفها ، أو نسمع بها إن لم تكن جميعها ، إضافة إلى تربية الدواجن والنحل . صحيح أن معظم التلاميذ كان لدى ذويهم مزارع ، لكن ما في حديقة المدرسة

حديقة الأستاذ غازي كان شيئاً مختلفاً، حتى كنا نظن أنها قطعة من جنة الله في أرضه . نعم لقد كانت حدائق المعلم غازي فرزات ، والدليل على ذلك أنه ما إن ترك قطاع التعليم في عام ثلاثة وستين ، ليتلقى بالقوات المسلحة ، حتى أجدبت وخربت وأصبحت أرضاً جرداء ، إلى أن بني عليها بعد سنوات عديدة أول ثانوية للبنات .

هؤلاء هم عينة من أبناء الرستن ، والمعلمين الذين كان لهم الفضل الكبير على ، وعلى غيري من التلاميذ . أما معظم باقي المعلمين ، فكانوا من مدينة حمص ، إذ لم تكن الرستن في حينه ، أي في فترة الخمسينيات من القرن العشرين ، قد أنجحت كادراً تعليمياً يفي بحاجة المدرسة الريفية الصفراء الوحيدة لذكره في ذلك الوقت .

من المعلمين الذين كانوا من خارج بلدة الرستن مختار رحيمه ، كان نموذجاً للمعلم المثالي ، المتفاني في خدمة التلاميذ ، وكان نموذجاً يقتدى به . المعلم مختار رحيمه ذو شخصية أنيقة مرتبة ، وهندام مرتب ، كان قريباً من تلاميذه ومحبوباً من قبل الجميع . بالإضافة إلى أنه كان نموذج المربى ، فقد كان قريباً جداً من التلاميذ المتفوقين ، يشجعهم ويكافئهم بإحضار السكاكر والحلويات لهم . إضافة إلى ما كانت تقدمه المدارس إلى تلاميذها يومياً ، من الحليب وزيت السمك ، للمحافظة على صحتهم ونمو أجسامهم .

في عام خمسة وخمسين كانت المدارس في بلدة الرستن ثلاثة ، اثننتان لذكور ، الأولى الصفراء ، مبني تملكه الدولة ويسمى المدرسة الريفية ، وكانت فيها . والثانية مستأجرة ، أما الثالثة فكانت للبنات وهي مبني تملكه الدولة .

وكانت المدارس من البساطة بمكان ، فالأولى وهي الصفراء ، فقد كانت مبنية بالإسمنت المسلح ، والسبب في ذلك أن بيوت البلدة الحجرية كانت ذات لون أسود وهو اللون السائد، أما الطينية ، فكانت ذات لون أبيض ، وسبب ذلك ، أن معظم بيوت البلدة كانت مبنية بالحجارة البازلتية السوداء ، والبيوت التي تبني

بالحجارة البازلتية لا تطلى بالأبيض فكانت سمة السواد هي الغالبة ، والبيوت البيضاء تشكل علامات فارقه في هذا الثوب الأسود.

كانت المدرسة الريفية ، عبارة عن بناء ذو جدران سميكة ، لها باب من جنوبها ، يفتح على بهو كبير معبد بالحجارة البازلتية الملساء ، وقد رصفت هذه الحجارة كما يرصف عامل البلاط بلاطه بدقة وإحكام . وهذا البهو هو عبارة عن ساحة تستطيل شمالاً وجنوباً ، وقد أحاطت بها غرف الصفوف، من الضلع الشرقي والشمالي والغربي، على شكل صندوق مفتوح عند مدخل باب المدرسة والذي ينفتح على مصراعين ، وهو باب كبير ، مصنوع من الخشب ، وقد أليس ثوباً من الصاج الرقيق ، مزود بقفل يفتح من الخارج والداخل. كانت الإدارة هي أول غرفة من الضلع الغربي ، على يسار الداخل إلى المدرسة ، وهي غرفة قد استطالت غرباً وشرقاً ، هذه غرفة إدارة المدرسة ، فيها المدير ، وبها يجلس المعلمون في الاستراحة ، يتناولون الشاي ، وكذلك المستخدمون ، وفيها تعقد الاجتماعات ، وتختلط عملية سير الدروس ، وتوضع المصورات ووسائل الإيضاح ، فهي بذلك إدارة ، ومكتبة ، وغرفة معلمين ، وغرفة أثاث ، وقاعة اجتماعات .

أما الصفوف فكانت ذات أبواب قديمة ، مصنوعة من الخشب السميك . كانت مقاعد الصفوف عتيقة ، وكان المقعد مقسماً إلى حجرات صغيرة ، لا تسمح إلا بوضع الدفاتر والأقلام ، أما الكتب والحقائب ، فكنا نضعها بجانبنا ، تحت المقعد ، أو بجانبه ، وكان خشب المقاعد قد تأكل عبر الأيام ، بما حفر عليه التلاميذ من عبارات للذكرى ، وقد فعل فيها السوس فعله، فبدت متآكلة تقاد تسقط ، وكانت الإدارة ترممها دائماً بالترقيع والتلزيق .

كنا نجلس في المقعد الواحد ثلاثة أو أربعة تلاميذ ، وكنت دائماً أجلس في المقعد الأول ، لأنني دائماً كنت أنتخب عريفاً للصف .

كانت المقاعد تملأ الصف ، وكان الأستاذ يقف أمام الطلاب ، على منصة خشبية مخللة للأطراف ، وأمامه طاولة وضع عليها علبة الطبشور الأبيض ، وبعض الحوار

الملون . كانت الطاولة عتيقة كمقاعdenا ، وكنا إذا قرع الجرس نخرج للاستراحة بعد انتهاء كل حصة ونعود للصفوف ما إن نسمع الجرس ثانية ، وكان الجرس يُقرع باليد ، وهو عبارة عن سطل من النحاس ، متوسط الحجم ، فمه إلى الأسفل ، وقد ثبت في وسطه قطعة من الحديد ، عُلّقت بسلك ، ولوه مقبض من الأعلى مصنوع من الخشب . كان مدير المدرسة هو الذي يقرع الجرس ، معلناً انتهاء الحصة الدراسية أو بدایتها فالحصة خمس وأربعين دقيقة للدرس وخمسة عشر دقيقة للاستراحة ، نخرج إلى باحة المدرسة التي تقع إلى الجنوب من بناء المدرسة مباشرة ، كانت الباحة طينية غير معبدة ، وباعتبار أن المدرسة ذات موقع مرتفع عما جاورها ، وأرض الباحة ذات تربة بيضاء صخرية منحدرها من كل الجهات ، فهي لا تسمح ببقاء الماء إلا في القليل النادر .

أما الباحة فهي غير مجهزة ، لا تعبيد ، ولا إسفلت ، ولا شيء فيها للصنعة ، إلا ما قد جرف المطر مما ارتفع لينبسط مع غيره .

كنا نقضي فترة الاستراحة فيها ، فإذا هطل المطر ، امتلأت حفرها بمياه الأمطار التي كانت تشكل بحيرات صغيرة ، كنا نتقاذف بها الحجارة الصغيرة التي نفذها على سطح الماء ، وأي منّ الفائز ؟ هو الذي تقطع حجره دون أن تفرق في الماء بعد ملامسة سطحه عدة مرات .

إلى الجنوب الشرقي من الباحة ، كان يقوم مستودع المدرسة وهو عبارة عن مغارة قد زُوِّد بباب له قفل . كانت إدارة المدرسة تضع فيه أشياء المدرسة القديمة التي يكون استخدامها قليلاً .

ولاحقاً ، أحيطت الباحة بسور لا يرتفع أكثر من المتر والنصف ، فصلعاه الغربي والجنوبي كانوا من الحجارة البازلتية السوداء والتي لا يزال بعضها قائماً حتى الآن ، أما ضلعه الشرقي فهو حيطان الدور المجاورة للمدرسة ، أما الشمالي فكان جدار المدرسة . إلى الجنوب من الجدار الجنوبي ، يقع طريق عرضه عشر أمتار ، مزود برصيف من الشمال والجنوب ، وإلى جنوب الطريق كانت حدائق المدرسة والتي

هي - كما سبق وذكرنا - مزرعة المعلم غازي فرزات النموذجية ، كنا نقوم فيها بالدورات العملية ، وكيفية غرس ورعاية الأشجار المثمرة ، إذ كانت الزراعة مادةً أساسية تدرس في مدرستنا . أذكر من زملاء المرحلة الابتدائية نادر القصیر ، ومحمود خطيب الذين أصبحا من المعلمين البارزين فيما بعد ، ومصطفى مطر والذى أصبح لاحقاً أول معاون لمدير فرع المهندس زياد طلاس فرزات العلمي الشرعي بالرستن ، وعمر عكيل جمعة ، وخضير بحبح ، وحسين شمسى ، ورشيد منصور ، وهشام إدريس ، ومعظم هؤلاء أصبحوا فيما بعد إما معلمين أو مدرسين . كان الدوام في مدرستنا يتم على مراحلتين ، مرحلة ما قبل الظهر ، وهي أربع حصص تليها فترة استراحة لمدة ساعتين هي فترة الغداء ، كان التلاميذ يذهبون إلى بيوتهم البعيدة والقريبة لتناول الغداء .

تبدأ الفترة الأولى ، من الثامنة صباحاً حتى الثانية عشرة ظهراً ، تليها استراحة الغداء ، من الثانية عشرة ظهراً حتى الثانية بعد الظهر ، وفيها ما فيها من مشقة ، فاللهم يمن كل الرستن ، وببيوتهم منها ما هو في أطراف البلدة .

فاللهم الذي بيته في أعلى الرستن ، أو ما يسمى بالحي الفوقاني ، يمضى الاستراحة في الذهاب والإياب ، ولا يغنم من الاستراحة إلا التعب ، حيث أن المدرستان الابتدائيتان اللتان كانتا موجودتين في ذلك الوقت كانتا في حي الرستن التحتاني . فإذا كانت الفترة الثانية ، وتبدأ من الساعة الثانية بعد الظهر ، فهناك حستان ، تخللهما استراحة لمدة ربع ساعة ، ومن ثم يُقرَّ الجرس ، ويعود التلاميذ إلى بيوتهم ، عند الساعة الرابعة بعد الظهر . وبرغم ما في هذا الدوام من مشقة وجهد على التلاميذ ، إلا أن أحداً منا لم يتأخر عن الحضور في الوقت المحدد ، وقبيل بدء الدوام لكلا الفترتين ، والسبب في ذلك إقبال الناس على العلم ، وتحريض الأهل لأبنائهم ، ونظرة الإجلال التي كان ينظر بها الناس لطالب العلم ، رغم أن أهل البلدة كان معظمهم من الأميين الذين لا يجيدون القراءة والكتابة ، والمتعلم منهم هو من تعلم في الكتاب ، قراءة القرآن الكريم .

الأُمَّيَّةُ هِيَ الْغَالِبَةُ عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنْ عَقُولُ النَّاسِ كَانَتْ كَبِيرَةً، يَرِيدُونَ لِأَبْنَائِهِمْ أَنْ يَتَعَلَّمُوا، رَغْمَ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا مَا سَمِعُوهُ مِنْ هَنَا وَهُنَّاكَ.

كَانَتِ النَّظِيرَةُ إِلَى الْمَعْلُومِ فِي بَلْدَتِنَا نَظِيرَةً إِعْجَابٍ وَإِكْبَارٍ فِيهَا مَا فِيهَا مِنَ التَّبْجِيلِ وَالاحْتِرَامِ فَمَا أَنْ يَظْهُرَ الْمَعْلُومُ فِي أَحَدِ شُوَّارِ الْبَلْدَةِ، إِلَّا وَيَقْفَ النَّاسُ كَبَارًا وَصَغَارًا إِجْلَالًا لِهِ يُحْيِيْنَهُ، وَيَسْمَعُونَهُ عَبَارَاتِ الإِكْبَارِ وَالتَّقْدِيرِ.

أَمَّا نَحْنُ التَّلَامِيْذُ، فَكَانَ الْأَمْرُ عِنْدَنَا مُخْتَلِفًا، فَإِذَا ظَهَرَ الْمَعْلُومُ عَلَيْنَا فِي الشَّارِعِ، وَنَحْنُ نَلْهُو أَوْ نَقْوِمُ بِبَعْضِ الْأَلْعَابِ، كَنَا نَتَوَارِي مِنْهُ، خَشِيَّةً أَنْ يَعِيبَ عَلَيْنَا بَعْضُ تَصْرِفَاتِنَا، أَوْ يَرِى فِيهَا مَا لَا يَعْجِبُهُ، فَيَعِاقِبُنَا عَلَيْهَا غَدَاءً، أَوْ حَتَّى يَعَاقِبَنَا بِالضَّرَبِ.

كَنَا حَرِيصِينَ عَلَى أَوْقَاتِ الْمَدْرَسَةِ، لَا نَكَادُ نَتَغَيِّبُ عَنْهَا يَوْمًا رَغْمَ بُسْاطَةِ الْحَيَاةِ، وَقَلْةِ الْمُغَرِّبَاتِ فِي الْمَدْرَسَةِ.

أَذْكُرُ أَنَّهُ أَصَابَنِي مَرْضٌ بَسِيطٌ، وَكَانَ وَالَّدِي - حَفَظَهُ اللَّهُ - شَدِيدُ الْعَنَايَةِ بِي، عَمَّا بِالْمَقْوِلَةِ الشَّائِعَةِ: الْقَضَاءُ عَلَى الدَّاءِ قَبْلِ وَقْعَهُ، وَالاحْتِيَاطُ وَاجِبٌ، فَقَرَرَ اسْطَحَابِي مَعَهُ إِلَى حَمْصَ لِيُعَرِّضَنِي عَلَى الطَّبِيبِ، رَفَضَتْ ذَلِكَ قَائِلًا لَهُ: كَيْفَ أَعْطُلُ دَرْوِسِيِّي، وَامْتَنَعْتُ عَنِ الذهابِ إِلَى حَمْصَ، وَأَخِيرًا اتَّفَقْنَا أَنْ نَذْهَبَ إِلَى حَمْصَ بَعْدَ ظَهَرِ يَوْمِ الْاثْنَيْنِ.

كَانَتِ الْمَدْرَسَةُ تَعْمَلُ بِنَظَامِ الْفَتَرَتَيْنِ، فِي أَيَّامِ السَّبْتِ، وَالْأَحَدِ، وَالثَّلَاثَاءِ، وَالْأَرْبَاعَ فَتْرَةً صَبَاحِيَّةً وَأُخْرَى بَعْدَ الظَّهَرِ. أَمَّا يَوْمَيِ الْأَثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، فَلَا تَوَجُدُ إِلَّا فَتْرَةً صَبَاحِيَّةً يُمْكِنُنَا أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ فَتْرَةِ بَعْدِ الظَّهَرِ فِي قَضَاءِ بَعْضِ حَاجَاتِنَا.

مَا زَلَتْ أَذْكُرُ تَلْكَ الْمَرْحَلَةَ مِنْ حَيَايِيِّ، فِي مَدْرَسَتِي الصَّفَرَاءِ، وَالْمَدْرَسَةِ الْابْدَائِيَّةِ الْأُخْرَى، حِيثُ تَنَقَّلْتُ فِيمَا بَيْنَهُمَا.

عِنْدَمَا كَنْتُ فِي الصَّفِ الثَّانِيِّ، حَضَرَ مَفْتَشٌ مِنَ الْمَعَارِفِ فِي حَمْصَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ، كَانَ الْمَفْتَشُ يَحْضُرُ درْسًا فِي الصَّفِ الرَّابِعِ، جَاءَ الْمَدِيرُ وَأَخْذَنِي إِلَى الصَّفِ الرَّابِعِ وَأَعْطَانِي مَسَأَلَةً حَسَابٌ مِنْ مَقْرَرِ الصَّفِ الرَّابِعِ، وَطَلَبَ مِنِّي حَلَّهَا عَلَى السَّبُورَةِ، وَقَمَتْ بِحِلِّهَا، وَكَانَ الْحَلُّ صَحِيْحًا، وَأَثْارَ إِعْجَابَ الْجَمِيعِ، مَمَّا حَدَّا

بمدير المدرسة أن يذهب إلى دكان قريب ويشتري لي بعضاً من السكاكر مكافأة لي، فقمت بتوزيعها مباشرةً على تلاميذ صفي .

في عام ثمانية وخمسين ، وكنت في الصف الرابع ، حدث انقلاب حينها على النظام الملكي في العراق، قاده عبد الكريم قاسم ، هزَّ هذا الحدث مشاعري ، وأجج نفسي بالفرح ، فقد كان فهمي للأمور أنَّ الْمَلَكِيَّةَ كانت نظاماً عمياً للأجنبي ، وهذه ثورة وطنية واجتماعية . أقام بعض كبار الشباب المتعلمين ، أمسية خطابية احتفالاً بهذه الحادثة القومية ، في مدرسة بنات الرستن الابتدائية ، وبجهود ذاتية بذلتها مع اللجنة المنظمة للأمسية ، أقنعت اللجنة بضرورة إلقاءي كلمة عن التلاميذ ، وكان لي ذلك ، وقد لاقت كلمتي استحساناً من الحضور، الأمر الذي حدا بي لأنكون جاداً أكثر في تصرفاتي وأقوالي ، وكانت هذه الأمسية - بالنسبة لي - بداية تفتح مواهب المسؤولية في كل تصرفاتي اللاحقة .

في عام ستين وتسعمائة وألف ، حضر إلى الرستن رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر ، وكان بصحبته ضيفه رئيس جمهورية يوغوسلافيا .. جوزيف بروز تيتو . وجرت مباراة ما بين تلاميذ ناحية الرستن ، و اختيار الفائز فيها ، لإلقاء الكلمة الترحيب أمام الرئيس جمال عبد الناصر و ضيفه ، وفازت في المباراة ، وألقى الكلمة أمام جمال عبد الناصر، وحشد كبير من جماهير ناحية الرستن ، كانت محطة نوعية في تكوين شخصيتي الثقافية، تركت أثراً كبيراً على مسار حياتي المستقبلية .

فقد كان عبد الناصر ، رئيس أول دولة تحقق الوحدة ما بين قطرين عربين في العصر الحديث ، بالإضافة إلى كونه شديد التأثير في الجماهير العربية في جميع أقطارها ، من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي . أمام هذا الزعيم ألقى الكلمة خطاباً، صحيح أنه كان مكتوباً ، ولكن الصحيح أيضاً أنه كان بالنسبة لي تاريخياً بكل ما لهذه الكلمة من أبعاد ودلائل .

كانت فترة الخمسينات والستينات من القرن العشرين أو ما كان يسمى بمرحلة جمال عبد الناصر فترة نهوض قومي اختلطت بها الأوهام بالحقيقة . وقد لاقت هذه الفترة - أو ما كان يسمى بالفترة الناصرية - هوىًّ في نفوس شباب الوطن العربي ، حيث توجت بقيام أول وحدة عربية بين مصر و سوريا بعد اتفاقية سايكس - بيكيو ، برئاسة جمال عبد الناصر . كان بطل الوحدة دون منازع الرئيس السوري آنئذ شكري القوتلي ، الذي اكتفى بلقب المواطن الأول بدلاً من لقب الرئيس . كان قيام الوحدة بين مصر و سوريا ، في الثاني والعشرين من شباط عام ثمانية وخمسين وتسعين ألف . حدثاً عظيمًا ، إلا أنه لم يستند إلى أرضية اقتصادية ، إذ أن المجتمعات العربية تعيش حالة من التخلف ، والجهل ، والمرض ، والفقر ، دون أن تدرك ذلك .

كان عبد الناصر قد أعجبه من الأنظمة السياسية ، فكرة التنظيم السياسي الواحد ، فحل جميع الأحزاب والمنظمات غير الحكومية في سوريا ، مقلداً النظام السوفييتي الشمولي وما يتضمنه من انتخابات وهمية ، وحكم ديكاتوري ، ومصادرة للمصانع والمعامل الوطنية ، دون أي تعويض ، أو مسؤولية عن الديون والالتزامات المترتبة على هذه المصانع ، وتم تسلیم إدارتها إلى عناصر لا تعرف شيئاً عنها . كانت النتيجة أنه بالسرعة والفوقية التي قامت بها دولة الجمهورية العربية المتحدة ، هي نفس السرعة والفوقية التي فصلت بها . ففي الثامن والعشرين من أيلول لعام واحد وستين وتسعين ألف حدث الانفصال .

كان الانفصال صفعة قوية لحلم الملايين من العرب ، وترسّخ الانفصال . وتبين أن سايكس - بيكيو أقوى من كل الأحلام والاتفاقيات العربية .

وتلا ذلك حرب حزيران في عام سبعة وستين ، والتي كانت صفعة موجعة لكل عربي شريف ، ونكسة قوية لكل طموحات العرب الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية . لقد أثبتت نكسة حزيران أن الأحلام لا تتحقق بحسن النوايا ، وإنما بالعمل والبناء المخطط المنظم والمُخلص ، ولعدة أجيال .

عندما تهزم أي أمة تُطْلِ الشعوبية برأسها ، وتبداً عملية نهشها لجسد الأمة . في تلك المرحلة ، كانت الغالبية من أبناء شعبنا تتغنى بأمجاد تاريخ العرب تحت راية الإسلام . وسبب ذلك ، عدم إحاطتهم بالمعرفة بواقع العرب ، الذين لم يكونوا قبل الإسلام سوى قبائل متناحرة مترتبطة بما جاورها من الدول .

أخذت هذه الغالبية - وبنوايا طيبة - تنشد الوحدة بأي شكل وأي صيغة ، فهي الخلاص من كل ما هو سيء ، وفيها العبور إلى بر الأمان وكل ما هو حيد .

في أواخر عام سبعين أُعلن قيام اتحاد الجمهوريات العربية ، بين سوريا ومصر ولibia .

وما أن أُعلن النبأ في منتصف الليل ، حتى تداعت شبيبة الرستن المتنورة إلى اجتماع في منزل محمد (عدنان) سعيد أيوب ، قرروا خالله تنظيم مسيرة تضامنية مع قيام اتحاد الجمهوريات العربية ، وفي صبيحة اليوم التالي - وكان يوم الجمعة ، ووقفة عيد الفطر السعيد - كَبَّرَتْ جميع مآذن جوامع الرستن داعيةً إلى المشاركة في المسيرة . التي شارك فيها معظم سكان الرستن ، شباباً وشباشاً ، رجالاً ونساءً .

شارك في المسيرة أكثر من خمسة آلاف نسمة ، امتلأت بهم الساحات التي تقابل الجامع الكبير - والتي بني عليها لاحقاً مركز البريد والهاتف في الرستن ، وثانوية الشهيد محمد سعيد أيوب - والطرق المؤدية إلى الجامع ، حيث مكان الاحتفال الخطابي .

ومن على سطح الجامع الكبير ، ووفق البرنامج ألقى التالية أسماؤهم كلمات المسيرة وبشكل منظم ، ووسط تصفيق وتفاعل شديد من الجماهير المحتشدة ، تخللها إطلاق للعيارات النارية في الهواء .

بدأ المهرجان بكلمة الطلاب ، ألقاها محمود سليمان بحجوب الذي كان قد أنهى لتوه دراسته الجامعية ، ثم كلمة الفلاحين ، ألقاها سليمان شريتح والذي كان معلماً في مدارس الرستن الابتدائية . وأخيراً ألقى الكلمة تحالف قوى الشعب العامل ، والتي تحدَّث فيها عن أهمية الوحدة العربية و حاجتنا إليها .

وكنت حينها طالباً في السنة الثالثة بجامعة دمشق .

بشكل عفوي عبر أبناء مدينة الرستن ، عن قناعاتهم بأن الوحدة هي الخلاص من التخلف والهزائم المتتالية على كل الصعد .. رفضهم للصراع والحد الطبيقي . فقد كانت قيم الإسلام هي الأكثر تجذراً ، وكان شعبنا يرفض كلَّ ما يتعارض مع هذه القيم . بالإضافة إلى الخطباء الثلاثة الذين ذكرتهم أعلاه ، فقد شارك بشكل فعال في الإعداد والتنظيم للمسيرة كلٌّ من محمود حسن الدالي ، وكان معلماً في المدارس الابتدائية ومحمد (عدنان) سعيد أيوب ، وكان طالباً في الكلية العسكرية ، ومحمد مشهور فرزات وإبراهيم يوسف أيوب ، وعدنان درويش ، وكانوا جميعاً طلاباً في جامعة دمشق ، وكذلك شارك أحمد نجيب الشيخ علي ، وإبراهيم أحمد بحبح ، وعبد الحسيب قاسم فرزات وغيرهم من شباب الرستن المتنورين والمؤمنين بربهم ووطنهم .

في ربيع عام واحد وسبعين تداعى كل من يحمل الشهادة الثانوية في مدينة الرستن إلى اجتماع في مقر رابطة اتحاد شبيبة الثورة في الرستن ، وقد كانوا أكثر من خمسة وسبعين مؤتمراً ، لتأسيس نادي المثقف العربي ، وقد عقد الاجتماع بحضور السيد فايز سعد الدين ، بصفته رئيساً لرابطة شبيبة الثورة في الرستن . ومن الحضور محمد مشهور فرزات ، وحسين حوجة ، وحسين شمسي ، وعدنان درويش ، ومحمود حداد . وبعد المداولات ، وفي جو ديمقراطي ، ترشح أحد عشر مرشحاً لعضوية مجلس إدارة نادي المثقف العربي المكون من خمسة أعضاء ، حيث فاز بالأغلبية كل من :

محمود فرزات - رئيساً ، وكنت طالباً في السنة الثالثة في جامعة دمشق .

محمود بحبح - أميناً للسر ، وكان مدرساً في ثانوية الرستن .

إبراهيم آغي - أميناً للصندوق ، وكان مدير مركز البريد والهاتف في الرستن .

مصطفى محمود مطر - عضواً ، وكان قد أنهى لتوه دراسته الجامعية في مصر .

محمود حسن الدالي - عضواً ، وكان معلماً في مدارس الرستن الابتدائية .

وتم إعداد الوثائق الالزامـة ، وأرسلت إلى الجهات المختصة لأخذ الموافقة على تأسيس النادي و مجلس إدارته المنتخب وإشهاره . إلا أن حرارة آب قد فاقت حرارة تحمسنا للنادي ، فما إن أطل حتى أطلت معه عدم موافقة الجهات المختصة على تأسيس النادي وإشهاره ، دون تعليل أو تبرير . في أواخر عام ثمانية و خمسين ، وكان عام جفاف ، فقد اجتاحت الجفاف سورياً من أقصاها إلى أقصاها ، في هذا العام تعاقدت حكومة الوحدة مع شركة بلغارـية ، لإنشاء سد الرستـن على مجرى العاصي . كان لهذا المشروع العديد من الآثار الإيجابـية ، على الناحية الاقتصادية ، فقد استقطـبـ الكثـيرـ من الـيدـ العـاملـةـ ، غيرـ المـدرـبةـ منـ الرـستـنـ ، والـقـرـىـ الـمـجاـوـرـةـ لهاـ ، فـكـانـ تعـويـضاـ عـماـ لـحـقـ بالـمـزارـعـينـ بـسـبـبـ الجـفـافـ وـقـلـةـ المـطـرـ .

والأجملـ منـ ذـلـكـ ، وـهـوـ شـيءـ غـيرـ مـعتـادـ فـيـ بلـدـةـ الرـستـنـ ، هـوـ الأـجـورـ الشـهـرـيـةـ الـتـيـ كانـ أـبـنـاءـ الرـستـنـ العـامـلـيـنـ فـيـ المـشـرـوـعـ يـتـقـاضـونـهـ ، وـلـاـ عـهـدـ لـهـمـ بـهـ ، فـكـانـ الأـجـرـ عـنـهـمـ يـتـمـ عـنـ جـنـيـ المـوـسـمـ ، وـالـمـوـسـمـ إـمـاـ يـكـونـ شـتـوـيـاـ ، وـهـوـ عـادـةـ مـزـرـوـعـاتـ تـرـوـيـ بـالـمـطـرـ ، وـهـذـهـ تـمـ زـرـاعـتـهـ فـيـ أـوـاـخـرـ الـخـرـيفـ ، كـالـحـنـطةـ ، وـالـشـعـيرـ ، وـالـعـدـسـ ، وـالـفـولـ ، وـالـجـلـبـانـ وـيـتـمـ حـصـادـهـ فـيـ بـدـاـيـةـ الصـيفـ .

أـوـ يـكـونـ صـيفـياـ يـُرـوـيـ بـالـمـاءـ الـقـادـمـ فـيـ بـحـيـةـ قـطـيـنـةـ بـحـمـصـ ، وـتـمـ زـرـاعـتـهـ فـيـ بـدـاـيـةـ الـرـبـيعـ ، كـالـقـطـنـ ، وـالـشـوـنـدـرـ السـكـريـ ، وـالـبـصـلـ ، وـهـذـهـ يـتـمـ جـنـيـهـ فـيـ أـوـاـئـلـ الـخـرـيفـ إـضـافـةـ إـلـىـ كـرـوـمـ الـعـنـبـ بـكـلـ أـنـوـاعـهـ ، وـخـصـوصـاـ الـحـفـرـزـلـيـ .

لـمـ يـكـنـ الأـجـرـ الشـهـرـيـ مـعـرـوفـاـ قـبـلـ السـدـ ، فـعـوـضـ الـعـمـلـ فـيـ السـدـ عـنـ الـجـفـافـ لـلـمـازـعـينـ وـلـلـذـينـ لـاـ يـمـلـكـونـ أـرـاضـ زـرـاعـيـةـ أـصـلـاـ .

وـمـنـ إـيجـابـيـاتـ هـذـاـ السـدـ الـرـيـ الـمـنـظـمـ لـسـهـلـ الـغـابـ ، قـبـلـ مـصـبـ العاصـيـ فـيـ الـبـحـرـ الـأـبـيـضـ الـمـتو~سطـ ، قـُرـبـ مـدـيـنـةـ أـنـطـاكـيـةـ . اـسـتـمـرـ الـعـمـلـ فـيـ السـدـ ، مـنـ أـوـاـخـرـ عـامـ ثـمـانـيـةـ وـخـمـسـيـنـ ، حـتـىـ مـطـلـعـ أـيـلـولـ مـنـ عـامـ وـاحـدـ وـسـتـيـنـ ، أـيـ أـقـلـ مـنـ ثـلـاثـ سـنـوـاتـ ، فـكـانـ مـعـلـمـاـ حـضـارـيـاـ بـارـزاـ . وـأـطـلـ سـدـ الرـستـنـ بـشـوـبـهـ الـأـسـوـدـ الـجـمـيلـ ، يـزـدـهـيـ عـلـىـ السـهـولـ بـأـرـفـاعـ قـامـتـهـ ، وـبـهـاءـ طـلـعـتـهـ ، وـأـمـتـلـاءـ جـيـوبـهـ بـالـخـيـرـ الـوـفـيرـ .

لسد الرستن فتحت تصريف ، واحدة من الجهة الجنوبية تضم نفقاً وشلالاً سطحياً ، وهي التي تتجه مياهاها جنوباً ، بانظرة إلى زور الخان الذي امتدأ بالأشجار ، متهدية عين التين القليلة الغزاره . وفتحة بنهاية نفقٍ ، تلتقي مياهاها مع مياه الفتحة الجنوبية شرقي هضبة السد ، بعد أن تكون قد عبرت معملاً لتوليد الطاقة الكهربائية . ولكن للسد آثار سلبية أيضاً ، فقد ألغى شعارات الرستن القديمة وعناوينها فتحول طريق الرستن ، من الجسر القديم الذي كان يربط شمال سوريا بجنوبها ، إلى ظهر السد . وهدمت طاحونة الرستن وناعورتها وخانها الكبير ، وما لهذه الأوابد من ذكريات .

كانت طاحونة الرستن تعمل بدفع المياه التي ضُيّقت ، بحيث تمر من تحت الطاحونة مسرعةً، فتدير عَنفاتها . والتي كانوا يطلقون عليها بعض الأسماء ، فبعض هذه العنفات (جَغْل) كان اسمها عنترة ، وذاك لأنها كانت العنفة الأكبر ، والثانية اسمها الزبير سالم، أما الثالثة فكان اسمها أبو زيد الهمالي .

كان الناس يتلقاًطرون بدوا بهم المحملة بالقمح ، والشعيـر ، لطحنـها ، يأتـون من كل فـج عميق على بـغالـهم وـحمـيرـهم ، ويـصـطـفـون عند بـابـ الطـاحـونـة بالـدورـ، كـلـ يـعـرـفـ دورـه ولا يـتـعدـاهـ، أـماـ الأـجـرـ، فـإـمـاـ أـنـ يـكـونـ بـعـضـ النقـودـ، تـدـفعـ لـلـطـحـانـ، وـإـمـاـ أـنـ يـكـونـ كـمـيـةـ منـ الطـحـينـ بـدـلـاـ عنـ النـقـدـ، كـلـ الـطـرـقـ توـصـلـ إـلـىـ الطـاحـونـةـ، فـكـنـتـ تـرـىـ الدـوـابـ تـحـضـرـ بـالـقـمـحـ وـتـعـودـ بـهـ طـحـيناـ.

هدمت الطاحونة ، وأصبحت أثراً بعد عين ، وكان المُحزن رؤية الناس وهي يقومون بدهمها واقتلاع حجارتها ، وهدم سقوفها ، لتغدو ذكرى في أذهان معاصرتها فقط . أما الخان فقد كانت مساحته تزيد عن عدة آلاف من الأمتار المربعة ، ويضم قاعات وإسطبلات إضافية إلى مُصلّى ، وجميعها مبنية بالحجر البازلتى الأسود .

كان الخان يستخدم استراحة للقوافل المدنية والعسكرية . تحدى من الشمال الطاحونة والجسر ، ومن الغرب هضبة الرستن والطريق الصاعد إليها والمسمى (طريق المُدرج) ومن الجنوب الرَّوْرُ الذي حمل اسمه (زور الخان) ، ومن الشرق

نهر العاصي . كان من أكبر الخانات الواقعة على طريق حلب - دمشق ، وعند بناء سد الرستن في أواخر الخمسينات من القرن العشرين ، تم استخدامه من قبل الشركة الإنسانية ، كورش للآليات والمخارط ، ثم ما لبث أن أخذت معظم حجارته ، ورصف بها الجدار الجنوبي لجسم السد ، ومئذنة جامع الرستن الكبير .

و مع ظهور السد ظهرت خلفه بحيرته العظيمة والتي تتسع في دروة تخزينها لمائتين وخمسين مليوناً من الأمتار المكعبة ، وابتلع ماؤها تلك البساتين الجميلة ، والحدائق الغناء التي كانت على صفيه بما فيها من ينابيع ، وأشجار ، وحكایات ، وذكريات ونژهات كنا نقوم بها إلى ذلك الوادي الأخضر ، كما تهدم معمل الكهرباء الواقع غربي الرستن ، قرب قرية الغجر (غرانطة حالياً) .

و على بعد لا يتجاوز الألف متر من موقع الخان السابق توجد عين العجوز ، نبعت من تحت هضبة الرستن ، عينٌ ماؤها ليس غزيراً ، ضعيفة الماء ، تناسب ببطء ، ولا تحدث صوتاً للجالس بقربها ، ولا يُعرف لها اسم آخر ، ولعل اسمها كان من ضعف خبرتها ، فالعجز ضعيف وربما يكون سبب تسميتها بالعجز ، لقلة غزاره مياهاها ، وقلة الجلبة التي تحدثها ، لم يستخدم الناس ماءها للشرب ، فكانوا يأخذون الماء المخصص للشرب من عين التين الواقعة إلى جنوبها ، وتتبع من أسفل سفح هضبة الرستن الشرقية ، أما عين أبي يزيد ، فتبعد من أسفل السفح الغربي لهضبة الرستن ، ومثلها العين الغربية .

كانت عين العجوز - وما تزال - تنبع من الجبل ، وقد صنع لها حوض لا يتجاوز بضعة أمتار لتخزين مائها فيه .

كان الحمام المبني بجانبها الذي يستحم فيه الناس ، يُزوّد بالماء من هذه العين ، وكان ماء الحمام يُسخّن بحرق الخشب والقش الذي كان يجمعه صاحب الحمام من الزور المجاور له .

الخان ، والطاحونة ، والناعورة ، وعين أبي يزيد ، وعين العجوز ، وعين التين ، من معالم الرستن القديمة الحديثة حيث تصل إليها من طريق ينحدر من الرستن ، على

شكل زاوية حادة رأسها إلى الشمال ، تحيط بهذا طريق الهابط نباتات العليق الشائكة ذات الشمار المتنوعة ، حمراء ، وصفراء ، وسوداء بحسب النضج ، فشمار العليق لا تنضج دفعة واحدة ، والطحالب ، والقصب . وقد تراكمت على طرفي الطريق بغير نظام ، وربما اعترضت الطريق ، فكنا نُخَاطلها لئلا تعلق بشيابنا ، فتمزقها ، وقد أحاطت بها أشجار التين بشكل عشوائي غير منظم - ولذلك كان تسميتها عين التين - وأشجار الجوز ، واللوز والمشمش ، والرمان ، والقصب ، فكانت نبعاً في غابة وارفة الظل ، وهذا لا مبالغة فيه أو ربما أكون لم أف بما هو موجود حقاً . هذه الأشجار العملاقة التي أحاطت بالعين ، لا أحد يستطيع أن يحدد لها عمراً ، فعمرها هو عمر العين ، تشيخ و تموت ثم تولد من جديد .

في أسفل الطريق الذي يهبط من أعلى الرستن ، إلى أسفل سفحها الشرقي ، تطالعنا ساقية ينصب ماؤها من داخل مغارة ، كغرفةٍ متوسطة الحجم ، تدلّت عليها الطحالب والعليق فلم يبق من مدخل المغارة إلا ما يسمح للشخص بالدخول إليها ، وكأنها حَرَسُ الماء . ينبت الماء من سقفها ، وحيطانها بغزارات مختلفة ، وبعضها لا يعود النقط و بعضها ينصب انصبابةً ، وكان الناس يأخذون مياه الشرب من هذه اليابس ، ولا سيما الغزيرة منها ، فإذا تركت هذا الجانب ، وانتقلت بضع خطوات إلى الشرق ، تاركاً المغارة طالعتك العين الغزيرة ، وذاك أن عين التين تندفع من أماكن عدة ، وهذا المكان هو النبع الأغرى ، حيث يندفع الماء من خلال مزراب في الحائط ، على ارتفاع لا يتجاوز المترين وتنصب على الأرض ، واسمها عين المزراب ، فكان يكفي للتي تريده ملء جرارها ثانية أو بعض ثانية ، وعليها أن تمسك بها جيداً وإلا جرفتها قوة اندفاع الماء من يدها .

وعلى مصب المزراب ، كانت حَجَرَةً بيضاء ذات بريق ، كانت مكعبه الشكل ذات أضلاع متساوية ، وسطحها ناعم من كل جهاتها ، كانت النساء يستخدمنها لغسل الثياب بالمخباط وقد ثبت أن هذا الحجر من النوع الكريم ، وقد فُقد مؤخراً ، ولا أحد يعلم من الذي قام بسرقه ، علمًا أن الناس لا يعرفون نبع المزراب إلا وهذا

الحجر موجود تحته . ولهذه العين حكايات ، فقد حدثونا عن جنية كانت تقطن عين التين ، وكانت كثيراً ما تستحم بماء المزراب في أوقات الظلام . روى أحدهم أنه عندما كان عائداً إلى بيته من زور الخان ، مر على عين التين لأن طريقه من هناك ، فشاهد امرأة تغسل على المزراب ، وهي تأخذ الماء بيديها ، وتذلك جسمها وكان شعرها طويلاً جداً وأشياً ، فراعه منظرها ، وكانت عارية ، وعندما دنا منها تبين له أنها جنية .

وغيره يقول غير ذلك ، بأنه شاهد هذه الجنية عند الظهر على العين ، ولا أدرى مبلغ هذه الأحاديث من الصحة ، سوى معرفتي من القرآن الكريم بأنّ الجان مخلوقات كالإنس لكنها لا ترى بالعين البشرية ، وهي موجودة في كل زمانٍ ومكان . أما ما غمرته مياه السد على ضفتي العاصي ، فقد كان عند الضفة الشرقية زور عين موسى أما الضفة الغربية فتضم السلّة ، والبستان ، الذي كان الأقرب إلى أرضنا ، في بسكتو غربي الرستن ، وهي الأمكانة التي قضيت فيها أحلى ذكرياتي ، بين أشجارها الوارفة الظلال والتي قامت على ضفتي العاصي .

لأزال أذكر كروم العنب ، والجوز ، واللوز ، والرمان ، وتلك الأمسيات التي كنا نقضيها على ضفافه قبل غمره بالماء .

تلك الصفاف الجميلة ، هي جزء من تاريخ طفولتي ، شأنها في ذلك شأن حارتي . كان هذا الوادي جزء من القوس الذي يشكل مع زور الخان الزيني الذي أحاط بخاصرة الرستن ، وقد غمرته بحيرة السد تماماً ، فلم يبق منه أي أثر .

ومن الحكايات التي كانت تقصها علينا الجدات وال الكبير ، حديثاً رواه أهل الرستن كباراً وصغاراً في تلك الأيام .

كان يقطن حي الرستن الفوقاني رجل من آل القرمان ، كان لهذا الرجل ابنة جميلة وكان عنده كلب يلازم داره طوال ساعات النهار ، فإذا أقبل الظلام فقدوه ، وإذا كان الصباح وجدوه . وكان هذا دأبه في الصيف والشتاء ، في أيام الحر والقر ،

يحضر في النهار ، ويغادر في الظلام . لم يُثر هذا الكلب عند الرجل ، أية ريبةٍ في بداية الأمر ، فالكلاب تجتمع ، وتعارك والمهمن أن داره فيها كلب للحراسة كباقي الدور في البلدة . ولكن ما الفائدة ، فالحراسة في الظلام ، واللصوص لا تنشط إلا في الظلام ، كان كلبه يغيب مع غروب الشمس ، ويطلع مع طلوع الفجر ، كأنه متفق مع لصوص الظلام .

وكان من عادة سكان الدور في بلدتنا - ولا سيما النساء - أن يمضوا ساعات النهار في أرض الدار ، والدور - كما ذكرنا - ذات تصميم واحد ، لها فسحة هي باحة الدار ، والغرف تحيط بها ، فإذا ما فَرَغَتْ من ترتيب بيتها ، وهذا أمر يستغرق كثيراً ، خرجت إلى صحن الدار ، وكان هذا في معظم أيام السنة - ولا سيما في فترات الصحو - فأرض الدار هي المكان المخصص للاستراحة ، استقبال الضيوف ، والسمسر في ساعات الليل في أيام الصيف ، وقبل قدوم موسم المطر ، وكانت النساء يمضين جُلَّ أوقاتهن في صحن الدار فيجلسن متبرجات ، ويخعلن عن رؤوسهن الأغطية ، ذلك أن الدور كان لها حيطان وستور تمنع الغرباء من رؤية أهل الدار .

كانت ابنة القرمان واحدة من تلك الصبايا ، تجلس في صحن الدار على مصطبة ، تُسِرِّح شعرها ، تجمعه تارة وتُفَرِّقُهُ أخرى ، والكلب يجلس بالقرب منها ، يُراقبها بعيونٍ جاحظة يميل معها كما تميل لا يكاد يرفع نظره عنها ، وهي غير آبهة به . لكنها - ومع تكرار الفعل - نظرت في وجه الكلب وعينيه ، فرأيت شيئاً عجباً ! إن نظراته ليست كنظرات الكلاب العادية ، فرابها منه ما رابها ، وشكت ذلك إلى أمها ، التي شكت بدورها إلى زوجها في المساء قائلةً : إن هذا الكلب يثير ريبة ابنتنا وبضايقها ، كأنه رجل وليس كلباً ، وقابل الأبُّ الأمر بسخرية ، ولكنه لم يستطع يومها النوم ، وقد حاول .

وعندما راجع تصرفات كلبه ، عصفت برأسه الشكوك ، وساورته الظنون . فقرر مراقبة الكلب ولكن أين يذهب هذا الكلب ؟ فكلاب الحارة تبيت في الدور ، وإنني لأسمع نباحها فأين يبيت كلبنا ؟ ! قرر أن يعرف ذلك بنفسه حتى لا يتعرض لسخرية

الآخرين. ماذا يقول لهم ؟ أَيْقُول للناس : إن الكلب يعشق ابنتي ، إن هذا أمر يشق على كل ذي عقل ، فلجاً إلى الكتمان .

ذهب إلى رأس التل حيث يجتمع الرجال والنساء في كل مساء ، وهو مكان يسمح برؤيه الرستن ، غربها ، وشمالها ، وجنوبها ، وشرقها ، من دون عوائق .

كان الناس في كل يوم - ولا يزالون - يجتمعون معاً قبل الغروب ، يتمازحون ، يتعابون ويتفقون على السمر ، وكل واحد منهم يرقب غروب الشمس ، وهي تدخل في الأفق الغربي ، مخلفة شفقةً أحمرأً ، منتظرین صوت المؤذن يدعوهم لصلاة المغرب .

في هذه الأثناء ، كان فكره منشغلًا بكلبه الأثير ، فرأاه يخرج من جهة الرستن الغربية مغرباً ، فراقبه حتى ما عاد يتبيّنه ، فقرر أن يبدأ المراقبة غداً من حيث انتهى بروبيته اليوم فجلس هناك بمكان حيث يرى ولا يُرى .

ومع تكرار المراقبة ، ومن أماكن متعددة ، تبين له أن كلبه يدخل في (خربة البَدِيقَة) والتي تقع غرب الرستن بما لا يزيد على أربعة كيلومترات ، ويبدو من آثارها أنها كانت في يوم من الأيام قرية عامرة ، ثم تهدمت وهجرها أهلها ، يبدو ذلك من الحجارة المتناشرة هنا وهناك ، والتربة المغایرة للون التربة المجاورة ، وكانت خربة البَدِيقَة تقع في وسط منخفض ، يقال له جورة العرavis .

يزعم الرواة أنهم عندما كانوا يعودون من مزارعهم ، أو يذهبون إليها ليلاً ، يسمعون أصوات غِناء ، تنبعث من جورة العرavis ، ولما لم يعرفوا لها مصدرًا ، نسبوها إلى الجن . راقب القرمانى كلبه في المرة الأخيرة ، فوجده يدخل خربة البَدِيقَة ، فاتجه إلى أطراف جورة العرavis ، وجلس بحيث يرى ولا يُرى ، فسمع غوغاء كبيرة .

كان هناك حشدٌ من الجن ، وهم يصرخون ، عاد مِيمون ، عاد مِيمون ، وخلع كلبه لباس الكلب ، وظهر شاباً وسيماً ، وحياناً أصحابه من الجن وأخذ يرقص وهو يصفقون له ، وهو يُنشد :

لَا خذ بنت القرمانى

إِنْ عَشْتْ وَاللَّهُ خَلَانِي

لقد تحققت ظنون القرمانى في كلبه المخادع الغدار ، فقفل عائداً إلى داره ، وقد وقف على الحقيقة بنفسه ، فلا جدال ولا غموض .
هذه الأغنية .. يعرفها كل أهل الرستن كباراً وصغاراً .

كان الشاب في بلدتنا إذا أرادوا أن يمازحوا أحداً من آل القرمان ، أنسدوا له أغنية الجنى ميمون ، فإذا أردوا أن يضحك ، وإما أن يغتاظ من ذلك ، وقد سبب هذا الحادث الضيق والحرج لتلك الفتاة البريئة .

فلما كان صباح اليوم التالي وعند الفجر ، كان القرمانى يقف خلف الباب ، يمسك عصاً بيده وهو يتميز من الغيط ، فلما رأى كلبه ميمون مقبلاً ، ودخل الدار كعادته ، ناداه باسمه ميمون ، وانهال عليه ضرباً بعصاه ، وهو يقول له: (إن عشت والله خلانى لآخذ بنت القرمانى يا ميمون) فعرف الكلب أن سره قد افتصح ، فما عاد لذلك وغادر الدار ، ولم يره أحد منذ ذلك اليوم .

والحدث الاقتصادي الآخر في بلدة الرستن ، كان في أواخر الخمسينيات أيضاً ، وهو المباشرة - شرقي الرستن - ببناء معمل إسمنت الرستن الذي كان يسمى شركة إسمنت حمص - شركة خاصة مساهمة - وكان الجفاف لا يزال يلقي بظلاله على البلدة الصابرة . فاستفاد أهل البلدة من العمل في معمل الإسمنت كعمال مياومين أو بأجر الشهري . استقطب المعمل عدداً كبيراً من الأيدي العاملة ، ومعظمها من غير المدرسبة والتي كانت تقوم بالأعمال التي تحتاج إلى الجهد العضلي ، كالحفر ، وصب البيتون ، وتشييد الجدران في السهل الذي تحيط به الجبال من كل الجهات ، إحاطة السوار بالمعصم ، ويعبره من طرفه الشمالي - على استحياء - نهر العاصي .

أطل معمل الإسمنت بدخنته العملاقة التي تناطح السحاب تنشر دخان المعمل في الفضاء فكان معلماً حضارياً آخر من المعالم الحضارية في الرستن ، ذو فوائد اقتصادية كثيرة ، فبالإضافة إلى أنه استقطب الكثير من اليد العاملة غير المدرسبة ، فقد

وَفَرْ مادة الإسمنت الضرورية للبناء. أما الحدث الأكثُر أهمية - بالنسبة لي - وعلى صعيد أسرتي، كان قرار والدي بيع بيتنا القديم الحبيب إلَيَّ، لينتقل إلى بيتنا الجديد، على الطريق الدولي الذي يحتوي كل التجهيزات المعروفة في ذلك الوقت . إن تركي لمنزلنا القديم في سُرَّة الرستن ، كان حدثاً لا ينسى ، ولا أكاد أتخيله في حينه كيف سأغادر هذا البيت؟ وأترك رفاق طفولتي ، وأماكن لهوي ، إلى ذلك البيت الذي كان في حينه في أطراف الرستن الغربية . لكن .. وبعد عدّة سنوات ، أصبح سرة الرستن ومركزها التجاري ، والسكنى ، هذا هو والدي ، إذا عَزَمْ توَكَّل على الله و نَفَّذ .

الحقيقة أن الدار الجديدة التي بناها والدي ، بدلاً من البيت الذي باعه لأحد أقاربنا، لا يقارن ببيتنا القديم ، فهذا بيت عصري ، فيه من الحداثة ما فيه ، فلِم يترك فيه والدي ملاحظة لمحظ ، أو تعليق لمعلق ، لو فعلت كذا لكان أفضل لقد اختار أبي الأفضل ، فلا مجال لإجراء المقارنة بين هذا وذاك .

إلا أن للطفلة وعيتها ذكريات لا تمحي ، والإنسان مفظور على حب التملك ، وذاك ملكي ولكن ما الفائدة ، فكما يقولون : تجري الرياح بما لا تشتهي السفن .

لقد اختار والدي موقع الدار الجديدة على طريق حلب - دمشق ، من الجهة الشرقية ، وتم تشييد الدار بالحجارة البازلتية السوداء ، والأسمنت . كما كانت سقوفها مسقوفة باليتون المسلح بالحديد .

الأمر هنا يختلف ، كل شيء متوفّر في هذا البيت ، الحمام ، وساحة الدار المغلقة والمسقوفة والمبلطة بالبلاط ، والغرف الواسعة ، والتأثير الجيد ، والأهم من ذلك أن دارنا الجديدة فيها بئر للماء ، فلا حاجة لجلب الماء من عين أبي يزيد ، فنحن نعرف من البئر ما نشاء ، ونعطي الجيران ما يحتاجون ، وكانوا يتمثلون بقولهم ، (نياں الزارع تینے جُوّاتُ الباب ، يأكل منها ولا يشبع من دون حساب) . أثناء تشييد والدي لبيتنا الجديد ، كان المرحوم العقيد أحمد حمدان ، يبني بيته في الجهة المقابلة . كان والدي يشيد حيطان الدار بالحجر البازلتى

والإسمنت ، بينما كان العقيد أحمد يشيد حيطان داره بالحجارة ذاتها ، وبدلًا من الأسمنت كان يضع اللحمة بين الأحجار كلسًا .

جاء إلى والدي وعاتبه قائلاً : يا أبا محمود ، أنت تُسرِّفُ بوضع اللحمة بين الحجارة إسمنتًا ، وهذا كلفة أنت في غنى عنها ، ولكن والدي - وفقه الله - قال جادًا مستنكرةً : بل أنت المُسرِّف ، إن الحجارة التي تُلْحَمُ بالإسمنت لا تتأثر بعوامل الطبيعة إلا بعد مضي سنين طويلة ، أما أنت فتسرف كون الكلس يتآكل بعد سنين قليلة . فمن المسرف ؟ . أنت تحتاج إلى ترميم حيطانك كل عدة سنوات .

واقتنع العقيد أحمد بصواب رؤية والدي ، فأتم بناء ما تبقى من حيطان داره بالإسمنت . كان بيتنا الجديد عصريًا بكل معنى الكلمة ، عصريًا بموقعه ، عصريًا بتشييده . فكان من البيوت القليلة - في الرستن - التي شيدت بالحجر البازلتى والبيتون ، وسُقِّف بالإسمنت المسلح . فكل أسباب الرفاهية فيه ، الكهرباء ، الهاتف ، نصف الآلي وكان رقمه ثلاثة وثلاثين ، الحمام ، البلاط ، النوافذ الكبيرة ، وبئر الماء ، كل هذا ما كان قادر على أن يلغى من رأسي فكرة بيتنا القديم ذو القنطرة الكبيرة والصويمعات وسقفه الخشبي المُسَيَّع بالطين .

كانت الحياة بسيطة في بلدنا إلى حد السداقة ، ولكنها ساحرة وجميلة . في تلك الفترة كان والدي - حفظه الله - حريصاً على إظهاري بالمظهر المتميز وأن يخصني بأشياء تناسب ما يناديوني به ، جاء الأستاذ محمود ، وذهب الأستاذ محمود .

كان طلاب مدرستنا الصفراء بسطاء ، تنم مظاهرهم عن الطيبة ، والبساطة في كل شيء فاللباس الذي يرتدونه كان الثوب المدرسي الأسود ، والأحذية التي يتعلونها كانت بلاستيكية في فصل الشتاء ، وأيام المدرسة ، والطالب الأكثر غنى كان يتعلن الجزمة البلاستيكية السوداء التي سرعان ما تتمزق أرضاها ، فتسمح بنفوذ الماء إلى القدمين فيعمدون إلى ترقيعها عند الحَدَاء .

ولكن ذلك لا يمنع نفاذ الماء إلا مؤقتاً ، فتعود إلى سيرتها الأولى ، فلا يستفيد منتعلها منها إلا العنـت ، ولا يستفيدون من الغـيمة إلا بالإيـاب ، وإضـاعة النقـود بلا طـائل .

مع ذلك كانت المدرسة - بالنسبة لي - في المرحلة الابتدائية ، مرحلة سرور وحبور.

كنت الأول على أقراني من رفاق الطفولة في المدرسة ، وفي الحارة .

في المدرسة ، كان التلاميذ يجدون انتخابي في كل سنة عريفاً للصف ، وكان لي حظوة خاصة عند المعلمين ، فمعظمهم لا يحبون ، ولا يميزون بين الطلاب ، يُحبّون المجد دائمًا كما يفعل المعلمون في كل حين لدفع الآخرين للاجتهد والبذل . كانت هذه الفترة فترة نمو جسدي ، وعقلي بالنسبة لي ، وتطلع نحو المستقبل بكل ما تعنيه هذه الكلمة .

كان طموحي شديداً إلى حد لا أستطيع وصفه ، لم أكن أرضى أن يسبقني أحد ولا يجوز لأحد أن يتقدم علي في الدراسة ، فيكون هو الأول ، فيزبحني عن مكان الصدارة . كنت لا أدخل جهاداً في سبيل ذلك .

تركت هذه المرحلة بصماتها على سلوكي ، وطريقة تفكيري في السنوات اللاحقة ، ولا سيما في الدراسة الإعدادية والثانوية .

فلا بد من الإعداد ، ولا بد من المثابرة ، فالأولى والصادرة تكون بالجد والمثابرة . الانضباط ، والمتابعة .. كان شعاري فيما أقوم به ، والتأكد من سلامته ما أقوم به ، فقد كنت أعتبر أن ما أقوم به ، هو تحت نظر الآخرين ، فلا بد أن يكون عملي كاملاً ، لا يعرضني لمهاجمة غيري ، برأي أو فعل أو قول .

كان عدد طلاب الصف السادس في المدرستين الابتدائيتين ستاً وسبعين تلميذاً وكنت منهم . وكان الصف السادس هو نهاية المرحلة الابتدائية ، وجرت العادة في تلك السنة والسنوات التي تلتها أن تجري مسابقة تحريرية في حمص ، لها طقوس خاصة ، وأسئلة مركبة ، كما هو حال امتحانات الشهادة الثانوية في هذه الأيام .

أما الناجحون ، فالأوائل يذهبون إلى التعليم الصناعي ، والباقيون يذهبون إلى التعليم العام الحكومي . أما الراسبون ، فإلى التعليم الخاص .

وكنت الأول على المتسابقين ، فذهبت إلى الإعدادية الصناعية ، إذ كان يحقق لحامل الثانوية الصناعية بالتقدم إلى جميع المعاهد والكليات الجامعية . على عكس

الواقع في هذه الأيام . وجاء بعدي بالترتيب نادر القصير و حسين شمسي ، فذهبنا إلى الإعدادية العامة الحكومية في حمص .

أما الباقيون فرسبوا جميعاً . معظمهم التحق بالمدارس الإعدادية الخاصة في حمص أيضاً ، وهو تعليم يكلف التلميذ أقساطاً كبيرة ، على عكس التعليم الحكومي المجاني .

والباقيون من الراسبين تركوا الدراسة ، فبعضهم لا تسمح له ظروفه المادية بدفع الأقساط الشهرية ، وبعضهم لا رغبة لهم بالتعلم أصلاً .

في خريف عام ستين وتسعمائة وألف ، ذهبت لمتابعة التحصيل العلمي بمدينة حمص كغيري وكوني الأول على المتسابقين الناجحين ، فقد التحقت بالإعدادية الصناعية بحمص ، وكان علينا أن نستأجر بيتاً ، ونغادر عالم الريف ببساطته ، وما تعودنا عليه فيما سلف من أيام مضت ، وغدت ذكريات و الماضي .

في حمص ، الشوارع عريضة ، وتنار بالكهرباء ليلاً ، والبيوت ذات طوابق عديدة ، والسينما والمقاهي ، والحدائق التي يذهب إليها أهل المدينة للتنزه والترويح عن النفس . أما الريف فكله حدائق ، وكله متزهات .

والأعجب من ذلك أن كل نساء الريف في بلدتنا يلبسن الزي الرستناوي ، وهو ثوب أسود طويل يسمى (خلوقة) ، زين على فتحة الصدر بالحرير الأحمر ، يعلو ذلك شال أسود (شمبر) يغطي الرأس والعنق وما انفتح من الخلوقة على فتحة الصدر ، وغطاء ملون (محرمة) يوضع على الرأس ، فوق الشال الأسود .

يُلف الشال على الرأس بضع لفات ، ويتبدى القسم الآخر لينغطي الصدر المنفتح من الثوب الذي يغطي الجسم من الكتف إلى القدمين ، كان هذا لباس نساء الرستن كبيرات وصغيرات، متزوجات وعازبات .

وبعض كبيرات السن كنَّ يضعن على رؤوسهن - بدلاً من المحمرة الملونة - قطعة من القماش كانت قد صممت على شكل الناج ، وكان هذا الناج من اللون الأسود ، تفالطه خيوط من الفضة والذهب ، وعلى جبين المرأة تحت الناج المذكور ، قلادة

ليرات من الذهب غالباً ما يكون عدد قطعها أربعون قطعة منسقة لتشكل قوساً على جبين المرأة، وكانت هذه القلادة من الذهب ترتديها النساء المتزوجات فقط، أما العازبات، فلا يرتدين إلا الخمار الملون، إضافة إلى غطاء الرأس الأسود الرقيق (الشمبر)، والثوب الأسود المذكور. أما تلك الأشياء، ووجود ذهب فيعني: أن هذه الفتاة متزوجة، إذ من عادة المتزوجات أن يتجهزن بالذهب، فيرتدين القلادة الذهبية (الصف) فوق الجبين والأساور الذهبية، لأن ذلك هو مهر العروس في الرستن. أما الفتيات، فلا ذهب يرتدينه إلا بعد الزواج.

كان هذا هو الزي التقليدي لنساء بلدة الرستن، وهو لا يزال سائداً حتى اليوم عند المتقدمات في السن، ولم ينفرض من هذا الزي إلا التاج القماشي المزين بالحرير والذهب الذي كانت المتقدمات في السن - من الرستنويات - يحرصن على وضعه على رؤوسهن.

بالإضافة إلى المدرسيين الابتدائيتين للذكور، كان في الرستن مدرسة ابتدائية حكومية مخصصة للبنات، كانوا يطلقون عليها (مدرسة البنات)، كانت البنات يتلقين التعليم فيها، والذي كان فيه ما فيه من مشاكل للبنات، إذ كان تعليم الفتيات أمرًّ فيه الكثيرون العنف، وقلة هم الذين كانوا يرسلون بناتهم للتعلم، وعلى استحياء. فوالد الفتاة سيتعرض للقيل والقال.

كانت الفتيات يدرسن في هذه المدرسة إلى الصف السادس، وقلة هم الفتيات اللواتي حصلن على شهادة إتمام مرحلة التعليم الابتدائي، إذ كان يكفي أن تتعلم الفتاة القراءة والكتابة، هذا يكفي، فالعلم ليس من حق الفتيات عند الكثير من أهل البلدة، رغم حرصهم على تعليم الذكور من أبنائهم.

كانت أختي حليمة (الست أم شادي) والتي أصبحت لاحقاً مديرية لأكبر مدرسة ابتدائية في الرستن، حصلت على شهادة إتمام مرحلة التعليم الابتدائي، هي وبعض فتيات البلدة. كان هذا معقولاً حتى هذه المرحلة، أما المرحلة الإعدادية، ففيها مخالطة للطلاب الذكور.

تم افتتاح إعدادية للذكور في عام واحد وستين وتسعمائة وألف ، أما إعدادية الإناث فتأخرت عن ذلك التاريخ بأكثر من خمس سنوات .

إن إكمال التعليم الإعدادي و الثاني للفتيات يتطلب دراستهن في مدارس الذكور وهذا مخالف للعرف في بلدنا ، فمن يقدر على وضع نفسه في أفواه الناس ، ويتحداهم ضارياً بكل ما توارثوه من جهل وحمى لا معنى لها .

وهنا .. جاء دور والدي الحاج سليمان - حفظه الله - كانت الإعدادية قد فتحت أبوابها لاستقبال التلاميذ الناجحين بالمسابقة ، وكانت أختي واحدة من التلميذات الناجحات، وسوف تكون الطالبة الوحيدة في المدرسة الإعدادية ، إذا امتنع الآخرون عن إرسال بناتهم إلى إعدادية الذكور، فقام والدي بإقناع أحد معارفه بإرسال ابنته إلى المدرسة، ودخلت الافتتان إلى الصف الأول الإعدادي ، ولم يكن في المدرسة سواهما ، والباقي من الذكور . ومع تقدم الأيام ثبتت صحة نظره والدي الصائب ، وضلال آراء المعارضين ، وحمل بجدارة لقب رائد تعليم البنات في الرستن .

كنت معيجاً بتصرفات والدي ، فقد كان رجل زمانه ، يعرف ما يجب فعله ، مواكباً للأحداث فاعلاً فيها مقداماً لا يتوانى ولا يتأخر . أرسل أختوي ذكوراً وإناثاً إلى التعليم ، فكان مثالاً لغيره ، فاقتدى الناس به ، وحدّدوا حذوه . لم يكن في يوم من الأيام مُقلداً ، بل كانوا يقلدونه، ينتقدون تصرفاتة حيناً ، ولكنهم سرعان ما يقلدونه ، فكان مثلاً لهم يسيرون خلفه وكان دائمًا في المقدمة ، لم يكن تابعاً في يوم من الأيام . كان ميسور الحال، فهو من أوائل من اقتنى الدرجة النارية ، ولكنه لم يركبها فقط ، بل علّم كل أختوي وأخواتي قيادتها. فمن كان يرى فتاة تقود دراجة يقول : حتماً هي بنت الحاج سليمان . كان هذا يُعرّضُ والدي لنقد الكثيرين من الرجال والنساء ، ولكنه كان مقتنعاً بأن ما يقوم به صحيح ، فكان لا يأبه بانتقاد الناقدين ، عملاً بالمثل القائل : (لا يصح إلا الصحيح) مadam لا يحرم حلالاً ، ولا يحل حراماً .

وما تعليقاتهم وانتقاداتهم إلا زوبعة في فنجان ، سرعان ما تنتهي ، وقد ثبت ذلك ، فها أنت ترىاليوم الفتى يقلد أخواتي ، فيركب الدراجات ويقدن السيارات . وقد أصبح عدد الطالبات ، أكثر بكثير من عدد الطلاب في ثانويات الرستن . مع مرور الأيام ، اقتني والدي سيارة سياحية ، فكانت أخواتي يقدن السيارة ، ويدهبن إلى السوق ويرجعن بما يلزمهن ولكن هذه المرة كان النقد أخف ، فكيف ينتقدونه الآن وقد قلدوه فيما مضى ، وحدث الفتى حدو أخواتي ، فأصبحت ترى السوق يعج بالكثير من النسوة ، يقدن السيارات السياحية ، أو الدراجات النارية ... الخ .

في صيف عام واحد وستين كنت أساعد مجموعة من العاملات الزراعيات في قطاف العنبر في مزرعتنا نجمعه في صناديق خشبية كبيرة ونرسله للبيع في أسواق حمص وحماته ، وكنت الوحيدة الموجودة من أسرتي والممثل لوالدي في الإشراف على العمل والعمالات .

كان الجو شديد الحرارة والعرق يتصلب مني ، حتى أن قميصي الداخلي الأبيض لم يَعُدْ يُعرف لونه . وبعيد الانتهاء من عملنا عصر ذلك اليوم ، حضر والدي إلى المزرعة واستقبلته فرحاً لأحدثه عمّا أنجزت من أعمال وأني قد اتفقت مع صاحب إحدى المركبات لنقل صناديق العنبر إلى حماه .

و ما إن بدأت حديثي حتى حضر رجلٌ نظيفٌ المظهر ، يرتدي ثياباً بيضاء بالكامل ، بما في ذلك حذاءه وجوربيه ، يحمل في يده سلة كبيرة (قرطل) ، فرحب به والدي قائلاً: أهلاً بأبي عبد الله ، أهلاً بطبعنا .

جلس الطبال القرفصاء ولم يلتفت إليَّ ظناً منه أنني أحد العاملين ، فشكلي لم يكن يوحِي بأنني الأستاذ محمود ! وعندها طلب مني والدي أن أذهب وأملاً سلة الطبال عنباً ولأول مرة أتردد في تنفيذ إحدى رغبات والدي ، لكنه عندما أعاد الطلب الثانية ، ذهبت على مضض ، وحاوت انتقاء العناقيد الصغيرة والأقل جودة ، وعدت بالسلة ملأى أكاد لا أستطيع حملها ، فأخذتها الطبال شاكراً مادحاً وغادرنا على عجل .

عندما سألت والدي معاقباً، إنه رجل أقوى من جميع العاملات لدينا ، فلماذا لا يأتي ويعمل معنا؟ ويأخذ أجره مثل سائر البشر . ويشتري به ما يشاء من العنب وغيره.

وبلهجة تعليمية قال لي الحاج سليمان : والله معك حق يا بني ، إن على كل إنسان أن يكسب رزقه من عمله ، فالعمل قيمة للإنسان ، ولكن تلك هي الحياة ، وهذا الطبال إن لم نعطه سوف يسيء إلى سمعتنا و علينا مداراة سفهائنا ، فعمله هو التنقل بين الناس ومدح من يعطيه وذم من يمنعه، وإن لقوانين الحياة ثغراتها ، وجمالها بقبولها كما هي . وقال : صحيح أنتا تعطي أبا عبد الله الطبال والكثيرين من أمثاله ولكننا لا نحترمهم ، ولا نتمنى أن يكون أيٌّ من أولادنا وأقربائنا و معارفنا مثلهم .

في حمص ، دخلت الإعدادية الصناعية ، ودخل نادر القصیر الإعدادية العامة ، إذ لم تكن في الرستن إعداديات . وقد أحدثت أول إعدادية لذكور في العام التالي، فكانت الدراسة تقتصر على المرحلة الابتدائية .

وبحسب غير الرستن ، الإنارة الدائمة، الماء في كل الدور ، الدور ذات طوابق يعلو بعضها بعضاً، الرجال يرتدون البنطال ، هذا أمر غير معتاد في الرستن حتى والدي .. هذا الرجل الذي وصفت ما وصفت فيه ، لا يزال حتى يومنا هذا يرتدي الجلابية ، والكافية البيضاء والعقال الأسود ، والمزوية السوداء شتاءً ، و البنية صيفاً ويرتدى تحت الجلابية السروال الأسود ، والقميص الداخلي الأبيض . وأحياناً كان يلبس بدلة الجلابية ، (قُباز) مفتوح من الأعلى إلى الأسفل ، ويلف خصره بالشال الحريري الأسود .

أما ظهور رجل يرتدي بنطالاً وقميصاً ، فكان يعد عيباً في بلدنا أو ملفتاً للنظر ، إذ لا يخلو ظهوره على هذا النحو من إثارة التعليقات والانتقادات، كل هذه المحظوظات وجدناها مباحة في حمص . الرجال يرتدون البنطال ، وكذلك بعض النساء . والأغرب من ذلك ، وهذا ما لم نره في بلدنا ، ظهور بعض النساء من فتيات حمص

سافرات بلا غطاء للرأس، يا للهول ! هذا لم نره من قبل ، إنها أجواء المدينة وشراحتها المختلفة والمتباعدة .

كانت العادة أن يستأجر التلميذ الريفي سكنًا له في حمص ، وبسبب صغر سن التلاميذ كان يلجأ كل اثنين أو ثلاثة تلاميذ إلى استئجار غرفة ، فذلك آمن للتلميذ ، إذ يكون مع رفاته من أهله ، أو جيرانه ، فيكونون يداً واحدة في هذا المجتمع الجديد . كنا ثلاثة نستأجر غرفة في دارٍ نعيش فيها مع أصحاب هذه الدار ، غرفة من دار مسكونة . وكانت الأجرة تتراوح ما بين عشر ليرات إلى عشرين ليرة ، كنا نتقاسماها بالتساوي . ومن الإجراءات الأخرى أن يكون سكن التلاميذ الوافدين الجدد في هذا المسكن في المدينة مع طالب أكبر منهم سناً ، ليوجههم ويعتنى بهم . فطالب الصف السابع أو الثامن ، يجب أن يسكن مع طالب من الثانوي ، العاشر أو الحادي عشر . كان هؤلاء الكبار يمارسون شتى ألوان القهر والسلطوية على الطالب الصغار ، بدءً من الخدمة إلى المنع ، والتهديد بالعقاب عند الرجوع إلى البلدة من قبل الأهل ، وكان التلاميذ الصغار يحسبون لهم ألف حساب ، ويحملون تهديداً لهم على محمل الجد ويتدمرن ، ولكن ما الفائدة ، إنها الظروف ، وعليهم أن يتحملوا ، إذ لا بديل . في غرفتين بشارع الخندق بحي باب هود ، سكنت مع كل من خالي إبراهيم الشيخ علي الذي كان طالباً في الصف الثالث الثانوي ، وأصبح فيما بعد ضابطاً في الجيش العربي السوري ، والسيد أحمد مصطفى (ثرثُوكو) فرزات ، الذي كان في الصف الثاني الثانوي وعمل فيما بعد في المصرف الزراعي بالرستن .

وسليمان عبد خطيب الذي توفي في مقتبل العمر ، ومحمد مصطفى فرزات الملقب (بالحَبُوب) والذي توفي في مطلع القرن الحادي والعشرين - رحمهما الله - وكان الحبوب قد عمل في الجيش العربي السوري . وأحمد يوسف الحسين والذي ما يزال يعمل معلماً في مدارس مدينة الرستن . كان الانتقال من حمص إلى الرستن ، أو العكس يتم بواسطة البوسطة . وهي سيارة نقل الركاب الوحيدة في الرستن .

كانت البوسطة سيارة كبيرة بحجم الباص ، لها صندوق كصندوق الباص ، وفي مقدمتها رأس يتقدم عن جسم الصندوق إلى ما يعادل ثلث المسافة أو يزيد ، وفي هذا الرأس يوجد محرك السيارة ، وما يتبع للمحرك ، وكرسي منفرد في مقدمة البوسطة هو مقعد السائق .

وكانت سرعة هذه البوسطة لا تزيد على أربعين كيلومتر في الساعة ، فالذاهب من حمص إلى الرستن يمضي زمناً لا يقل عن الساعة في الوصول إلى حمص بالبوسطة والسبب في ذلك يرجع إلى سرعة البوسطة التي كانت عتيقة قديمة ، فمنظرها يرثى له ومقاعدها منها ما تمزق ، ومنها المتماسك ويوشك أن يتمزق ، ونواخذها ببلور أوبدون بلور ، يضاف إلى ذلك وعورة الطريق المملوء بالحفر التي تمتلئ بالماء في أيام الشتاء ، فالرحلة من حمص إلى الرستن تستغرق زمناً لا بأس به ، والوقوف المتكرر بعرض صعود ونزول الركاب .

حرمنا أمتتنا وامتطينا البوسطة ، وسافرنا إلى حمص بهذه البوسطة المعروفة والوحيدة في الرستن .

كنا نغادر حمص في كل خميس بعيد الظهر بقليل ، عند انتهاء فترة الدراسة ، فنأخذ أمتتنا وثيابنا المتتسخة المحتاجة إلى تنظيف ، وسلة القصب (القرطل) التي كانت تصاحبنا في الذهاب ، والإياب ، ونعود بالبوسطة إلى الرستن . وباعتبار أن عدد الركاب هو الذي يتحكم في زمن انطلاق البوسطة ، فغالباً ما كان نصل الرستن مع غروب الشمس ، أو قبيل الغروب بقليل .

كنا نقضي ليل الجمعة في الرستن بين الأهل والأصحاب ، يسألوننا - ونحن النخبة المثقفة - عن أحوال الدراسة والمتتفوقين ، ويحتفون بنا احتفاءً يبعث في النفس الرضى يحلق بنا إلى سماوات وسماءات ، وكان ذلك حافزاً لي على مواصلة الجد والتحصيل فأنا موضع ثقة والدي الجاد الحازم في كل قراراته وأفعاله ، ويسألوننا عن أحوالنا في المدينة ، وعن أوضاعنا مع الطلاب الأوصياء علينا ، ويطلبون منا طاعتهم ، فهم كبار وعلينا أن نسمع لما يقولون ، هم مجرّبون ، ونحن ما نزال صغراً

بحاجة إليهم و كنا نسمع ذلك، و نمتعض أشد الامتعاض لهذه الوصايا ، ولا سيما ما يتعلق بالأوصياء .

وبعد أن نقضى ليل الجمعة و معظم يومها، كنا نستعد للإياب إلى حمص مساءً لنكون مرتاحين صباح يوم السبت ، لبدء الأسبوع الدراسي . مصطحبين معنا أمتعتنا . كانت أمتعتنا بسيطة ، و سلة القصب ملازمةً لنا في سفرنا ، كنا نضع في هذه السلة زادنا لنصف الأسبوع الدراسي ، من طعام مطبوخ ، وما شابه ذلك ، وما يلزم لكمال الأسبوع من الأطعمة الجافة و الخبز . و كنا نبدأ - في الأيام الأولى - بتناول الطعام الجاهز الذي جئنا به من الرستن قبل أن يتعرض للفساد ، فإذا ما انتهينا من الطعام الجاهز ، لجأنا إلى تحضير طعامنا، وهو على الغالب (المُجَدَّرة) والبرغل والبيض . أمتعنا الثابتة التي نذهب بها مرة واحدة في بداية العام هي أثاث الغرفة المستأجرة .

كان كل واحد منا له متعاه ، وهو عبارة عن فراش ، و لحاف من الصوف ، و حصيرة من القش ووسادة (مخدة) ، و كنا نشتري بشكل مشترك مدفأة تعمل على المازوت تصلح لشتاء واحد .

كانت تفرض الحصيرة في الجزء المخصص لنزيل الغرفة ، يضع فوقها فراشه ، و لحافه و وسادته وكان لكل واحد منا مكان مخصص لا يكاد يتعداه إلى جواره ، فالغرفة مقسمة بالتساوي بين نزلائها ، ولكل واحد منا حيزٌ منها ، سيفرش عليه فراشه في الليل و يلتحف لحافه .

فإذا كان الصباح ، جمعنا الفرشات و اللحف ، و وضعناها إلى جانب الحائط ، وكل واحد منا يفعل ذلك بما يخصه ، علماً بأن الفراش كان يستخدم أيضاً كمكواة ، نضع البنطال تحته مساءً ، و نجده صباحاً .. وقد أصبح مكواة ، ولائقاً بأمثالنا .

و شيناً فشيئاً بدأت مطالبنا تزداد ، و نوعية طعامنا تتغير ، أما الأشياء الثابتة في غرفتنا المستأجرة والتي أحضرناها من الرستن ، فهي عبارة عن قدر صغير لطبخ البرغل ، أو المجددة ، وهو على الأغلب من النحاس و صحن ، و ملعقة ، و هما كذلك من

النحاس، ولكل واحد منا كأس من البليور لشرب الشاي، وإبريق مشترك لتحضيره، وموقد مشترك لطبخ الطعام وتحضير الشاي . كان هذا الموقد يعمل بالكيروسين، وكنا نسميه (بابور كاز)، يعمل بواسطة الدفع والحقن من جنبه .

بابور الكيروسين هو عبارة عن حاصل نحاسي (خزان) دائري الشكل ، يوضع فيه الكاز وقد زود بفتحة من جنبه العلوي ، مسننة ، تسمح له بالتزويد بالوقود ، ويحكم إغلاقها بسدة مخصصة لذلك ، وبجانب هذه السدة مفتاح صغير ، يسمح بخروج الهواء ، من أجل عدم حبس الضغط داخل الخزان أو التخفيف منه حسب الحاجة . وإلى جنبه ذراع من النحاس ، مزود بضاغط من الجلد ، فإذا ضغطت عدة ضغطات خرج الكاز من الأعلى ، من رأس الموقد . كان الرأس له وعاء على شكل دائرة ، تحيط بثقب تصل بخزان الكاز عن طريق عمود ، يصل بين الرأس والخزان ، فعندما تمتلئ الدائرة الصغيرة المفرغة بالказ ، يتم إشعال الكاز في الرأس ، أي في الدائرة . هذا الاشتعال يؤدي بدوره إلى تحويل الكاز إلى بخار مشتعل ، ويمكن مضاعفة النار في هذا الموقد بزيادة الحقن بالذراع السفلية ، وتخفيضه عن طريق المسamar المثبت بجانب السدة الجانبية .

كان يحدث هديراً كهدير القطار عندما يشتعل ، وكنا نسمى القطار بالبابور ، ولذلك سمي موقد الكيروسين الكاز (البابور) . فإذا ما انتهى الطبخ أو غلي الشاي ما علينا إلا أن نفتح المسamar الجانبي لتلاشي النار الصاعدة ، ويبطل الهدير ، ويتوقف عن العمل . كان هذا دأبنا في تلك الفترة ، فلا غاز ، ولا بوتوغازات ، ولا ميكروويف ، وتلك حال البيوت حتى في المدينة في تلك الأيام ، فما بالك بالريف ، وببلدة الرستن . فمن تهيأ له بابور الكاز فتلك مدنية، وإنما ، فكل شيء يُحضر على المُوقدة التي كانت تقاد أن تكون ركناً من أركان الدور ، يصنع عليها الطعام ، وغالباً ما تكون بجانب التنور ، ويغلى عليها الشاي وهذه الموقدة تصنع من الحجر والطين ، وتؤخذ بالحطب الذي لا تخلو منه دار من دور الرستن فوجود موقد الكاز كان حضارة بالنسبة لنا ، سواءً في المدينة أو الريف .

أما المدفأة فكنا نشتري لها المازوت و في فترات البرد من أيام الشتاء كنا نأخذ حوجلة (طاسة) المدفأة ، و نملؤها بالمازوت من أحد الحوانيت المجاورة . ويُوزَع ثمن المازوت على الطالب المستأجرين بالتساوي ، وكنا نشعّلها بمقدار ، خشية الإسراف والتلفيس . أشياؤنا كانت بسيطة كبساطة الحياة في تلك الأيام .

أما لباس أهل المدينة كما ذكرت سابقاً ، فهو يتراوح بين الحجاب والسفور . فهناك المحجبات اللواتي لا تكاد ترى منهن شيئاً ولا حتى أصابع اليد وهن يرتدين الملابس السوداء ، يلتفنن بها من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين ، وقد وضعن على وجوههن غطاء لا يسمح لأحد برؤيتها ، دون أن يمنعهن من رؤية الطريق ، ووضعن القفازات السود في أيديهن ، فأنت لا تعرف من هذه ، ولا من تلك ، حتى الرجل منهم كانت تمر بالقرب منه أخته أو أمه ، فلا يعرفها ولا يميزها من بين المحجبات . وإلى جانب ذلك في الطرف الآخر والبعيد جداً عن الحجاب ، كنت ترى النساء السافرات اللواتي لا يضعن على رؤوسهن خماراً ، ولا يرتدين الملابس السوداء ، والأغرب من ذلك رؤية الفتيات السافرات وهن يرتدبن البنطال الضيق ، أو التنانير القصيرة جداً ، وهذا ما لم يكن يُسمح به في الرستن ، فالمدينة جملة من المتناقضات ، التطرف مأثور فيها ، أما أنا فأحب الاعتدال وأعتقد أن أجمل الألوان ، هو اللون الرمادي .

أما المعاناة الحقيقية التي كنا نعانيها ونزح تحت ثقل وطأتها ، فكانت معاملة أولئك الكبار لنا ، إنها مرحلة الاستبداد ، بل هي عصر استبداد بالنسبة لنا ، لقد مارس أولئك الكبار وأعني بهم طلاب المرحلة الثانوية والتي كنا قد ألسقنا بهم ، ووضعنا تحت انتدابهم بحكم القرابة والجيرة في الرستن ، فقد مارسوا علينا شتى أنواع القهر ، والسلط ، لخدمة مصالحهم ونزاواتهم ، فهم أساتذتنا في الغرفة المستأجرة ، افعل هذا ، لا تفعل ذاك ، لماذا تأخرت ؟ أين كنت ؟ أسللة تنهال ، والتزامات تبعث على الاشمئاز ، ترك الأستاذ في المدرسة ليتلقانا موجّه في البيت . علمًا بأن هؤلاء المؤجّهين لنا ، هم بحاجة إلى من يوجّهم .

أعمى يقود بصيراً لا أبا لكم

والإنسان في تلك المرحلة من العمر مفطور على حب التسلط ، ولا سيما أن أهلانا كانوا يوصونهم بنا ، فكانوا يستخدمون ذاك عصاً يلوحون لنا بها في كل حين لنقوم برسوتهم من مخصصاتنا الأسبوعية .

كنت وزملائي الذين يمارسون علينا دور الأستاذ نشعر بالكبت والضيق من تصرفات أولئك الذين كانوا يعدون أنفسهم كباراً ، ولذلك كنا نفكر بالتخلص من هذه السيطرة المقيمة التي تحد من تصرفاتنا ، وتقيد الكثير من أفعالنا ، من دون وجه حق ، إلا أنهم كبار والأهل قد أوصوهم بنا ، خصوصاً وأنهم كانوا غير مجددين في دراستهم ، ولم يتمكن أي منهم من نيل الثانوية دون رسوب لمرة واحدة على الأقل . "حسبنا الله ونعم الوكيل" .

يا رب قائلة يوماً وقد لغبت

بعد مضي سنتين من الانتداب (الصفين السابع والثامن) ، قررنا أنا ورفافي الذين في مثل سني الانعتاق والتحرر . وبدون رفع طلبات استئناف ، ذهبنا بالاتفاق مع رفيقي عبد الرزاق سعد الدين ، ومكرم سعد الدين ، فاستأجرنا نحن الثلاثة غرفة في دار أخرى بشارع الخندق ، بحي باب هود ، وسكنها نحن الثلاثة ، وتنفسنا الصعداء . نحن ثلاثة بعمر واحد ، فلا تسلط بعد اليوم ، فليمض عهد الاستبداد إلى غير رجعة . وكان ما أردنا . كنا حينها في الصف التاسع ، الحياة أصبحت أجمل ، إنها الحرية المسئولة . وكالعصفور يخرج من القفص ، خرجنا من قفص الكبار ، لنمرح في فضاء الله الواسع كيف نشاء ، لا رقيب ، لا محاسب ، فالحمد لله على الحرية ، وسحقاً لأيام الاستبداد ، ففي الحرية المسئولة التقدم ، وفي الاستبداد التخلف .

كان انتقالنا إلى حمص في تلك الفترة من عمري - رغم أن حمص لا تبعد الكثير عن الرستن - قفزة نوعية بالنسبة لي ، فالمسافة بين حمص والرستن لا تزيد على

العشرين كيلو متراً بقليل ، ولكن حمص مدينة ، والرستن بلدة ، والبلدة ريف ، وحمص أكثر مدنية. هناك السينما ، والشوارع العريضة ، والحدائق ، والمنتزهات ، والرستن شوارعها ضيقة، عدا الطريق الدولي، لا تسمح معظم شوارعها بمرور سيارتين من مكان واحد ، كل شيء في حمص مغاير تماماً، أو بعض الشيء للرستن ، المدينة مُنارة بالكهرباء كل ساعات الليل أما الرستن فشوارعها مظلمة . إنه لفرق كبير بين المدينة والريف في العالم الثالث . المدرسة الصناعية بحمص .. تتالف الدراسة فيها من شقين : الدروس النظرية ، وهي في أربعة أيام في الأسبوع ، والدورس العملية ، وهي يومين في الأسبوع ، والمجموع ستة أيام. ومع حبي للدورس النظرية ، وتقدمي فيها تقدماً يكاد لا يناظعني أحد عليه، كنت أكره الدروس العملية ، وأميتها مقنناً شديداً ، وبزداد امتعاضي من دروس العملي وبدلته معًا ، مع أنني كنت الأول في الدروس النظرية بلا منازع ، كنت الأخير في الدروس العملية ، أو من المرشحين للرسوب بها ، وهي مادة رئيسية ومرتبة .

والحب لا يتجرأ .. حب للدورس النظرية ، ومقت للعملية . وقد اخترت مهنة الخراطة فحصل عندي الانشطار بين القسمين ، وحصل ما كنت متوقعاً .

فرغم تفوقي في الجانب النظري الذي كنت أحبه ، كنت الأخير في الجانب العملي الذي أميتها ، ولا مجال للتوفيق بين الاثنين معًا ، والنتيجة محسومة، وليس بحاجة إلى الكثير من التأويلات والاستنتاجات ، فسبب كسر التمرين معي في مادة العملي في امتحانات شهادة الدراسة الإعدادية الصناعية رسبت في الصف التاسع .

نعم رسبت !!

كان حدثاً مدوياً بالنسبة لي ، ولأهل الذين يعقدون على محمود الأمل ، والأعجب من ذلك أن الطالب محمود الراسب في الصف التاسع .. والذي كنته ، قد حاز على أعلى مجموع من العلامات في امتحان الشهادة الإعدادية الصناعية ، ولكنه رسب ، والسبب في ذلك مادة العملي . الحقيقة أنني لم أستطع التكيف مع الدروس العملية ، ولم أستسغها في يوم من الأيام، رغم محاولي إقناع نفسي بضرورة محبتها ،

والحب لا يباع ، ولا يهدى ، فهو قناعة وانسجام ، ولست مقتنعاً بها ، ولا منسجماً معها ، وما كان بمقدوري أن أتلاعماً معها ، ولو بدت لي في لباس حوريات الجنة الموعودة للمؤمنين .

نعم كانت لدى قناعة أنني لم أخلق للمهنة ، وإنما خلقت للعمل الفكري والقيادي . فعلني أن أعمل الفكر ، لأنّ التخلص من هذا الكابوس المقيت ، فلا بد من سعي ودأب واتخاذ قرارات مصيرية . لقد كان وجودي في الإعدادية الصناعية خطأ يجب إصلاحه ، وهذا الخطأ مرده إلى انتسابي إلى المدرسة الصناعية ، كون الانتساب إليها يتطلب المعدل الأعلى ، ودون معرفة حقيقة لموهبي ورغباتي وميولي .

في عام أربعة وستين ، وهو نفس العام الذي تقدمت فيه للمرة الثانية إلى امتحانات الإعدادية الصناعية ونجحت فيها ، في نفس هذا العام تقدمت بطلب إلى امتحان الشهادة الإعدادية العامة (أحرار) ، ولكن طلبي رفض لأنّ عمري ستة عشر عاماً ، فيجب قانونياً لمن أراد التقدم إلى امتحان الشهادة الإعدادية العامة (أحرار) ، أن يكون قد بلغ السابعة عشرة . نعم رُفض الطلب ، وداومت في الصف الأول الثانوي الصناعي ، وحيث أنّ طلبي للتقدم إلى الإعدادية العامة (أحرار) قد قبل حينها ، فقد تقدمت إلى امتحانات الصف الأول الثانوي الصناعي وبعدها بعدها أيام إلى امتحانات الإعدادية العامة (أحرار) ونجحت بتفوق في امتحانات الإعدادية العامة (أحرار) وكذلك في الدروس النظرية للصف الأول الثانوي الصناعي ، إلا أنني رسبت فيه بسبب كسر التمرين في فحص العملي أيضاً !! . ولكنني كنت قد قررت مسبقاً أن أترك المدرسة الصناعية سواء نجحت في الصف العاشر أم رسبت ، مادام قد أتيح لي أن أتقدم إلى امتحان الشهادة الإعدادية العامة ، وهذا يُؤهلهني للالتحاق بالصف الأول الثانوي العام . وبدلًا من أن أكون في الصف الثاني الثانوي الصناعي عدت إلى الصف الأول الثانوي العام . كان ذلك بالنسبة لي كافياً جداً ، بل هو أكثر من كافي ، المهم أنني تخلصت من زِير الصناعة ومهنة الخراطة التي لم أخلق لها ، ولا لغيرها من المهن . وهنا لا بد لي من أن أجري الحساب التالي :

ربحت سنة عند دخولي الابتدائية بمساعدة من مدير المدرسة ، فكان دخولي إليها وعمرني ست سنوات ، وخسرت سنتين في المدرسة الصناعية ، والنتيجة أنني خسرت سنة من عمري في التحصيل الدراسي العادي ، خسرت سنة على كل حال ، ودخلت الصف الأول الثانوي العام .

إذاً .. صح علي مثل شاعر في بلدنا قولهم: (من طلب الزيادة وقع في الخسارة) . خسرت سنتين دراسيتين ، والسبب في ذلك غياب معرفتي لما أريد ، فما شأني والصناعة التي لم أخلق لها ، وعملاً بقول الشاعر :

إذا لم تستطع شيئاً فدعا
وحاوزه إلى ما تستطيع
حرأً تقدمت .. وهذه المرة بجهودي ، ومعتمداً على نفسي .

وبالرغم من ضيق المسافة الزمنية الفاصلة ما بين امتحان الأول الثانوي الصناعي والإعدادية العامة إلا أنني تمكنت - وبدون كثير عناء - من النجاح ، لأنتحر من الصناعة ومهنها ، وكسور تمارينها العملية . لا بل فقد حصلت على منحة دراسية خلال المرحلة الثانوية تزيد قيمتها عن مجموع نفقاتي خلال العام الدراسي . حيث كانت تمنع هذه المنحة إلى الأوائل في امتحان الشهادة الإعدادية ، على مستوى المحافظة ، وكنت في طليعتهم .

كان لا يزال - بعد انتقالي إلى التعليم الثانوي العام - يُشعّل رأسِي ، ويلهب كياني تلك الخسارة التي منيت بها ، فلا بد من عمل مميز أعض به عن خسارتي . يجب أن أعود للتفوق ، وللتتفوق أصول ، فعلي أن أبذل كل ما في وسعي ، ولا أدع الوقت يمر من دون فائدة .

أما بالنسبة لي فالعملية كانت محسومة ، بخسارة سنة بالنسبة لزملائي الذين هم في مثل سني ، يجب أن تكون تلك الخسارة الوحيدة في حياتي الدراسية ، وعلى أن لا أكررها مرة أخرى . ومن هنا بدأ الجد ، أنا اليوم في المكان الصحيح علمياً بالنسبة لي ، وقد اخترت الطريق الصحيح ، وكان ذلك صواباً . لم يعد للثانوية الصناعية الميزات التي كانت لها من قبل ، فليس لحاملها الحق في الانساب إلى جميع

الفروع في الجامعات السورية كما كان من قبل أيام دولة الجمهورية العربية المتحدة.

في الصف الأول الثانوي العام ، في ثانوية الفارابي ، وتشاء الظروف أن تكون في نفس مبني القسم النظري للمدرسة الصناعية.

بدأتُ صفحة جديدة من حياتي ، فيها تفاؤل وتطلع إلى الأفضل ، فعدت مرة أخرى إلى التفوق ، والنجاح كسابق عهدي فيما مضى من سني الدراسة الأولى ، فيجب أن أكون الأول كما كنت سابقاً .

لقد كانت طموحاتي عظيمة تهزمي إلى حد الغرور ، فإذا تذكرت تلك الخسارة ازدادت تيقظاً وعملاً .

ومرة أخرى ظهر تفوقي من جديد ، لا على مستوى ثانوية الفارابي فحسب بل على مستوى ثانويات مدينة حمص كلها ، فأنا من الطلبة الأوائل في حمص هكذا قال لي مدير الثانوية .

من أساتذتي في الصف العاشر ما أزال أذكر مدرس التربية الإسلامية الأستاذ يحيى شربك الذي كان مثالاً للرجل المستقيم الوفي لمهمته ، ذو الأخلاق الإسلامية النبيلة المتواضعة وكان شديد التأثير في طلابه .

أما الأستاذ يحيى الترجمان فكان مدرساً للعلوم الاجتماعية ، وقد كان مميزاً في كل شيء ، بلباسه الأنثique ، بقصة شعره الأبيض ، كان هندامه الأنثique يشدنا إليه إلى جانب ما كان فيه من دماثة أخلاق ، وأريحية ، وهيبة ، وقار .

الحقيقة أن الأستاذ يحيى الترجمان لم يكن مدرساً فحسب ، بل كان محاضراً موسوعياً ذو ثقافة مميزة ، أحاط بعلوم التاريخ والمجتمع إحاطة لا يستهان بها . كان مميزاً بسعة إطلاعه ، ونقده للمؤسسة الأممية التي يسمونها (مجلس الأمن الدولي) حيث لم يمنعه - وهو الخبر الواعي - أن يفضي بسر هذه المؤسسة ، والتي لا تعمل إلا لصالح الدول القوية التي أشتتها ، بعد الحرب العالمية الثانية ، والتي لم تكن في يوم من الأيام في صالح الشعوب الضعيفة والمقهورة ، فهي كالعصا يلوح بها الأقوباء

من الأمم لإرهاب الدول الصغيرة التي لا حول لها ولا قوة ، إلا الرضوخ لقرارات هذه المؤسسة .

والحقيقة أن قرارات هذه المؤسسة الأممية ، هي قرارات تلك الدول القوية التي أنشأتها وكان يضرب لنا مثلاً على ذلك ، فيقول لطلابه : تصوروا أن فورموزا ، والتي أصبح اسمها لاحقاً تايوان ، هذه الدولة التي لا يتجاوز سكانها بضعة ملايين ، تحتل مقعداً دائماً في مجلس الأمن الدولي ، نيابة عن الصين الذي يتجاوز عدد سكانها المليار نسمة .

كنا حينها نشعر بمدى الظلم اللاحق بالشعوب الضعيفة من هذه المؤسسة . وكانت دروس الأستاذ الترجمان محاضرات توعية وإعداد ثقافي وفكري يساري النزعة .

الصف العاشر العام كان عاماً دراسياً مميزاً بالنسبة لي ، كان المركز الثقافي بحمص قريباً من بيتنا ، وكنت بعيداً الانهاء من الدراسة وتناول الغذاء ، لأنني غداةي الروحي المميز . إنه المركز الثقافي الذي حوى كتاباً هي حاجة إلى من يقرأها ، كنت (زبوناً) مداوماً في المركز الثقافي كل يوم ، وكنت أرى أن علي أن أتهم هذه الكتب بكل ما فيها يجب أن أقرأ ، أن أتشقق ، كنت قارئاً نهماً ، آخر من يغادر المركز الثقافي ليلاً ، آخر الخارجين من المركز لتعلق الأبواب من بعده .

بعد أن أنهى واجباتي المدرسية أداوم في المركز الثقافي ، كنت أطالع الكتب في مختلف الاختصاصات والاتجاهات . الكتب السياسية ، الكتب الفلسفية ، كتب سارتر وديكارت ، الكتب التاريخية ، الكتب الدينية وفي طبعتها موسوعة إحياء علوم الدين للغزالي . لم أدخل من هذه الكتب شيئاً إلا وقرأه ، فبعضها ما كنت أفهمه ، وبعضها كنت غير قادر على استيعابه . إلا أن ذلك لم يعني من متابعة التحصيل الثقافي ، فكان عندي أن على كل طالب ، أو متعلم أن يقرأ ، أن يتثقف ، ولا تكفي الثقافة .. بأن يطلع المتعلّم على بعض الكتب دون سواها . بل كنتأشعر بأن زاماً علياً أن أقرأ كل الكتب الموجودة في المركز الثقافي قبل أن أنهي دراستي الثانوية .

حمص على صغرها ، بهرتني أضواؤها ، فقد اجتمعت فيها كل المتناقضات ، من بساطة الريف إلى تعقيدات المدينة . فالرجال : منهم من يرتدي الزي التقليدي الريفي الجلابية والكوفية والعقال ، ومنهم من يرتدي القنباز ، وهو الثوب ذو الفتحة الكبيرة أو الثوب ذو الفتحتين الذي يلف على بعضه ، وفي وسط الرجل شملة سوداء ، ويضع على رأسه طربوشًا أحمر ، ومنهم من يرتدي البنطال والمعطف . تضارب في الأزياء ، واختلاف في اللباس ، فاللباس التقليدي بالنسبة للرجال في حمص هو القنباز ذو الفتحتين ، والشملة التي تلف على الخصر لفافات متعددة ، والطربوش الأحمر ، وأما غير ذلك فهو وارد على مدينة حمص وليس من زيها التقليدي الفلكلوري المعروف .

وللنساء كذلك الزي التقليدي الفلكلوري الحمصي ، وهو : الملية السوداء والحجاب والقفازات السود . هذا لباس الحمصيات ، أما غيره فهو وارد على المدينة ، إما بفعل المدنية الجديدة ، أو بالاحتكاك مع الوافدين إليها . والحقيقة أن في كلا الزيين بالنسبة للنساء حرجٌ وضيق ، سواءً بالنسبة للمحجبات أو السافرات ، وكلاهما يشير الضيق والحرج لهذه أو لتلك .

مع إجراء مقارنة بسيطة ما بين زي النساء في حمص والرستن ، يتضح الفرق بينهما . الزي الرستناوي كان مريحاً لعدة أسباب ، فمن عادة أهل الرستن أن يسمروا عند بعضهم وهذا يكون والبيت فيه رجال ونساء يسمرون معًا ، فوضع المرأة في البيت بوجود الضيوف لا يسبب لها الحرج ، وذلك أن لباس نساء الرستن التقليدي يسمح لهن بحرية الحركة في القيام والجلوس وتأدية بعض الأعمال ، كإحضار الشاي والطعام ، فهن في لباسهن هذا في الطريق وفي البيت . أما المرأة الحمصية إذا دخلت المنزل خلعت الملية ، وعلى الضيف الداخل إلى المنزل أن ينتظر حتى تختبئ النسوة ، وهي لا تستطيع الجلوس مع الرجال في بيت واحد ، لأن لباسها لا يسمح لها بحرية الحركة ، وكلا الأمرين - الملية أو السفور - فيه ما فيه ، وللناس فيما يعشقون مذاهب ، ومذاهب اللباس لها تأثيراتٌ عديدة ليس المجال لذكرها الآن .

في حمص رأينا النساء السافرات لأول مرة ، يسرن في الشارع ، يرحن ويعدين ، وقد نثرن شعورهن ، متبرجات ، بدون غطاء للرأس ، ورأينا النساء يرتدين القميص والبنطال والتنانير القصيرة ، والتي يسمونها (الفساتين) ، وهي ثوب لا يتعدى الركبة . وكان عندنا شيئاً محظوراً، بل محرماً ، وكنا نعجب لذلك أشد العجب .

في حمص دور للسينما يذهب إليها الفتى والفتيات ، في الليل والنهار ، الرستن ليس فيها دور للسينما .

كانت سينما الأوبرا هي السينما الأكثر شعبية في حمص ، كونها تعرض الأفلام العربية ، أما سينما حمص فكانت تعرض الأفلام الأجنبية ، وسر بطاقة الدخول لأي منهما يتراوح بين الخمسين والمئة قرش سوري ، أما سينما الفردوس والفاروق فكانتا تعرضان أفلاماً للشبيبة وبأسعار أقل ، وطبعاً كان هناك العديد من دور السينما نذكر منها : سينما القاهرة وستاركو والحرية والأمير الخ .

وكنت غالباً من رواد سينما حمص عندما تعرض أفلام رعاة البقر (كاو بوي) مثل فيلم من أجل حفنة من الدولارات ، والأفلام الحرية الوثائقية ، مثل فيلم أطول يوم في التاريخ والأفلام الاجتماعية السياسية ، مثل الفيلم المصري القاهرة ثلاثة ، وكذلك فيلم الأرض .

ومرةً وبناءً على رغبة زملائي من المعجبين بالمطربي عبد الحليم حافظ ، فقد حضرت في سينما الأوبرا فيلماً اسمه (أبي فوق الشجرة) وقد كان موضوع الفيلم قبلات عبد الحليم حافظ للممثلة نادية لطفي . وقد كان شديد التأثير بنا نحن المراهقين . وتکفيراً عن مشاهدتي لهذا الفيلم ، ألممت زملائي بحضور فيلم لمطرب المفضل محمد عبد الوهاب ، وقد كانت مقدمته أغنية وطني حبيبي الوطن الأكبر . كنا نذهب إلى السينما بمعدل مرة واحدة في الشهر ، وكان الأمر بداية يحدث في الخفاء وفي غفلة الرقباء من الكبار الذين كانوا أوصياء علينا بحكم القرابة ، والجيرة ، والسكن في بيت واحد في المدينة ، أما حين أصبحنا في المرحلة الثانوية ، فقد كانت فترة تحرر وانتعاق .

أصبحنا ندخل السينما علانية ، أما عندما كانت سينما الأوبرا تقدم حفلة خاصة للنساء وكان هذا يحدث مرة في الأسبوع بعْد الظهر ، فقد كان معظم زملائي الطلاب ينتظرون خارج السينما ، عند خروج الفتيات ، يمتعون النظر برؤيهن يرتدبن البنطال والقميص ، وشعرهن يتبدى على أكتافهن ، وعلى شفاههن أحمر الشفاه . وكان كل منهم يتوهם ما يشاء ، فيسرح مع وهمه في الخيال كيف يشاء ، عملاً بقول الشاعر :

إني امْرُؤٌ مَغْرُمٌ بِالْحَسْنِ أَتَبْعُهُ
لَا هُمْ لِي فِيهِ إِلَّا مُتْعَةُ النَّظَرِ
فَلِيَنْظُرُوا مَا شَاؤُوا . هَذَا كَانَ دَأْبُ مُعَظَّمِ الشَّابِ الرِّيفِيِّ .. مِنْ زَمَلَائِيِّ .

في الثامن والعشرين من أيلول لعام واحد وستين وتسعمائة وألف ، حصلت الكارثة وتحطممت الآمال ، وانهارت الأمانة ، وتهافت الأحلام التي كنا نحلمها. إنها الكارثة ، فقد كنا نرى في الوحدة بداية بناء الأمة ، فحصل ما لم يكن بالحسبان حصل الانفصال ، وتمزقت الوحدة بين مصر وسوريا ، هذا الوليد الجديد مات طفلاً حتى قبل أن يبلغ سن الشباب .

كان وقع الحدث على نفسي - ونفوس معظم الشباب في المدرسة وخارجها - صاعقاً مدوياً، كنت حينها في الصف الثاني الإعدادي الصناعي . أخذت المسيرات والمظاهرات تندد بالانفصال ، وتدعوا إلى إعادة الوحدة ، ولكن هذا لم يكن ليُحْدِثَ أثراً يذكر ، فقد صُمِّمت آذان رجالات الانفصال عن سماع هذه الدعوات فهي مجرد أصوات ، وصيحات ينقلها الهواء ، ليوزعها ، وتلاشى في الهواء.

فَالصَّوْتُ إِنْ لَمْ يُلْقَ أَذْنًا
ضَاعَ فِي صَمْتِ الْأَفْقَادِ

كانت الطرقات في حمص تغص بالمظاهرات والمسيرات الغاضبة ، تحمل علم الوحدة وصور عبد الناصر ، ويتعالى الصراخ ، ويندد الخطباء بالانفصال ويشتمونه ، ويدعون إلى إعادة الوحدة .

كان طلاب المدارس ينظمون المسيرات ، وغاية بعضهم .. لم تكن نظيفة ، أو بداعي قومي عربي ، فكان لا هم لهم من هذه المسيرات إلا تعطيل الدروس التي كانوا يفلحون في تعطيلها ، والتخلص من الواجبات المدرسية ، فما هي إلا مسيرة ساعة ، ومن ثم يقفون ويتجمرون ثم يتفرقون إلى حيث يرغبون ، ليكون موقفهم أمام أهلهم سليماً، فلا عتاب .

إنها المسيرات ، ويكونون قد ضمنوا أن لا تدرس في هذا اليوم ، وكان هذا المشهد يتكرر في كل يوم ، وفي الأيام اللاحقة ، فنحن خاسرون على كل حال ، خسنا الوحدة ، وضع الأمل ، وهانحن الآن نخسر الدراسة والتحصيل العلمي .

ضاعت الوحدة ، وكادت الدراسة تضيع ، ولم يبق من الوحدة إلا الحسرة ، والذكريات . في أحد تلك الأيام تم إقامة مهرجان خطابي كبير في المدرسة الصناعية ، تضامناً مع إعادة الوحدة ورفض الانفصال ، وكان الدم الوحدوي يغلي في عروقي ، وأكاد أتميز من شدة الغضب ، وقفت مع الطلاب الذين اصطفوا لسماع كلمات الإدارة ، وبعض المدعويين من خارج المدرسة ، وحضر المدعوهون ، ولم أتمالك نفسي ، فصعدت المنصة . وقبل أن يبدأ عريف الحفل بتقديم كلمات المتكلمين في المهرجان ، أخذت الميكروفون وألقيت خطاباً ارتجاليّاً . كان خطاباً مميزاً قابله الطلاب والمدرسوون بالهتاف والتصفيق . كان هذا دافعاً لي على عظم المسؤولية التي أضطلع بها ، فقد كنت أشعر بعظمته الحدث الجلل الذي أصاب الأمة في صميمها ، وكان دافعاً لي لأكون أكثر اتزاناً وسوية في الأداء المميز في القادم من الأيام . وهكذا أصبحت من المدعوهين المنتظمين لقاء كلمة في كل مهرجان و المناسبة .

طُويتْ صفحة أول وحدة عربية بعد ساينكس - بيكون ، لتأتي الأيام اللاحقة وتثبت أن العرب في جميع أقطارهم بحاجة إلى الوحدة للدفاع عما تبقى من مصالحهم وجودهم ، ولكن القوى المؤثرة داخل وخارج البلدان العربية ، والتي تتضرر قيمها ومصالحها بقيام الوحدة عملت دائمًا على إجهاض المشاريع الوحدوية .

إلا أن غالبية الجماهير العربية وبحسٍ عفوي كانت ترى أن الوحدة العربية لم تتحقق في يوم من الأيام إلا وكان الإسلام مضمونها وشعاراتها . وأن أي وحدة لا تكون قيمها ومثلها قيم و مثل الإسلام لا بد وأن تؤول إلى السقوط ، نعم فقد انتبهت الجماهير العربية إلى أن قيام أي وحدة عربية بمضامين مناقضة للإسلام ، هي إثبات لاستحالة ديمومتها .

مرحلة الدراسة الثانوية بحمص كانت فترة نضوج فكري بالنسبة لي ، لقد كنت مداوماً لا أكاد أتغيب عن الحضور معظم الأيام إلى مكتبة المركز الثقافي بحمص ، وإذا نظرت إلى رفوف المركز التي امتلأت بأصناف وأصناف من الكتب هي أشهى عندي من عنب الصيف وتنينه ورمانه ، بل هي أشهى عندي من كل معريات الحياة وملذاتها . كنت أرى فيها غذائي الذي أنا ب أمس الحاجة إليه لترميم بنائي الثقافي . عكفت فترة طويلة في المركز على دراسة كتب التاريخ ، لا سيما تلك التي تتعلق بحروب الفرنجة التي شنها الغرب على البلاد العربية باسم الدين لتحرير المقدسات المسيحية من هيمنة العرب المسلمين ، وقد تبين لي عدم صحة ذلك ، وأن المسألة وما فيها هي ترجمة لقوة الفرنجة وضعف المسلمين بشكل عام ، والعرب بشكل خاص ، ودائماً القوة تبحث عن منافذ لتعبر عن نفسها ، وتترجم رغبات مالكيها وأهدافهم ، وهكذا يكتب التاريخ السياسي للشعوب ، كما هو للأفراد .

وقد أثرت مطالعاتي الكثيرة على أفكاري ، فقد كانت مواضع التعبير التي أكتبها كوظيفة أكلف بها مع زملائي من الطلاب في المدرسة الثانوية . كانت موضوعاتي تقاد تكون كتيبات صغيرة ، فهي مساعدة أشبه ما تكون بالمحاضرات ، تبلغ العديد من الصفحات ، حتى أن أحد مدرسي اللغة العربية قال لي مرّة : ليس كل ما يُعرف يُقال يا محمود .

فإذا علمت أن موضوع التعبير - كما هو معروف - لا يتجاوز الصفحة أو يكاد ، فإن موضوعي الإنساني هو محاضرة تروق للمثقف المطلّع .

كانت تغلب على إنشائياتي النبرة الخطابية المؤثرة ، متأثراً بما حصلتُه من معارف من تلك المطالعات المستمرة ، فقد غلت على كتاباتي لهجة الوعظ والإرشاد . في الحقيقة لم تكن تلك موضوعات إنشاء ، بل كانت مطولات أشبه ما تكون بالكتيبات الصغيرة ، غلت عليها آراء بعض المفكرين ، وتحليلات فيها نظرتي للواقع ، وحلول لمشكلات تعاني منها الأمة والإنسانية ، إلا أن ما يُضعفُ موضوعاتي أنني كنت أستشهدُ فيها بالنتائج بدءاً من ابن خلدون إلى محمد الغزالى ، إلى ماركس ولينين ، إلى سارتر .. الخ .

من خلال دراستي ، واتجاه تفكيري ، وما توصلت إليه من خبرتي على الصعيد القومى في المرحلة الثانوية ، كان قد ترسخ لدى إيمان بالتشابك ما بين النظرة القومية والدين الإسلامى . ورأيت فيهما توأمين لا أكاد أفضل هذا عن ذاك ، فالإسلام هو ثقافة العرب وهو معلمهم ، والأمم تنقض أو تنهار حسب هويتها الثقافية التي تعتمدها ، ولا ذكر للعرب قبل الإسلام سوى قبائل وعشائر متاحرة ، تنفذ رغبات ومصالح الشعوب القوية المعاصرة لها . لهذا كنت أنظر بالكثير من الشك لمن يحاول فصل مسألة القومية العربية عن الإسلام .

خلال دراستي في المرحلة الثانوية العامة ، تعرفت على الأستاذ روحي صافي رحمه الله كان يُدرِّس مادة الرياضيات في ثانوية الفارابي .

الأستاذ روحي صافي ذو شخصية مؤثرة ، كان شجاعاً ، كريماً ، قريباً من طلابه ، يبادر لونه الحب الذي منحهم ، كان محبوباً من معظم الطلاب .

والذي أعجبني فيه ، أنه كان قومي الهوى والميلول ، مؤمناً بأمته ، معتزًا بمضائقها المجيد . كان يرى - كما أرى - أن واقع الأمة العربية واقع مؤلم ، سببه هذه التجزئة ، وتلك الحدود الشكلية المصطنعة ، وأن لا سبيل إلى رد كرامة هذه الأمة إلا بإلغاء اتفاقيات سايكس - بيکو . فقد رأيت فيه العربي الصادق الوفي لعروبه ، في زمن

كثير فيه الغدر وتكلب الأعداء والخونة، للنيل من هذه الأمة، ولم لا؟ فهذه الأمة لا تزال تعيش في عصور الانحطاط.

كان يحب أن يقال عنه ناصرياً، إذ لطالما اقترب اسم الوحيدة في حينه بجمال عبد الناصر، الذي ترأس أول دولة عربية موحدة في العصر الحديث.

وأستطيع أن أسميه فأقول: الأستاذ روحى صافى عربى، قومي، وحدوى، مسلم، متدين العقيدة، يحب أمته ويعتز بها، و كان عمله مدرساً يجعله قريباً من عامة الناس، بعيداً عن السلطة ومصالحها و كهنوتها. لم يكن روحى صافى غنياً كما كان يشاع عنه، بل كان متوسط الحال هكذا عاش، وهكذا مات.

أعجبت به، وكيف لا؟ وقد وافق هواه هوى قدیماً عندي، فمنذ نعومة أظفارى كنت وحدوياً معادياً للتجزئة والتشذم.

أول بيت من بيوت حمص دخلته ضيفاً مدعواً، كان بيت الأستاذ روحى صافى، وليس السمع كالمشاهدة، لقد تبين لي أن الأستاذ روحى رجل متوسط الحال، وبدا ذلك واضحاً من مقتنيات البيت، وتطورت العلاقة بيني وبين أستاذى روحى، حتى بعد انتقالى إلى ثانوية رفيق رزق سلّوم لدراسة الحادى والثانى عشر، القسم العلمي، حتى أنه كان يفانحنى بالكثير من أسراره ومعاناته. أذكر أننى زرته في إحدى الأمسىات، فقال لي : يا محمود سمعت أن أحوال أبيك المادية جيدة فأجبته: أجل يا أستاذ فهل ، يلزمك شيء؟ قال : أريد اقتراض مبلغ مائة ليرة إن أمكن أردها له خلال شهرين ، مائة في كل شهر ، فقلت : سأحدث والدى بذلك. وعدت من حمص إلى الرستن يوم الخميس كالعادة ، وحدثت والدى برغبة مدرسي السابق الأستاذ روحى ، فأعطاني خمسمائة ليرة سورية ، قائلاً : خذها وقل له أن يعيدها كاملة أو أقساطاً متى تمكن من ذلك ، فأخذتها معتبطاً ودفعتها إلى الأستاذ روحى . كان الأستاذ روحى مهتماً بالعمل السياسي الشعبي ، فهو مرة يحب أن يدعى وحدوياً ومرة ناصرياً ، ومرة شعبياً . كان بعيداً كل البعد عن كهنوت السياسة ومصالحها و خبائها.

كان نقياً، مؤمناً بأمته، متطلعاً لبناء مجدها، مفتوناً بتاريخها، عندما كانت نواةً للدولة الإسلامية الممتدة من شرق آسيا إلى المحيط الأطلسي . كان تدينه، يبدو جلياً في أحاديثه وتصرفاته و ذلك عائدٌ إلى تربيته و انتماصه إلى آل صافي ، وهي أسرة شديدة التدين ، لكنه لم يكن متزمناً ، ولا متطرفاً ، وكان يتقنُ فن الإصغاء للآخرين ، ولا يجد حرجاً في تقبل أفكارهم حتى لو تعارضت مع أفكاره.

استمرت العلاقة بيننا إلى حين وفاته - رحمة الله - في أواخر القرن العشرين ، فقد عمل بعد تقاعده من الوظيفة مقاولاً صغيراً ، منطلاقاً من ثمن منزله الذي باعه مستأجراً بيتاً غيره. يشتري أرضاً ويبني عليها عمارة ، ثم يبيعها مستفيداً من الأرباح التي كانت تدرها عليه أحياناً مقاولاً ثالثاً.

كان الأستاذ روحى وفياً لزوجته ، فقد امتنع عن الزواج وفأه منه لها بعد موتها .
ولكنه كما بدأ حياته مستوراً ، مات مستوراً ، ومحبوباً من كل من عرفه مأسوفاً عليه
من أصحابه ، وبسبب انتمامه إلى آل صافى الأسرة المتدينة ، فقد قضى عمره يحاول
التحرر ليكون أكثر استقلالية ، ولكن ذلك كان يكلفه ما لا يطيق ، فسلطان العادات
فوق الجميع :

كانت المرحلة الثانوية علامة مميزة في حياتي الدراسية والاجتماعية ، حيث أن أسرتي بشكل عام ، ووالدي بشكل خاص ، لم يمارسا عليًّا أية ضغوط سوي الالتزام بالطريق القويم الذي نشأنا عليه ، كوننا أسرة تنتمي إلى عائلة معروفة بالاستقامة والتدين ، وباعتبار أن لا شيء يخالف ذلك في سلوكي وتصراتي ، فالأمر جيد بالنسبة للأسرة بشكل عام ولوالدي بشكل خاص ، الذي كان يراقب تصراتي عن بُعد ، وكنت أعرف أنه متعطش إليها ، فلم أخيب ظنه.

والحقيقة أنه - أطال الله عمره - لم يتدخل في تصرفاتي واختياري لهواياتي ونشاطاتي وكأنه كان يعرف أنني لن أختار إلا الصواب ، حتى عندما كنت في المدرسة الصناعية، وما لحق بي من ضياع لعامين كاملين ، وبعدها اختياري للتعليم

العام تاركاً المدرسة الصناعية. لم يتدخل في هذه المسيرة ليصوب أو ليبدي وجهة نظره ، تركني أفعل ما أريد وأعتقد جازماً أنه كان يريد ذلك ، بل يتمناه . وكان يدفعني إلى كل نشاط لا يتعارض مع قيمه ومبادئه الإسلامية، وما هو جيدٌ من عاداتنا وتقالييدنا .

في هذه الفترة من الدراسة الثانوية ، والتي كانت بالنسبة لي مرحلة نضج فكري وجسماني توسيع علاقاتي الاجتماعية بشكل مطرد ، وأصبح لي بالإضافة إلى أصدقائي ومعارفي القدامى أصدقاء ومعارف جدد ، مثل محمود بحبح ، والذي أصبح دكتوراً في علم الفيزياء ومدرساً في الجامعات السورية ، وإبراهيم يوسف أيوب ، الذي أصبح فيما بعد طبيباً ، ومحمود حسن الدالي ، والذي كان معلماً في تلك الأيام ، ثم عمل محاماً بعد تركه وظيفة التعليم وحصوله على إجازة الحقوق قبل وفاته بعدة سنوات .

كانت علاقاتي في توسيع مستمر ، وخصوصاً ضمن الرستان ، بشكل يعد في حينه مغايراً للمفاهيم العائلية السائدة فيها .

في تلك الأيام كان أصدقائي من كل غاليات الرستان ، ولم تكن علاقاتي مقتصرة على أقاربي. وباختصار شديد يمكنني القول : أنني كنت اجتماعياً نشطاً ، وهذا طبيعي ، وعلى ذلك تربيت منذ الصغر. وقتها كان يندر أن يمر يوم من الأيام لا يحصل لي فيه لقاء مع أحد الأصدقاء ، في داخل الرستان أو خارجها ، ورغم أن ذلك كان يتعارض مع واجباتي المدرسية وحبي الشديد للمطالعة ، إلا أنني كنت اعتبر دراسة الكتب المدرسية مجرد واجبات يجب أن لا تهمل ، وعلى أن أكون الأول فيها ، أما العلاقات الاجتماعية فهي ضرورية بالنسبة لي ولا يمكن أن تبدر بادرة إلا وأغتنمها ، ويكون لي اليد الطولى فيها ، وإنلا اعتبرت نفسياً مقصراً ، فالدروس المدرسية واجبات يجب أن أنجح فيها ، ولكنها لا تفي بما أريد. ولكوني الابن الأكبر في أسرتي ، فقد كنتأشعر أن عليّ مسؤوليات جسام يجب أن أضطلع

بها وكان أهلي يُسمون في روح المسؤولية ما كان منها في داخل الأسرة أو على مستوى العائلة والمدينة . وكان لدى شعور بأن مسؤولياتي ليست بهذا الحجم فقط بل هي على مستوى الوطن والأمة . وكان لدى شعور عالمي وإنساني تجاه ما يحدث في الوطن سورية، والأمة العربية، والأحداث العالمية الإنسانية .

في تلك المرحلة من حياتي وأنا طالب في الثانوية ، أذكر أنه حدث مشاجرة بين أحد أفراد آل فرزات ، وآخر من عائلة أخرى من البلدة ، فبادرتُ ودعوتُ لفيماً من الأصدقاء ، وقمنا بالوساطة لحل المشكلة بين المتخاصمين ، صحيح أنها لم نفلح في حل المشكلة، ولكن كنا نحن المبادرین موضع إجلال وإكبار من كلا الطرفين ، وسبب ذلك أن المساهمين في حل المشكلة كانوا شباباً، وهذا مخالف للمأثور في الرستن آنذاك ، إذ كان الذي يحدث عند حصول مشكلة أن يبادر إلى حلها كبار السن وأناس معروفون بحل المشاكل لم نحل المشكلة ولكن أدلينا بدلونا فاما أن تعود ملأى وإنما أن يعود بها قري ، يستفيد منها غيرنا في المستقبل.

إن لم تجئ ملأى يجيء قري بها .

وكان الخلاف الذي يقع بين اثنين من عائلتين في الرستن ، ربما يؤدي إلى جر العائلتين إلى الخصومة وإلى ما لا تحمد عقباه .

فقيام عدد من الشباب لحل خلاف بين عائلتين ، ولا سيما وأن بعض المصلحين من نفس العائلة المخاضمة ، هو أمر غير معتاد ، عملٌ فيه جدّة ، والجديد لا يلقى آذاناً مصغية عند من يجهل الجديد ، ولا سيما أن المصلحين شباب من طيبة الثانوية .

في تلك الفترة كان العالم بشكلٍ عام والعالم العربي بشكلٍ خاص ، يشهدان تحولاتٍ سياسيةً في معظم بلدانه .

صعود أنظمة ، وسقوط أنظمة ، ثورات متالية في أنحاء مختلفة من العالم حتى أصبح العالم قطبين ، القطب الشيوعي ، وتترעם روسيا ، أو ما كان يسمى الاتحاد السوفييتي . والقطب الرأسمالي ، وتترעם الولايات المتحدة الأمريكية . وكلُّ يعلم على شاكلته ويدعى الفضل له . وكنت ميالاً للاشتراكية لظنِّي أن بها ميزات تضمن

الحياة الكريمة لكل الشعوب. على حين أن الرأسمالية تعمل لصالح أصحاب الأموال، نظرة بسيطة من شاب قروي مثالي.

ازداد نشاطي ، وتوسعت علاقاتي خارج الرستن ، لتشمل الكثيرين في ريف حمص وخارجها إلا أنني لم أكن موفقاً تماماً في إقامة علاقات اجتماعية في مدينة حمص ، ولا سيما مع طلاب المدرسة الذين كنت أدرس معهم ، والسبب هو اختلاف في قشور بعض العادات .

الحقيقة أن هذا الاختلاف في الطبائع والعادات لم يكن كبيراً بين أبناء حمص والرستن ولكنه كان موجوداً على أي حال ، لكنني اكتشفت لاحقاً أن أبناء المدن الأكبر ينظرون إلى أبناء المدن الأصغر على أنهم ريفيون أيضاً ، فأبناء دمشق ينظرون إلى أبناء حمص بأنهم من الريف كما اكتشفت أن هذه النظرة موجودة بين أحياء المدينة الواحدة بل بين شوارع الحي الواحد كذلك !! وهذا يعود إلى ذهنية سلبية تبحث عن نقاط الاختلاف مع الآخرين وتضخمها وتهمل نقاط الالتفاء معهم ، وهي إحدى دلالات عصور الانحطاط .

أصدقاءي كانوا دائماً أكبر مني سناً ، وهذا ناتج عن تنشئتي منذ كنت صغيراً ، كنت أجالس الكبار ، واستمع إلى أحاديثهم بل وكنت أستمتع بسماع أحاديثهم وال الكبير يعرف ما لا يعرفه الصغير ، فهو ذو تجربة في الحياة لم يجرِها الصغير ، وكان والدي يحرص على ذلك، ويرى أن عليّ مجالستهم والاستماع إليهم والتأنب إذا كنت أجلس إليهم، وكان لا يرى ضيراً في ذلك. حيث كان والدي الحاج سليمان - حفظه الله - يشجعني على مجالسة أصدقائه والأخذ منهم وإطالة الجلوس إليهم ، ويمكنني القول أنهم أصدقاءي أيضاً .

عندما تجاوزت الطفولة وأصبحت في سن الشباب أصبح عندي شعور بأن مسؤوليتي ليست عن أسرتي فحسب، بل وإنني مسؤول عن عائلتي وعن المحيط الذي أعيش فيه ، وما يحدث فيه من جيد الفعال وسائتها ، فعليّ إصلاح الفاسد، والإشادة بالحسن،

وإبداء رأيي فيما يحدث في البلدة وخارجها ، استحساناً أو استهجاناً وتصويباً . خلال الدراسة الثانوية في مدينة حمص ، كنت متميزاً في كل شيء ، في دراستي دائمًا من الأوائل . أما من حيث نفقاتي كطالب في المرحلة الثانوية ، فقد كنتأشعر ببحبوحة من هذه الناحية ، وهذا لم يكن متوفراً للكثير من هم في مثل وضعني ، حيث أصبحت أقطن غرفةً منفردةً ، لا يشاركني فيها أحد.

كان الحاج سليمان - وفقه الله - يعطيوني ولا يسألني ، فأحوالى المادية خلال الدراسة كانت جيدة ، والسبب في ذلك أن أحوال والدي كانت جيدة لما سلف وذكرت ، كان يعطيوني دون مراجعة ، ولو أني أظن أنه كان يراقب تصرفاتي عن بعد ، ولم يكن فيها ما يدعو إلى الريبة أو الاستهجان ، أو ما يدعو إلى العتب على أو عليه من قبل الناس .

من هذه الناحية كنت متميزاً على أقراني في مصروفي ونفقاتي أثناء دراستي في حمص . كانت مرحلة حمص بالنسبة لي ، مرحلة الطموحات ، وكان لدى العديد منها ، كانت طموحات مشروعة لكن بعضها كان لا يستند إلى الواقعية ، لقد كانت طموحاتي أكبر من أن تُحد بمكان . كانت أبعد من الطموحات الوطنية أو القومية . بل كانت حينها طموحات إنسانية عالمية ، كنت منشغلاً بحوادث العالم في شرقه وغربه ، حربه وسلامه أطمح إلى مجتمع يسوده العدل والرخاء ، مجتمع خال من الظلم وتحكيم الأقوياء واضطهاد الضعفاء . ربما كانت هذه طموحاتي ، كوني أنتمي إلى شعبٍ ضعيف ، وربما كانت طموحاتي مختلفة لو كنت أنتمي إلى الشعوب القوية في تلك المرحلة من فورة الشباب . كنت أريد أن يسود العالمَ جو من الوئام والإخاء ، ويعم السلام أرجاء المعمورة ، وأن تسود علاقات المحبة بين الدول بدلاً من علاقات الحروب ، وما تجره من ويلات على الدول المتحاربة ، الرابع فيها والخاسر سيان . هذه طموحاتي في تلك المرحلة ، والتفكير بذلك لم يلهني عن دراستي ، وأعتقد أن هذه الطموحات كانت قاسماً مشتركاً بين معظم شباب تلك المرحلة ، وخصوصاً أبناء الريف .

كما ذكرت سابقاً كان والدي يمارس العديد من المهن في تلك الفترة ، منها مشاريع كان ينفذها لحساب الدولة كمتعهد. وكان لديه مخبز حديث لصناعة الخبز ، ومكبس لصناعة البلوك ، وكان كذلك يقوم بالأعمال التجارية، فقد كان تاجراً لحديد البناء والإسمنت بالرستن ، ومالكاً لسيارة شاحنة .

في صيف عام سبعين وستين أوفدني والدي إلى اللاذقية لشراء كمية من حديد البناء من مؤسسة التجارة الخارجية الحكومية ، والتي كانت تُعرف اختصاراً باسم (سيميكس) .

كنت في التاسعة عشرة من عمري، فاصطحبت معي صديقي محمود بجروح الذي كان حينها طالباً في جامعة دمشق، وكانت رحلتنا إلى اللاذقية رحلة مميزة، فقد ركينا سيارةأجرة صغيرة كان سائقها ضخم الجثة حتى لا يكاد المقعد يتسع له، طويل اللحية ، وخلال هذه الرحلة ، التي استمرت طويلاً من حمص إلى جبلة ، توقف السائق أكثر من مرة على الطريق، مرة لأنّه نعسان ، ومرة لأنّه مُتعب . كانت تصرفاته تشير عندنا القلق والريبة ، لا سيما وأنّ جيوبنا مملوقة بالنقود ، فقد كان معنا من النقود ما يربو على ثمن أربعين طن من الحديد.

كانت رحلة مميزة ، وكانت تصرفات السائق تشير فينا الهواجس والظنون ، لم نكن نخافه فقد كان عندنا من اللياقة ما يمكننا من مواجهته وغيره معه ، ولكن جيوبنا المنتفخة بالمال هي التي كانت هاجسنا وباعثة لنا على القلق ، فإننا في أي شجار نحن الخاسرون سواء ربحنا أم خسرنا المشاجرة. انطلقت السيارة بنا من حمص في عصر ذلك اليوم ، ووصلنا جبلة بُعيد منتصف الليل وكان السائق من مدينة جبلة ، وأصر على استضافتنا حتى الصباح ، وكأنه يعرف أن جيوبنا مملوقة بالنقود ، ورغم محاولاتنا ورجائنا أن يتركنا وشأننا إلا أنه لم يقبل ، ولما لم نجد مناصاً من الأمر قبلنا استضافته لنا مكرهين ، فلا حل غير ذلك .

في غرفة على سطح داره قضينا أنا وصديقي محمود بجروح ما تبقى من الليل ، كنا نتناوب النوم والحراسة ، ولم نصدق أننا في أمان وسلام ، حتى أهل علينا الفجر

وأشرق الشمس، وقام صاحب الدار بإحضار إفطار ممتاز لنا .غادرنا منزله بسيارته ، وبعد وصولنا إلى الادقية سالمين ، اكتشفنا السر الذي كان يشغل بالي أن هذا السائق ذو الجثة الضخمة والقامة الطويلة والرحلة الأطول ، والذي كانت تصرفاته في الطريق الطويل تثير الريبة والشكوك ، كان إنساناً متديناً ، ويغلب عليه التقى وقد اكتشفنا فيه رجلاً شهماً طيباً بسيطاً ، وما إصراره على استضافتنا بجبلة في بيته إلا لأنه كان يخاف علينا من اللصوص ، هذا ما اعتقدناه ، دون أن نسألة عن ذلك .

بسبب نجاحي المتألق في الشهادة الإعدادية العامة ، ودخولي الثانوية العامة ، تبدد كل ما لدى من مخاوف بسبب خسارة السنطين الدراسيتين في المدرسة الصناعية ، وكانت مسألة النجاح في الثانوية العامة بالنسبة لي مؤكدة ، فما عاد يؤلمني كثيراً الزمن الضائع مني، المهم أنني اخترت الطريق الصحيح والذي كان الضباب قد ستره عن عيني فطلعت الشمس ووضع الطريق ، وأنساني ما حفظه من تفوق تلك الخسارة التي منيت بها ، ولم أكن على مثلها معتاداً ، وعاودت مسيرة النجاح .

كنت متفوقاً بجميع المواد وناجحاً . وتقريباً بالعلامات التي كنت أرغب بها ، وأريدها باستثناء قواعد اللغة العربية وخاصة في مجال الإعراب ، حيث كانت أقل مما يجب لطالب متفوق مثلي ، والسبب في ذلك هو دراسة المرحلة الإعدادية في المدرسة الصناعية ، فقد كانت مادة اللغة العربية مُهَمَّشة ، مع ذلك كنت من المُجَدِّدين في مادة اللغة العربية وخصوصاً في مجال الشعر والإنشاء والتعبير ، فقد كانت إنشائياتي أشبه بالكتيبات ، وعلى ذكر اللغة العربية ، كنت شديد التعلق بالأدب الجاهلي والأموي أكثر من تعليقي بالعباسي والأندلسي وعصر الانحطاط والشعر الحديث .

الحقيقة أن الشعر الجاهلي كان يستهويوني بألفاظه الجزلة وتراثه المتينة ، كان شعراً مثار إعجابي، من أميرهم الملك الضليل أمرؤ القيس، إلى قتيلهم طرفة بن العبد ، إلى حكيمهم زهير بن أبي سلمى ، صاحب المقاطع القانونية :

يمين أو جلاء أو نفار

وإن الحق مقطعه ثلات

كنت أعجب بغزل امرؤ القيس ، وبراعة استهلاله في معلقته المشهورة وما عرض فيها من مواضيع مثيرة :

قطا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقوط اللوى بين الدخول فحومل

كما كنت معجباً بتلك اللوحات الفنية التي رسموها بالكلمات ، تلك اللوحات الخالدة لوصف حيوان الصحراء ، من غزال ووحش وجمل وحصان .

يستهويوني الحوار الذي دار بين عنترة فارس الشعرا وأبجره عندما نالت الحِرَاب من لبانه، وشكواه له وحرصه على تقدیمه له ، وما تحمل معه دفاعاً عن أهله، وعن نساء قومه .

كنت أستمتع بتردد تلك المقطوعات ذات الإيقاع الحربي ، وغزل الجاهليين العفيف كان يستهويي ، ويلقي في نفسي ألقاً عظيماً . لقد كنت مغرماً بقراءة دواوين الجاهليين رغم صعوبة الألفاظ و حاجتي إلى استخدام المعاجم لكشف ما يريده الشاعر، والمعنى الذي يرمي إليه .

ونظراً لأنشغالي بقراءة الكتب الثقافية التي كنت اعكف على مطالعتها بشكل يومي في المركز الثقافي بحمص ، قل اهتمامي بالسينما والمجلات الثقافية ، التي كانت الشغل الشاغل لزملائي .

بهذه المناسبة، وبينما كنت أسير في شارع السرايا بحمص وكنت في الصف الثامن وبالقرب من مبنى متحف المدينة الحالي ، شاهدت مجموعة من أصحابي (الرساتنه) الكل كانوا طلاباً في مدارس حمص ، ذكر منهم ، محمد مشهور فرزات ، وأحمد يوسف الحسين ، وأحمد نجيب الشيخ علي ، وغيرهم . وكانوا مختلفين أيدما اختلاف ، وقد وصل الخلاف بينهم حداً يوشكون فيه على الخصومة والتتشابك بالأيدي ، وحين وصلت قالوا جميعاً : نسأل محمود والرأي الذي يرجحه للتزم به ، ويكون رأيه الفيصل في هذا الخلاف ، وعندما سألتهم عن سبب الخلاف قالوا : أيهما تفضل

عبد الحليم حافظ ، أم فريد الأطرش ؟ فأجبتهم وبدون تردد : محمد عبد الوهاب ، فصمتوا جميعاً ، وكأن على رؤوسهم الطير .

كان لكل فنان مجلة فنية تعرض أغانيه وأخباره ، وكان بعد الحليم معجبين كثُر ، وكان له مدافعون عن فنه ويطرحون آراءهم في تلك المجلة .

والحقيقة: أن عبد الحليم كان غناوته أقرب إلى روح الشباب ، أما فريد الأطرش ، فكان غناوته أقرب إلى النوح والحزن ، فهو لم يختر لأنغانيه إلا الأشعار الباكية ، وبالتالي فقد كان يفضله العاشقون الانطوائيون ، إلا أن محمد عبد الوهاب كان يعجبني أكثر من الجميع . لم أكن من الذين يهتمون بسماع الأغاني لهذا المطلب أو ذاك ، ولست من الذين يقضون الوقت في سماع الأغاني ، ولكنني سمعت - كما سمع غيري - أغاني عبد الوهاب وغيره من المطربين ، ومن مثل جندول عبد الوهاب أو عندما يأتي المساء ...

لقد تركت هذه الأغاني - وقد سمعتها مصادفة - أثراً جميلاً في نفسي ، لقد كان عبد الوهاب عملاقاً في أدائه ، ساحراً للألباب ، يشدك إليه ، تُعجب بكلمات أغانيه ومعانيها وألحانها ، لا سيما اختياره للقصائد الطويلة التي كان يعنيها .

والشباب الذين لاقيت وسائلوني ، لم يكتروا في يوم من الأيام بعد عبد الوهاب ولا سمعوا له ولم يعرفوا من هو ، فكانت نظراتهم لي فيها استهجان واستغراب ، فمن عبد الوهاب هذا الذي أتحدث عنه ، وأين أنا مما هم فيه ، فكأنني برأيي هذا قد صبت الماء على النار فخدمت ، واعتبروا المسألة قد حلّت ، وإن كانوا يرون في حلي لها بعضاً من النيل منهم والسخرية كما كانوا يعتقدون .

كان صاحبي عبد الحبيب فرزات أكبر أخوه سنًا ، وكان والده الحاج قاسم رحمه الله يعلق عليه كل آماله وطموحاته . في سبيل أن يكون رجلاً يشار إليه بالبنان بين أقرانه كان يؤثره بكل الامتيازات دون سائر أخوته ، فكان مصروفه وحده أكثر منهم مجتمعين وبالرغم من قصر قامته فقد كان يرغب من كافة أقرانه وأصحابه بأن يروه طويلاً القامة لا و بل عملاً مهيباً ، كان يشجعنا على الاهتمام به والالتفاف من حوله

مكثراً من دعوتنا إلى داره حتى يظهر ولده كأنه محركتنا ووجيئنا . كانت اهتمامات عبد الحسيب مختلفة تماماً ، فلا يمكننا انتزاع شيء منه إلا بعد كل جهد جهيد ، كما نذكره دائماً بأنه وجئنا دون جدوى ولا طائل ، ولم تكن مزاميرنا تجدي أي نفع معه .

كان عبد الحسيب ، يتعلم في مدارس حمص الإعدادية الخاصة ، بسبب عدم تمكنه من النجاح في امتحانات إتمام مرحلة التعليم الابتدائي ، التي تؤهله الانتساب إلى المدارس الإعدادية الحكومية ، إلا إنه وبعد أن رسب للمرة الأولى في امتحانات شهادة الدراسة الإعدادية تمكن في السنة التي تليها من النجاح فيها ، وانتسب إلى الصف الأول الثانوي (العاشر) في المدارس الحكومية .

كان حدثاً مدوياً هزّ مشاعر والده وأهله وذويه وأصحابه . حيث أقام والده حفل غداء يليق بأهمية هذا الحدث ، دعا إليه العديد من أصحابه وزملاء ولده ، حيث حدثنا بعد الغداء بأن أمور ولده عبد الحسيب قد استقامت وأن إمكانياته ومواهبه قد بدأت في الظهور ، وأن جهوده ورعايته له لم تضع سدى ، وأن آماله التي علقها عليه كانت في مكانها ، وأن على أصحابه بشكل عام وأنا وابن عمّه محمد مشهور فرزات بشكل خاص إبراز هذه المواهب ونشرها بين أصحابه وعارفه .

وحدث ما لم يكن يتوقع أو يخطر على باله ، فقد رسب ابنه عبد الحسيب في امتحانات الصف الأول الثانوي ، كانت صدمة كبيرة له ، إذ أنه بالرغم من كثرة أولاده من الذكور والإإناث ، كان يعتبر أن لديه ولداً وحيداً ، هو مُعْقد آماله ومحط أنظاره ، كان دائماً يقارنه بابن أخيه محمد مشهور فرزات الذي كان الصبي الوحيد لأبويه ، وبالرغم من قلة مصروفه وضنك معيشته ومساعدته المستمرة لوالديه في مزرعتهم ، والمهام الأسرية الكثيرة المناطة به كان دائم النجاح وتفوق في جميع سنين دراسته ، دون أن يساعده أو يوجهه أحد .

ودعاني الحاج قاسم طالباً مساعدتي في حل مشكلة رسوب عبد الحسيب ، إذ كان كل همه منصبًا على تحسين وتلميع صورة عبد الحسيب أمام الناس بشكل عام

وأقرانه بشكل خاص. فقلت له : بالرغم من رسم عبد الحسيب في الصف العاشر يمكنه الانساب إلى الصف الحادي عشر في المدارس الخاصة بحمص ، وأنه إذا أصبح أكثر جدية يمكنه الحصول على الشهادة الثانوية العامة بعد إتمامه دراسة الصف الثالث الثانوي (الثاني عشر) في نفس المدرسة الخاصة ، حيث أن أهل الرستن لا يعرفون هذه التفاصيل والمهم هو الحصول على الشهادة الثانوية مع أقرانه. واستهوت الفكرة الحاج قاسم وبعد قليل من التفكير قال لي : ما رأيك في أن نُشيع بأن عبد الحسيب قد نجح في الصف العاشر ، خصوصاً أن المدرسة في حمص وقلة من زملائه في الرستن يعرفون الحقيقة؟ وعندما لاحظ سكوتني أضاف: سوف أقيم حفل غداء لتأكيد هذه الشائعة .

وأقيمت الغداء ، وأكل المدعون ، ثم قاموا بمصافحة عبد الحسيب و تهنئته على نجاحه مرددين " عقبال السنة الجاية " أي ندعوا الله أن يتكرر في العام القادم ماحدث في هذا العام . وكان عبد الحسيب يتميز غيظاً، وصح المثل " اللي بيعرف بيعرف ، واللي ما بيعرف بيقول كف عدس" . واستمر الحال بأصحاب عبد الحسيب من الدعوات والترحاب من قبل والده إلى أن أصبح له بيت مستقل ، ينفق عليه من أمواله وليس من أموال أبيه، فتغيرت أحوال أصحابه تماماً ، وسبحان مُغَيِّر الأحوال .

بعد نجاحي في العاشر العام ، تركت الفارابي التي كانت تضم الفرع الأدبي فقط وانتقلت إلى ثانوية رفيق رزق سلوم على طريق دمشق ، والسبب في ذلك أن هذه الثانوية كانت مخصصة للفرع العلمي .

هذه واحدة ، والثانية ثانوية عبد الحميد الزهراوي ، نعم فقط في مدينة حمص كلها ثانويتان للفرع العلمي .

كانت ثانوية رفيق رزق سلوم صرحاً تعليمياً عظيماً ، وبناءً عصرياً نموذجياً ، أحاطت بها شجيرات السرو ، جلست إلى الجنوب من حمص ، على يسار الطريق للخارج منها كالبجعة بين أشجار الحديقة، وإذا كنتَ قادماً من دمشق ، طالعتك ثوبها الجميل

على يمين الطريق. كانت صفوتها و باحاتها منسقة، وإلى شمال مبني الثانوية الصالة الرياضية المغلقة ضمن حديقة طريق الشام وهي من الحدائق المميزة في المدينة ، بأشجارها الباسقة وأرضها المفروشة بحشائش الزينة والورود والرياحين ، حيث يؤمها الزائرون رجالاً ونساءً في كل الأوقات ، وفي معظم فصول السنة في الصيف والشتاء . تفصل الحديقة بينها وبين بيوت حمص ، فهي تقوم على الطرف الجنوبي لمدينة حمص حيث لم يكن جنوب الثانوية إلا عمارتين أو ثلاث ، ولا يوجد في الغرب منها إلا القليل من البيوت ، وإلى الشرق الشمالي منها ، قامت قلعة حمص ، والتي ليست على ارتفاع كبير، ولكنها مشترفة على كل المدينة ، ومن جهاتها جميعاً .

كانت وسائل النقل القديمة قد بدأت بالانقراض ، كالعربة التي يجرها الحصان (قوشيه) وهي وسائل نقل كانت تستخدم لنقل الركاب، حيث زودت كل عربة بمقاعد للركاب ، وواقية من المطر والشمس، يجلس في مقدمتها ، حوذى يقود العربة. كانت تستخدم هذه العربة وغيرها من العربات المزينة بالألوان الزاهية لنقل الركاب من أطراف المدينة إلى وسطها والعكس ، ومع الأيام تحولت لنقل الأمتنة ، فأصبحت (طُنْبِراً) بدلاً من (قوشيه) .

ولكنها الآن انقرضت بشكل شبه تام ، وحلت محلها وسائل النقل الحديثة ، التي تقوم بنقل الخضار والفواكه من سوق الجملة إلى باعة المفرق ، بكلفة زمن أقل ، بالرغم من وجود هذه الوسائل قديمها وحديثها لم يكن ذهابنا إلى ثانوية رفيق رزق سلوم الكائنة في طرف حمص الجنوبي بحاجة إلى استخدامها ، فقد كنا نذهب إلى المدرسة سيراً على الأقدام في الذهاب والإياب ، بعد المسافة أم قربت ، وقليلًا ما نستخدم باصات النقل الداخلي ، ولذلك كان تنقلنا بين مركز مدينة حمص وأحيائها يتم بوسائلنا التقليدية، السير على الأقدام ، فقد كنا شباباً والشباب استثناء من القاعدة العامة ، ولم نكن نقيم وزناً ولا نعبأ بمسافات الطريق التي كنا نقطعها سيراً على الأقدام ، وكان الشباب - كما هو شائع بين الشباب في كل حين - يقطعون

هذه المسافات بالأحاديث ، كقصص الحب المزعومة لهم مع بعض الفتيات في المدينة أو البلدة ، و كنت اعتبر ذلك ملهاة لا جدوى منها ، بل كنت أمقت تلك الأحاديث ، واعتبرها مضيعة للوقت أي مضيعة ، فهي تشخلنا عن قضيابانا الوطنية والإنسانية والقومية !

والشباب لم يخلق لذلك ، بل للجد والعمل والكافح ، فليس في حياتنا هذا الفراغ الذي نملؤه بهذه السخافات ، فنحن وُلِدْنَا في مرحلة استثنائية تتطلب منا العمل والدراسة علينا أن نغير هذا الواقع الذي نعيشه ، وان لا نقنع بالكلام الفارغ ، وأحاديث لا نجني منها منفعة وليس لها مردود يذكر . كنت أحب الشباب المثالي الطامح ، الشباب الذي لا يرضي بالواقع ، بل يسعى لتغييره عملاً بقول القائل :

شباب قبح لا خير فيه وبورك بالشباب الطامحين

أما القناعة وقولهم (القناعة كنز لا يفنى) فليس هنا مجالها، ولا من أجل هذا قيلت وكتبـت، لذلك كنت ترانـي شـديد الأـسف عـلى هـؤلاء الشـباب الـذين لا يـشعرون بالـمسؤولـية ولا يـعملـونـ الفـكرـ، ولا يـحـكمـونـ العـقـلـ، وـانـقادـواـ إـلـىـ عـواطفـهـمـ، فـشـغلـواـ أـنـفـسـهـمـ وـضـيـعـواـ وـقـتـهـمـ بـدونـ طـائـلـ . وـكـنـتـ أـرـىـ أـنـهـ لـيـجـوزـ لـطـالـبـ أـنـ يـحـصـلـ عـلـىـ الشـهـادـةـ الثـانـوـيـةـ الـعـامـةـ قـبـلـ أـنـ يـتـمـ قـرـاءـةـ مـكـتـبـةـ المـرـكـزـ الثـقـافـيـ ، فـلـاـ يـبـقـيـ مـنـهـاـ كـتـابـاـ دونـ قـرـاءـةـ ، يـلـتـهـمـهاـ كـيـفـ شـاءـ ، يـجـبـ أـنـ يـتـشـفـقـ وـلـيـسـ فـقـطـ درـاسـةـ الـكـتبـ المـدـرـسـيـةـ ، فـالـكـتبـ المـدـرـسـيـةـ وـاجـبـاتـ ، وـعـلـىـ كـلـ طـالـبـ أـنـ يـنـجـحـ فـيـهـاـ ، وـهـذـاـ أـمـرـ أقلـ مـنـ عـادـيـ ، أـمـاـ المـهـمـ فـهـوـ الثـقـافـةـ الـتـيـ لـاـ بـدـ مـنـهـ لـكـلـ طـالـبـ فـيـ الثـانـوـيـةـ .

وقد تولدت عندي قناعة بذلك أو ما يشبه القناعة ، فنحن لم نخلق عبثاً ، علينا مسؤوليات يجب الاضطلاع بها ، فعلينا أن تكون بحجم المسؤولية ، علينا تغيير هذا الواقع بعملٍ ما . نحن ذوي علم وثقافة ، فليكن علمنا وثقافتنا موجهين من أجل بناء أمة هي بأشد الحاجة إلينا .

كنت متشددأً بعض الشيء ، وحين تقدمت بي السنون وجدت أن في ملاحظاتي تلك شيء من القسوة والتطرف غير المستحب ، فقد كنت أقسوا على أصحابي بحق

وبغير حق وأشكر لهم أنهم كانوا يقبلون مني تلك التوجيهات المتعالية بعض الشيء دون أن يردوا علي مباشرة وبقاطعني كصديق ، وقد ثبت لي بمرور الأيام أن المسؤولية مقرونة بالسن وأنه لا يجوز لامرئ أن يكون مسؤولاً عن الآخرين قبل سن الرشد والنضج ، وهو زمن التكليف الحقيقي للإنسان، فالله سبحانه وتعالى ربى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم خير تربية وأعده أحسن إعداد .
قال صلى الله عليه وسلم: "أدبني ربي فأحسن تأديبِي" ولم ينزل عليه الوحي إلا في سن الأربعين ، وهو سن التكليف الإلهي الرسمي لأنبيائه صلوات الله على نبينا وعليهم أجمعين .

الآن فإني أعد أصحابي عندما كانوا شباباً ، فلهم الحق في أن يُحبوا ويعشقوا دون أن يحلوا حراماً ، فالشباب شباب ، وله ميزات لا توجد في غيره من أطوار العمر ، والشباب هو زمن الحب والطموح ، فالحب والشباب توأمان ، ولكن ما ذنبي إذا كان وجودنا في فترة مميزة فيها ما فيها من تناقضات أثرت على تصرفاتي ، فألزمت نفسي بها وعملت على إلزام أقراني بها أيضاً .

الحق أن أفكاري كانت أكبر من السن التي كنت فيها ، لذلك كنت أطلب من رفاقي الذين كانوا معي أن يعانون ما أعاني ، لكون بحجم الحدث الذي نعيشه وتعيشه الأمة فتلك مرحلة عصيبة من حياتنا ، وحياة أمتنا في تلك الأيام ، وخصوصاً أيامي في ثانوية رفيق رزق سلوم بحمص . أتممت دراسة الصف الحادي عشر بنجاح ، وكان الثاني عشر (البكالوريا) مباشرةً بعد ما سمي بنكسة سبعة وستين ، كان حدثاً جلاً على الأمة العربية ، فقد هزمت جيوشنا العربية أمام (إسرائيل) وكانت خسارة أعظم وأفده مما خسرناه من قبل ، لقد خسرنا أضعاف الأرض التي خسرناها في عام ثمانية وأربعين في نكبة فلسطين ، خسرنا الجولان ، وسيناء والضفة الغربية . وكان ما يشير غيظي إدعاء الأنظمة العربية ، بأننا قد انتصرنا كون هذه الأنظمة لم تسقط وأن الهدف من الحرب هو إسقاط الأنظمة ، وليس احتلال الأرض وتشريد سكانها ؟ .

لقد كانت كارثة حلّت بالأمة العربية من محيطها إلى خليجها ، إنها الفاجعة بحق . ورغم تأثيري الشديد بالفاجعة ، إلا أن هذا دفعني لأن أكون أكثر اجتهاداً في دراستي ، التي كانت تسير على ما يرام ، وبشكل أفضل من التوقعات ، فقد نجحت في الثانوية العامة (القسم العلمي) بمعدل يتيح لي الدخول إلى أي كلية في جامعة دمشق ، لقد حصلت على الثانوية العامة بمجموع ممتاز ، لكن بعد ثمانية سنوات في مدينة حمص ، قضيت منها خمس سنوات في المدرسة الصناعية ، وسنة في مدرسة الفارابي ، وأثنستان في مدرسة رفيق رزق سلوم ، وتنقلت في السكن من باب هود إلى عكراة إلى حي كرم الشامي إلى حي باب السبع . كانت سنوات جميلة وطويلة ، خلالها انتقلت من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب وخلالها حدثت أحداث مهمة ، فقد حدث الانفصال ... انفصال أول دولة وحدة عربية في العصر الحديث ، انفصال سورية عن مصر ، وقيام ثورة الثامن من آذار لعام ثلاثة وستين وما أدخلته من تغيرات في البنية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية بسوريا ، ومن ثم نكسة سبعة وستين وما نتج عنها من هزيمة لل الفكر القومي ورأسمالية الدولة ، وبروز التيارات الشعوبية ، وتنامي التيارات الدينية السلفية ، إضافة إلى التطرف في كل شيء وتمزق الأمة لا و بل حتى الأسرة الواحدة . إلا أن الحصول على الثانوية العامة ليس نهاية المطاف ، بل كان عندي بداية المشوار وبداية التحصيل العلمي ، فهذه اللبنة الأولى وقد أجدت بناءها ، فلا بد من إتمام البناء حتى السقف المشيد بالجص والأجر ، ليكون بناءً نموذجياً ومتكملاً .

والثانوية في حياة أي شاب منعطف رئيسي وهام ، فبعدها أو بالحصول عليها يحدد الشاب مسار مهنته ونوع العمل الذي يريد ، وفي غياب التوجيه المباشر ومن يمارس دور المرشد ، فقد كانت تصرفاتي نابعة من قناعتي الذاتية ، ولكن لاحظت رغبة أقاربي ومعظمهم يرى أن الكليات العسكرية هي الأفضل ، وسبب ذلك تلك الميزات التي يحصل عليها الذي ينتسب إلى أي منها ، ومنها أنه يعفى من الخدمة الإلزامية ، والأهم من ذلك يغدو المنتسب إليها منتجاً بين عشية وضحاها بالراتب

الشهري الممتاز الذي يتقاده أي من المنتسبين إلى الكليات العسكرية ، وهو دخل شهري لا بأس به ، فيغدو عنصراً منتجاً بعد أن قضى سنواته العشرين أو ما يقاربها ، عالة على أهله ، يرهقهم بالدفع والإتفاق وأجور السكن والمصاريف الأخرى التي ينوء بها كاهل الأهل في حال الدراسة الجامعية .

ولكن هذه الفكرة لم ترق لي ، ولم تراودني ، فما كان طموحي أن أكون عسكرياً في يوم من الأيام .

كان اهتمامي منصبأً نحو جامعة دمشق ، والآن بات الطريق إليها ممهداً من دون عقبات فذهبت إلى دمشق للالتحاق إلى كلية من كلياتها العلمية . وبطبيعتي لم أحب الطب يوماً ، فهو عندي مهنة من المهن ، وأنا أمقت المهن وأكرهها ، ولو كنت مهنياً لما كسرتْ تمرير العمل في امتحان الشهادة الإعدادية الصناعية .

فأنا لست مهنياً ناجحاً ، وكان الشعار السائد في تلك الأيام في كل مكان من الأرض العربية (بترول العرب للعرب) ، وحتى نمتلك بتروينا الذي يستخرج من أرضنا علينا أن نصنّع بتروينا ، إذَا على أن اختيار دراسة استراتيجية لها مدلولات قومية تفيد في المستقبل ، في جعل هذا الشعار حقيقة تطبق على أرض الواقع العربي . فدراستي يجب أن تكون في كيفية استخراج البترول وتصنيعه ، المهم إنها ليست مجرد مهنة بل عمل ذو أبعاد علمية ووطنية وهذا العمل أحبه وأجله أما المهن فلا .

في جامعة دمشق كانت الكلية الوحيدة في سوريا التي تدرس هذه المادة هي كلية العلوم - قسم الكيمياء التطبيقية ، وبلا تردد تقدمت إليها وكان معدلي يسمح لي بالالتحاق إلى أي فرع في جامعة دمشق دون استثناء ، فقبل طلب انتسابي إليها طالباً في السنة الأولى .

كان ذلك في خريف عام ثمانية وستين وتسعمائة وألف ، بعد حصولي على الشهادة الثانوية العامة - الفرع العلمي - وكان ذلك اختياري .

لم يشاركني أحد ، ولم يمارس عليَّ أحد من أصدقائي أو أقاربي دور الموجه أو المرشد حتى والدي ، الذي كان دائم الزيارة لحمص بحكم عمله ، مع ذلك لم

يقم بزيارتي والتعرف إلى سكني ومدرستي خلال سنوات حمص الثمانية التي قضيتها طالباً إلا مرتين. فكان اختياري للفرع الذي أدرسه نابعاً من قناعتي ، لا بتوجيه من قريب أو بعيد .

وسافرت إلى دمشق . لقد سبق أن زرت دمشق مرات قبل ذلك ، ولكنني كنت أزورها ضيفاً لا مقيماً ، فالامر الآن يختلف ، كنت أذهب إليها لأقضي حاجة قد تنتهي بيوم أو يومين إن طالت ، أما اليوم ، فأنا سأكون في دمشق مقيماً لا زائراً . فهذا أوان الجد وتحقيق الطموحات، ولا بد مما ليس منه بد .

وبعد مسيرة أخرى تكمل المسيرة الأولى وتتجهها ، إنها مرحلة التعليم العالي . كانت دمشق جديدة عليّ من كل النواحي ، إنها عاصمة سورية ، وفيها ما فيها من عراقة وحضارة ، وأنا الغريب فيها ، والجديد عليها ، وقد خف عني آلام الغربة أن لفيها من أصحابي الذين تربطني بهم علاقة صداقة وودة ، كانوا قد سبقوني إليها. كان محمود بحبوح طالباً في كلية العلوم ، قسم العلوم الفيزيائية والكيميائية ، وكذلك كان محمد مشهور فرزات في كلية العلوم ، قسم العلوم الطبيعية ، وحسين شمسي في قسم الرياضيات وفي نفس العام دخل الجامعة معى إبراهيم يوسف أيوب وأحمد شبّوط في كلية الطب البشري ، ولاحقاً انضم إلينا عدنان درويش في قسم الرياضيات بكلية العلوم أيضاً .

كان دخولي الجامعة منعطفاً كبيراً مقرضاً بأقوى الطموحات عندي ، وما أن انتظمت طالباً في الكيمياء التطبيقية حتى التقى محمود بحبوح ، الذي كان طالباً في السنة الرابعة والأخيرة ، فقلت له : إنني مصمم على الدراسة حتى نيل شهادة الدكتوراه إن شاء الله ولن أقف عن الدراسة حتى الدكتوراه . قال لي : يا محمود ما عليك فعله الآن إلا أن تنجح في الصف الأول ، وبعد أن تجتاز الصف الأول ، فلكل حدث حديث ، إنّجح في السنة الأولى ، وبعدها لنا حديث آخر .

كان جواب محمود بحبوح جواب العارف ، الذي عانى ما عانى في السنة الأولى ، لذلك كان تركيزه منصبًا على نصحي إلى تخطي السنة الأولى ، بنجاح لأنها الأصعب

في الدراسة الجامعية ، وكان له الحق فيما قال ، فالسنة الأولى في هذه الكلية هي سنة السنوات ، وما بعدها تابع لها ومترب عليها .
اخترت السكن ، بحي الأكراد المعروف في دمشق ، بجوار خالي إبراهيم الشيخ علي الذي كان ضابطاً في الجيش ، إلا أنه وبعد شهور ثلاثة قضيتها في ركن الدين ، تركت السكن فيه ، وانتقلت إلى حي الفحامة ، حيث استأجرت شقة ، شاركتني السكن فيها إبراهيم يوسف أيوب ، وطالب ثالث من درعا كان يدرس في كلية الصيدلة .

كانت كلية العلوم في تلك الأيام وفي السنة الأولى (التحضيرية) معروفة بقلة عدد الناجحين فيها ، وكان يُضايقني غياب الكتب والمذكرات ، والحقيقة أنه كان من الصعب على التمييز بين مادة وأخرى ، وكأن الأمور قد اشتبهت على . فقبل موعد امتحان الدورة الأولى بقليل ، استلمنا المذكرة المطبوعة على الحرير ، والسيئة الطباعة وكانت السنة الأولى (تحضيري) ، هي السنة الوحيدة التي أحتاج فيها إلى الدورة الثانية ، إذ لم أستطع النجاح من الدورة الأولى إلى السنة الثانية ، وكان السبب في ذلك عدم توفر المقررات بين أيدينا ، فماذا ندرس ؟
ما اضطرني إلى استئجار بيت مع محمد مشهور فرزات ، والذي كان طالباً في السنة الثالثة ، وببدأنا الدراسة في ذلك الصيف ، خلال شهري العطلة التي تفصل ما بين الدورة الأولى في حزيران ، والدورة الثانية في أيلول . لقد كان منهاجاً ضخماً ، وبجهد شديد وعمل متواصل في الليل والنهار في مكتبة الجامعة من الساعة الثامنة وحتى الثانية والعشرين ، تمكنت وبتفوق من اجتياز السنة الأولى ، والانتقال إلى السنة الدراسية الثانية ، عندها تنفست الصعداء ، وعلمت ما لم أكن أعلم ، كان محمود بحبح على حق ، فقد جرب السنة الأولى وعاني ما عانى .
ها قد نجحت في السنة الأولى ، وبنجاحي تأكد لي أنني الآن طالب جامعي ، وقبلها كنت طالباً جامعياً مرشحاً . أثناء امتحانات الدورة الثانية ، كانت هناك مادة اسمها تحليل اثنين ، وكانت تعنى دراسة التحليل الرياضي ، بما في ذلك التكامل

والتفاضل ، وكانت مادة صعبة ، وبرنامجهما كبير جداً ، حتى أن مجموع علامات أسئلة الامتحان ، كانت مائة وعشرة من مائة ، موزعه على أحد عشر سؤالاً ، عالمة الإجابة لكل منها عشر علامات ، أي أن من يجيب فقط على عشر أسئلة من أحد عشر سؤال ، يحصل على العالمة الكاملة وقدرها مائة من مائة .

وبعد أن قدمت الامتحان ، عدت إلى البيت الذي أسكن فيه مع صديقي محمد مشهور فرزات وقمت بتقييم إجاباتي بشكل متباين ، تأكدت أنني سأنجح في هذه المادة وأسأحصل على أكثر من خمسين بالمائة . وسألني مشهور ، فأكَّدت له نجاحي ، فاقترح علي أن أشيع أنني سأحصل على أكثر من سبعين بالمائة ، وضحكتنا....

بعد أن أخذت قيلولة ، قمت بإعادة تقييم إجاباتي بشكل متباين ، ووُجدت أنني سأحصل على أكثر من خمسة وسبعين بالمائة ، وأخبرت مشهوراً بذلك ، فأجابني غاضباً بأنه عَلِمْني ذلك لقوله للآخرين ، لأن أطبق ذلك عليه . وضحكتنا كثيراً . وفعلاً وبعد ظهور نتائج مادة تحليل اثنين ، فقد كُنْتُ الأول فيها ، وحصلت على أكثر من خمس وسبعين بالمائة من علاماتها .

وفي صباح اليوم التالي ، طلبت من زميلي مشهور أن نأكل بطيخ أحمر (جبن) ووجيناً وعند إحضارنا البطيخ والجبين ، قلت له بأنني أرغب الآن في النوم ، وبعد أن استيقظ سأتناول طعامي ، فقال بأنه جائع وسوف يأخذ نصف البطيخة وياكلها ، فاعتراضت قائلاً: بأن حجمي ضعف حجمك ، وبالتالي يحق لي في البطيخة ضعف حصتك . وهنـا قال: وهـل يتم دفع قيمتها بما يتـناسب وأحجامـنا ، فـذـكرـتهـ بـأنـا متساوـيـانـ كـبـشـرـ ، ولـكـلـ مـنـاـ صـوتـ اـنتـخـابـيـ واحدـ صـغـرـ حـجمـناـ أـمـ كـبـرـ ، وـقـدـ اـقـتنـعـ ، فـقـدـ كـانـ مـرـنـاـ أـحـيـاـنـاـ ، وـقـاسـيـاـ عـنـيدـاـ فيـ مـعـظـمـ الـأـحـيـاـنـ .

في السنة التالية استأجر كل منا غرفة منفصلة وفي أماكن مختلفة ، وبعد الدراسة حتى المساء في مكتبة الجامعة ، دعاني إلى سكنه الذي كان غرفة على سطح

إحدى العمارات لا تزيد مساحتها عن ستة أمتار مربعة ، وبها سرير حديدي ضيق متھالك ، حيث تابعنا دراستنا إلى أن زقفت عصافير بطوننا ، فطبخنا (مُجَدَّرَة) ، وهي الأسرع تحضيراً والأطيب ، وبعد ذلك بدأتُ أستعد للنوم ، حيث لم تكن لدى القدرة على الوصول إلى بيتي بعد هذا العشاء ، وتساءل عما أفعل ، فقلت له: كما ترى ، فقال : السرير بالكاد يتسع لشخص واحد ، فقلت له: يمكنك النوم على الأرض، أو خذ مفتاح بيتي وادهب لتنام فيه ، ولكنه اقترح أن ينام معه بنفس السرير (رأس و عقب) ، فلم أمانع ، وبسبب طولي وقصريه ، فقد كانت رجلي تصل حتى ذقنه بسهولة ، أما أرجله فالكاد تصل إلى صدرني فقال : بأنه وللمرة الأولى يحسدني على طولي ويتمني لو كان طويلاً مثلي ، حتى تصل أرجله إلى ذقني ، ليزعجي كما أزعجه ، ولكننا نمنا قريري العين ، فقد كان يوماً منهاكاً أمضينا معظم ساعاته في الدراسة والتحضير .

وفي صباح اليوم التالي وقديراً لأريحيته وحسن ضيافته ، فقد دعوه إلى عشاء فاخر في أحد المطاعم ، يليق بأمثاله من الطلاب المجتهدين .

الآن تجاوزتُ العقبات والأشواك ، وأصبح الطريق أمامي ممهداً ، أعرف أين أضع قدمي لا أخطئ كالعميان ، وبسبب ذلك لم يكن عبثاً مني وقصيراً ، فالامرور في السنة الأولى مختلطة متشابهة ، حتى لا يكاد الطالب يميز بين هذه المادة وتلك . وقلة المطبوعات كانت تسبب لي ولآخرين ضياعاً وتشتتاً ، فقبيل موعد الامتحان بقليل حصلنا على المذكرات ، التي تحتاج إلى ترميم ، وتصحيح للكثير من كلماتها ، ورغم أن هذا كان جيداً بالنسبة لي ، إلا أن هذه المذكرات جاءت في وقت لا يستطيع فيه الطالب الإلمام بما فيها واستيعابها بالشكل الجيد في الوقت المتبقى للامتحانات ، وهذا يتطلب من الطالب جهداً مُكثفاً ، مما لا يسمح له باستيعاب كامل للمعلومات الموجودة بين جنبات المذكورة .

كان في سوريا جامعتين ، الأولى في دمشق ، والأخرى في حلب . كانت جامعة دمشق تضم معظم الكليات ، وفيها كليات الحقوق ، والآداب ، والعلوم ، والهندسات

على اختلاف فروعها، والطب والصيدلة والشريعة المعروفة بعراقتها وتميزها بكامل المنطقة، أما جامعة حلب فقد كانت جامعة مبتدئة، تكاد تقتصر على كلية الهندسة المدنية، لهذا كان الكثير من المطبوعات سواءً بجامعة دمشق أو بجامعة حلب مكتوب عليه اسم الجامعة السورية.

منذ أن كنت طالباً في الحادي عشر (الثاني الثانوي) كنت أسكن غرفةً لوحدي منفرداً بحمص، وعندما انتقلت إلى الجامعة بدمشق بقيتُ أسكن منفرداً، باشتثناء فترة بسيطة جداً سكنت فيها بالمدينة الجامعية.

بالإضافة إلى ما ذكرت من الأصدقاء الطلاب، كان المرحوم محمود شهاب لا يفتأ يتفقد أحواانا نحن طلاب الرستن، ويدعونا إلى منزله العامر بالفحامة.

كان قريباً لنا وأخاً أكبر يشجعنا على العلم ويحضنا على متابعة التحصيل، كان ضابطاً المعياً . ومرت السنوات الجامعية الأربع، وتعاقب علينا الكثير من الأساتذة الدكتورة، منهم الدكتور موفق دعبول ، والدكتور صلاح يحياوي ، والدكتور عادل سودان، كانوا بحق مدرسين مجيدين ، ونماذج تحتذى للعلماء العاملين ، ومثالاً للتلفاني في خدمة الواجب وبناء الجيل . كان الدكتور صلاح يحياوي نموذجاً يقتدى به ، مثالاً للعطاء والوفاء للمهنة والواجب في دروسه النظرية المميزة والعملية ، كان هناك جو علمي .

لم يكن السادة أساتذتنا مجرد معلمين ، بل كانوا نماذج لنا في سلوكهم وتصرفاتهم، كانوا يعيشون حياة الجد مع طلابهم .

هكذا كنت أراهم مخلصين أوفياء يعطون ، ولا مراقب عليهم إلا ضميرهم البيظ العامر بالمسؤولية، الآخر بالعطاء . الحقيقة أن هؤلاء الدكتورة المحاضرين كانوا رسل حضارة ويستحقون منا كل الوفاء والتقدير، لما قدموا من جليل الأعمال، لم يبخلو بما علّموا فأعطونا بجد ، واستحقوا منا كل شكر وتقدير ، فجزاهم الله عنا كل خير (وكل إباء بما فيه ينضح) فنضحوا علمًاً وعطاءً ومحبة . مررت سنوات الجامعة الأربع سراعاً ، ومن دون توقف لعارض ما ، فقد كان

نجاحي فيها متتالياً وسُكنت خلال هذه السنوات الأربع في أحياط الأكراد، والفحامة، والمدينة الجامعية. وفي السنة الرابعة والأخيرة سُكنت بيتاً في حي التجارة بالقصاع، كانت نفقاتنا الشهرية تكاد لا تتجاوز المائة وخمسين ليرة بما في ذلك أجراً البيت البالغة أربعين ليرة سورية مع نفقات الماء والكهرباء، وألسبب في ذلك أن الأسعار رخيصة في تلك السنوات، فكل شيء متوفر. وكان أنا ثالثاً في البيت بسيطاً، وهو عبارة عن سرير وفراش وأدوات المطبخ البسيطة، وما هو ضروري لتحضير الطعام بسرعة، من دون جهد كبير وإضاعة وقت، وما هو ضروري من اللباس في الجامعة.

عدت إلى سيرتي الأولى ولا سيما بعد تخلصي من السنة الأولى وشعورني بالارتياح، وأن عندي وقت فائض، فلا يجب أن أضيعه. عدت إلى مطالعة الكتب بقصد التزود من الثقافة، (ومن شب على شيء شاب عليه). في هذه الأثناء توطدت علاقاتي بأحمد شبلوط في كلية الطب الذي أصبح فيما بعد طبيباً جراحًا مشهوراً. كنت صديقاً لأخيه الأكبر هاشم شبلوط من قرية تبر معلنة شمال حمص، كما تعرّفت إلى أخيه مصطفى الذي كان طالباً في كلية العلوم وأخيه عبد الرحمن الذي كان موظفاً في مصلحة الأرصاد الجوية بدمشق وكان كثيراً ما يدعونا لتناول الطعام في منزله الواقع في حي المزة المعروف. بالإضافة إلى زملاء كثر لا يتسع المجال لذكرهم. وفي صيف عام اثنين وسبعين وتسعمائة وألف، أنهيت دراستي الجامعية، وحصلت على إجازة البكالوريوس في علوم الكيمياء، وقبيل استلام شهادتي الدراسية، كنت أتمشى في شارع المتنبي بدمشق، وإذا نحن أمام مبنى الشركة العامة للنفط، فدخلت المبنى وتقدمت بطلب للعمل في الشركة التي كانت مسؤولةً عن استخراج النفط الخام في جزيرة الشام، ونقله إلى مصب بانياس عبر مدينة حمص. وما هي إلا أسبوعين من الزمن وتصلتني دعوة للالتحاق بالعمل بمصفاة حمص، وهكذا انطوت صفحة الدراسة، لتبدأ صفحة أخرى هي مرحلة الإنتاج والعمل.

حدث في هذا الصيف حدثان مميزان بالنسبة لي .

أولهما : زواجي من السيدة أم مصر .

وبهذه المناسبة أقام والدي - حفظه الله - حفلًا كبيرًا مميزًا بمدينة الرستن استمر عدة أيام ، حضره مئات الضيوف من داخل الرستن وخارجها .

ومن عادات الأفراح في بلدتنا أن تبدأ بعقد القران ، الذي يتبعه مباشرة أو بعد حين حفل الزفاف . حيث أقيمت الموائد والدبكة في مزرعتنا بحي بستكوه ، فقد أقام والدي بذبح جمل كبير والعديد من الخراف ، وأحضر المطربين والعازفين . واستمرت الأفراح أيامًا ثلاثة وكان عرسًا مميزًا ، لم يخللله ما يكدر ويعكر سعادتنا وسعادة ضيوفنا .

كان شاعر الحفل في هذه المناسبة السعيدة الشاعر الشعبي المعروف صالح رمضان ، وفي اليوم التالي صاحبه الشاعر المعروف الحاج محمود الحسواني ، شاعر المنطقة الوسطى اللذان غنّيا لنا ثلاثة أيام متواصلة ، كانوا يحييا لبلها بأشعارهما والعتابا والمماويل على عزف الربابة الشرقية المعروفة .

أما الزفة في بلدتنا ، فكانت تعني نهاية العرس ، حيث ينطلق الناس رجالاً ونساءً من أمام منزل والد العريس ، وهو مكان العرس إلى منزل والد العروس ، وقد أحضروا فرساً أو جملًا تركبها العروس ، وقد لبست عباءة سوداء . وينطلقون بها إلى بيت العريس ، محاطة بالنساء من كل صوب ، وبفاصل قليل يتقدمهن موكب الرجال ، الذي يكون في المقدمة وهم يرددون الأغاني والأهازيج ، وهكذا يستمر الموكب حتى منزل العريس ، فتردد النساء عند الاقتراب منه (يا دار الفرح يا دار ، دار السعادة يا دار) وتتردد النساء مجتمعة بزغاريد طويلة .

وثانيهما : كان عملي في مصفاة النفط بحمص ، حيث باشرت العمل في الأول من شهر آب لعام اثنين وسبعين .

حصلت على عملي هذا دون أي وساطة ، بالرغم من قلة فرص العمل المتوفرة ، بسبب تخفيض الدولة الإنفاق الاستثماري ، وزيادة الإنفاق العسكري استعداداً

للحرب القادمة مع إسرائيل ، والتي حدثت في السادس من تشرين الأول عام ثلاثة وسبعين .

كانت مصفاة النفط بحمص تتبع للشركة العامة للنفط ، إحدى شركات وزارة النفط والثروة المعدنية .

باشرت عملي بالمصفاة ، وكما جرت العادة مع الموظفين الجامعيين الجدد ، فقد أمضيت حوالي الشهر متقللاً بين مديراتها ووحداتها ، للتعرف على واقعها قبل العمل في إحداها .

وأخيراً تم تكليفي بالعمل في قسم الأمن والسلامة ، ويكون هذا القسم من قطاعين الأول الإطفاء ، والثاني الأمن الصناعي . باشرت عملي بحماس ، ولا سيما عندما أكلف بمهام المهندس المناوب ، حيث كنت أقضي الليل بمراقبة ما يجري بدءاً من مجرى العاصي شرقاً إلى وحدة التفحيم في الغرب وكانت أمars العمل بأريحية وبمحبة . وكان التعاون والحب والوثام ، هو السائد بين عناصر المصفاة بغض النظر عن المهام الموكلة إليهم ، فكلهم كان يعمل بجد ونشاط ودون تواكل . بدءاً من مديرها المهندس سليم معروف ، ومدير عملياتها المهندس فريد اللمع ومديرها الفني المهندس سمير الدروبي ، ومديرها المالي الاقتصادي راتب مجني ، إلى أحد ثعاملي فيها . كان عدد الجامعيين في المصفاة لا يتجاوز الخمسين جامعياً ، وكان عملاً جيداً بالنسبة لي وكانت أشعر بسعادة وأنا أقوم بمهامي الموكلة إلي .

وبالإضافة إلى عملي بالمصفاة ، قمت بالتعاقد مع معهد البترول ، والذي كان مقره داخل المصفاة ، لإعطاء بعض الساعات الإضافية ، والتي كانت تسمح لي بمداومة الاتصال مع المادة العلمية ، بالإضافة إلى أنها كانت تدر علي دخلاً يضاف إلى راتبي الشهري .

وفي مطلع عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف ، سافرت إلى حقول الرميلان شمال شرق سوريا برفقة أحد خبراء الأمم المتحدة بمجال الأمن الصناعي ، وهناك أتيحت لي فرصة الاطلاع على آبار النفط في حقل الرميلان ، وعلى معسكر العاملين في

حقول النفط الذي هو أمل سورية في الحصول على النفط اللازم للاستهلاك المحلي والتصدير، وبالتالي الحصول على الأموال القابلة للتحويل .
كان الشعار المطروح هو استخراج النفط بالكوادر الوطنية ، والمؤهلات المحلية بالتعاون مع دول الكتلة السوفيتية .

كما أتيح لي خلال هذه الزيارة القصيرة لحقول الرميلان الاطلاع والمشاركة في إغلاق بئر الغاز الطبيعي بحقول الجبسة ، وكان بئراً محفورةً ، يتصاعد منه الغاز الطبيعي، وحسن الحظ من دون أن يشتعل ، وكانت الفكرة هي إغلاق البئر بطريقة الحقن المائي، مع تحاشي أية إمكانية للاشتغال ، وقد نجح العاملون في مديرية الرميلان و حوض الجيزة بإغلاق البئر بما بذلوه من جهد كبير وما امتلكوه من خبرة . ولكن ذلك استغرق زمناً طويلاً .

كان استخراج النفط من حقول الرميلان ، وتكريره بمصفاة حمص هو أمل سورية، ومحط طموحاتها في تلك الفترة .

أما بالنسبة لي فقد كانت تلك الفترة ، كلها طموحات في إتمام دراستي العليا ، وأنا الموظف، كان يمكنني الانتظار حتى الحصول على إيفاد حكومي ، ولكن هذا يتطلب وقتاً طويلاً، وأنا في صراع مع الزمن ، فكيف يتمنى لي ذلك .
كنت قد عاهدت نفسي ، أن أتابع دراستي حتى الحصول على أعلى الشهادات العلمية المعروفة ، الدكتوراه .

ها أنا ذا موظف ، فكيف السبيل ؟ واشتدي العطش وزاد حر صيف عام ثلاثة وسبعين فما العمل ؟ ولا يروي عطشى إلا الدكتوراه ، ولم يمض على عملي الوظيفي بالمصفاة إلا أحد عشر شهراً حتى تقدمت باستقالتي حسماً لكل خلاف ، ومنعاً لأي جدل يثار ، وقبلت إدارة المصفاة مشكورةً استقالتي .

في حينه كنت قد تقدمت بطلب منحة دراسية من رومانيا وألمانيا الشرقية ، وكانت المنحة الدراسية قد وصلت لي بالموافقة من حكومة رومانيا على أن أباشر الدوام

في مطلع شهر تموز أما في ألمانيا الشرقية فمباشرة الدوام في مطلع شهر أيلول من نفس العام ، وبما أني كنت قد تبلغت ، بوجوب الالتحاق بالخدمة العسكرية في الأول من شهر تموز ، فقد اخترت متابعة دراستي في رومانيا . وما إن جاء الأول من تموز لعام ثلاثة وسبعين إلا وغادرت مطار دمشق الدولي إلى بوخارست ، عن طريق بودابست ، حيث لم يكن آنئذ رحلات جوية مباشرة بين دمشق وبوخارست .

وبسبب هذه السرعة في الرحيل ، وتحسباً لما قد يعرقل سيري من إجراءات التأجيل عن الخدمة الإلزامية ، لم أدقق في المنحة التي جاءتني ، والتي لم تكن ما أتمناه ، فليست أكثر من منحة دبلوم اختصاص ، ومرة أخرى بدأت مسيرة الجد ، والنضال لتحويل المنحة من منحة لدراسة الاختصاص ، إلى منحة لدراسة الدكتوراه .

كان سفري إلى رومانيا نقلة نوعية كبيرة في تاريخ حياتي ، حيث أن رومانيا بلد أوروبي من الناحية الجغرافية والاجتماعية ، وشيوعي من الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية .

كان بلداً جميلاً ، وأول ما لفت انتباهي فيه تلك المساحات الخضراء الواسعة والجميلة والسبب أن المعدل السنوي لهطول الأمطار والثلوج فيها يقترب من ألفي ميلي متر في السنة . كانت الجالية السورية ، والعربية في رومانيا من الطلبة ، حيث كانت الإقامة والعمل فيها ممنوعة لغير المواطنين ، والذين يحظر عليهم مغادرة رومانيا ، إلا بمهام حكومية خاصة وللموثوقين جداً من أتباع النظام الشيوعي ومرديه ، شأنها في ذلك شأن جميع الدول الشيوعية في تلك الأثناء . كانت المنطقة العربية بشكل خاص ، والعالم بشكل عام يشهد الكثير من التحولات الاقتصادية وارتفاع حاد في معدلات التضخم النقدي ، بسبب ارتفاع أسعار النفط ، نتيجةً لوقف إنتاجه خلال الحرب العربية - الإسرائيلية من عام ثلاثة وسبعين .

أما سوريا ، فكانت تشهد في هذه الفترة حالة انتعاش اقتصادي ، بسبب استلامها للكثير من المساعدات والهبات من دول الخليج العربي ، وبسبب هذا الفائض من

المال في سوريا كان هناك إنفاق كبير في المجالات الخدمية والاستثمارية ، وكان للشركات الرومانية نصيب كبير منها . فتعاقدت الشركات الرومانية على بناء مشاريع عديدة في سوريا ، منها مصنع السماد الفوسفاتي بحمص ، ومصفاة النفط في بانياس ، وعمل الإسمنت بحلب واستصلاح الأراضي في منطقة الفرات ، وهذا بدوره أدى إلى زيادة المنح الدراسية المقدمة من رومانيا إلى سوريا ، وبالتالي زيادة عدد الطلاب السوريين الوافدين إلى رومانيا ، وأغلبهم من الذين حصلوا على معدلات منخفضة في الثانوية العامة .

وبجهود حثيثة وسعي لا يعرف الملل ، استطاعت أن أحول منحتي الدراسية ، من منحة دبلوم اختصاص ، إلى منحة دكتوراه في الدراسات البتروكيميائية ، وتم تسجيلي في معهد البترول والغاز في بوخارست ، وبنفس الوقت بدأت دراسة اللغة الرومانية ، في المعهد الخاص بتعليم الأجانب التابع لجامعة بوخارست .

مرة أخرى أنا الآن في المكان الصحيح ، في تلك المرحلة ، كان في رومانيا تنظيمين للطلبة السوريين ، الأول هو فرع الاتحاد الوطني لطلبة سوريا ، ومقره الرئيسي في دمشق وهو أحد المنظمات الشعبية الرسمية في سوريا ، والثاني هو رابطة الطلبة السوريين ويضم الطلاب الشيوعيين وأنصارهم . وعلى مدى عام كامل من المفاوضات مع رابطة الطلبة السوريين ، تمكنا في نهاية عام أربعة وسبعين من عقد مؤتمر موحد في قاعة المؤتمرات ، بمعهد البولي تكنيك في بوخارست ، تحت راية الاتحاد الوطني لطلبة سوريا ، فرع رومانيا . حضره ممثلوا جميع التنظيمات الطلابية العربية الصديقة ، إضافة إلى اتحاد روابط الطلبة الشيوعيين الرومان وهو التنظيم الوحيد للطلبة في رومانيا .

استغرق المؤتمر يومين ، وفي نهاية جلساته وبالاقتراع السري ، انتُخب المكتب الإداري من سبعة أعضاء ، منهم : محمود فرزات - رئيساً ، وكمال سمعان - أميناً للسر ، وعلي الدردرى - عضواً .

كان خمسة منهم يدرسون لنيل شهادة الدكتوراه ، وأثنان يدرسان لنيل الشهادة الجامعية الأولى .

لقد كان مؤتمراً فرض احترام تنظيمنا الطلابي على التنظيمات الطلابية العربية والأجنبية والأهم من ذلك احترام وتعاون السلطات الرومانية ذات العلاقة بالطلبة الأجانب .

استطاع المكتب الإداري تحقيق الكثير من الميزات للطلبة السوريين ، مثل تحسين شروط السكن الجامعي ، والحصول مجاناً على قاعات مناسبة للاحتفال بالمناسبات الوطنية ، والنقل الجوي المجاني إلى أرض الوطن لجثمان أي طالبٍ يُتوفى أثناء فترة دراسته ، وغير ذلك من الميزات . وقد أدى تميُّز إتحادنا الطلابي عن غيره من المنظمات الطلابية الأجنبية في رومانيا إلى انتخابي رئيساً للمنظمات الطلابية العربية ، في أول مؤتمر عقد لهذه المنظمات بعد ذلك .

ولكني بعد مضي سنة و نيف على رئاستي للمكتب الإداري قدمت استقالتي ، كي أتمكن من تخصيص وقتٍ أكبر لدراستي ، التي جئت من أجلها إلى رومانيا .
فوجودي في رئاسة المكتب يضيع علىَ الكثير من الوقت اللازم للتحصيل العلمي .
خلال وجودي في رومانيا أقمت علاقات واسعة مع السلطات الرومانية ، وبسببها حصلت على أكثر من مئة منحة دراسية ، وزعّتها علىَ الطلاب السوريين المحتجزين ، والمؤهلين للاستفادة منها في بناء مستقبلهم .

الحقيقة أن هذه المنح كانت تخصصها حكومة رومانيا ، لدول العالم الثالث ، لكن بلد حصته ، فكنت أحصل علىَ المنح التي لا تستفيد منها الدول المُخصصة لها ، فبدلاً من أن تضيع هذه المنح كنت آخذها ، وأعطيها للطلاب السوريين الراغبين في إتمام دراستهم العليا . فكانوا يستطيعون متابعة دراستهم وبنقات بسيطة .

كانت هذه المنح تضمن للطالب مجانية التعليم ، فهو مُعفى من القسط الجامعي الشهري الذي يزيد على ثلاثة دولارات ، وهو مبلغ كبير جداً بالنسبة لمتوسط

الدخل في سورية إضافة إلى السكن الجامعي المجاني ، وراتبٍ شهريٍ يكون كافياً لو دعم بقليل من المال من أهل الطالب.

خلال هذه الفترة التي أمضيتها في رومانيا ، والتي انتهت في نهاية عام ثمانية وسبعين حصلت على شهادة دكتوراه فلسفة في التكنولوجيا البتروكيميائية .

أنا الآن في عالم غير العالم الذي تعودت عليه بلد يتكلم لغة ليست لغتي ، اختلاف كبير بين ما كنت تعودته ، وما أنا فيه الآن في كل شيء ، في العادات ، في التقاليد ، في الذهنية ، لرجل مسلم ينتمي إلى الريف السوري . فلكل بلد تقاليده وعاداته ، ويجب علي أن أتكيف مع العالم الجديد الذي أصبحت فيه ولست ضيقاً ساقيم أياماً، ثم أعود من حيث أتيت . فأقول:رأيت كذا وفعلت كذا ، بل أنا مقيم ولسنوات محددة ، تنتهي بنيل شهادة الدكتوراه . فلذلك كان علي أن أتعلم لغة رومانيا لأنتمكن من الدراسة والتحضير، وكل ما يلزم من بحوث وامتحانات للحصول عليها ، ولأقوم بما يلزمني في حياتي الجديدة .

مجال العلاقات محدود بالنسبة لي ، فالجالية العربية هم من الطلبة ، وهذه الجالية محدودة بعدد معين ، ورغم محدودية هذه العلاقة ، إلا أنها وسعت من مداركي وأفاقي المعرفية ، فقد أتاحت لي فرصة التعرف على بعض عادات وطبائع الشعوب بشكل عام والشعوب العربية بشكل خاص . بخلاف الحياة الجامعية في سورية، إذ كانت علاقاتي لا تتعدي الإطار المعروف فالطلاب سوريون ، ونادراً من غيرهم .

عند وصولي إلى رومانيا في الأول من تموز لعام ثلاثة وسبعين ، وجدت كل شيء هناك مختلفاً عما كنت تعودته من قبل ، كانت الحياة في رومانيا تسير بأدنى معدلاتها ، بسبب الحرارة العالية ، وببدء الإجازات السنوية لبعض العاملين فيها ، والحرارة هناك مقرونة ببرطوبة عالية بسبب كثرة الأشجار والبحيرات . فإذا كانت درجة الحرارة ثلاثين مئاناً تشعر وكأنها أربعين في بلادنا ، وبنفس الوقت لو كانت درجة الحرارة صفراء فإن برودتها تعادل عشر درجات في بلادنا ، ذلك هو أثر الرطوبة، فمناخها أقرب إلى مناخ المدن الساحلية في بلادنا .

ما إن حطّت رحالـي بأرض رومانيا ، حتى استقبلـني ممثـل وزارـة التعليم فيها ، وقررـ إـنـزالـي بـغرفةـ مـسـتقـلـةـ فيـ أحـدـ بـيـوـتـ الـطلـبـةـ ، التـابـعـةـ لـمعـهـدـ البـتـرـولـ وـالـغازـ بـبـوـخـارـسـتـ.

خلالـ الـقـيـامـ بـدـوـرـةـ مـدـتـهـاـ سـتـةـ أـشـهـرـ لـتـعـلـمـ اللـغـةـ الرـوـمـانـيـةـ ، التـقـيـتـ مـجـمـوعـةـ طـلـابـ منـ موـفـديـ الـحـكـوـمـةـ السـوـرـيـةـ لـلـحـصـولـ عـلـىـ شـهـادـةـ الدـكـتـورـاهـ كـلـ حـسـبـ اـخـتـصـاصـهـ ، كـانـ مـنـهـمـ مـنـ أـعـرـفـهـ ، وـلـاـ سـيـمـاـ الـذـيـنـ كـانـواـ مـعـيـ أـثـنـاءـ الـدـرـاسـةـ الـجـامـعـيـةـ بـدـمـشـقـ . وـمـنـهـمـ مـنـ لـاـ أـعـرـفـهـ لـأـنـهـمـ كـانـواـ مـنـ كـلـيـاتـ أـخـرىـ .

كـانـ مـنـهـمـ : يـاسـرـ حـوـرـيـةـ ، وـمـحـمـودـ إـبرـاهـيمـ ، وـمـحـمـدـ عـلـيـ الشـعـارـ ، وـصـلـاحـ قـضـمـانـيـ وـمـحـمـدـ الدـرـيـسـ ، وـعـلـيـ الدـرـدـريـ ، وـسـمـيـحـ الـجـابـيـ ، وـسـمـيـرـ السـيـوـفيـ، وـنـبـيلـ الـجـابـيـ، وـأـكـرمـ رـوـمـانـيـ، وـأـحـمـدـ الـعـلـيـ ، وـخـالـدـ رـعـدـ ، وـإـبـراهـيمـ حـصـوةـ ، وـفـرـيـالـ مـهـنـاـ ، وـأـكـرمـ الأـحـمـرـ ، وـعـبـدـ الـعـزـيزـ جـامـوسـ ، وـمـوـسـىـ الـضـرـيرـ ، وـمـحـمـودـ الـأـسـعـدـ ، وـنـبـيلـ الـأـشـرـفـ ، وـعـبـدـ الـلـطـيفـ جـيـزاـويـ ، وـبـطـرـسـ نـصـارـ ، وـعـلـيـ مـقـدـادـ ، وـرـوزـ عـصـفـورـهـ ، وـعـصـامـ الدـالـيـ ، وـصـبـاحـ الطـوـيلـ ، وـجـوـزـيـفـ شـمـاسـ ، وـرـفـيقـ سـوـيدـانـ ، وـعـبـدـ اللهـ حاجـ إـبـراهـيمـ ، وـيـوسـفـ زـيـتونـ ، وـحـسـنـ حـسـونـ وـحـنـاـلـيـونـ ، وـعـبـدـوـ الـحـمـصـيـ ، وـصـلـاحـ عـبـلـةـ ، وـرـشـيدـ شـمـدـيـنـ الـأـحـمـدـ ، وـعـلـيـ الـحـاجـ بـكـريـ وـمـعـتـصـمـ قـزـيزـ ، وـعـبـدـ الـغـنـيـ فـرـزـاتـ ، وـسـمـيـحـ سـعـدـ الـدـيـنـ، وـبـسـامـ مـنـصـورـ وـكـمـالـ سـمـعـانـ، وـصـالـحـ مجـيدـ آـغاـ، وـمـاهـرـ إـخـوانـ ، وـصـبـحـيـ قـزـعـورـ ، وـوـصـفـيـ هـنـونـ وـفـوـازـ لـحـامـ ، وـنـبـيهـ النـائـبـ ، وـمـتـينـ مجـنـيـ ، وـمـأـمـونـ طـنـجـيرـ ، وـعـدـنـانـ فـارـسـ وـرـيـاضـ وـنـبـيلـ عـبـيدـ ، وـنـبـيلـ وـحـسـانـ قـانـصـوهـ (ـلـبـنـانـ)ـ وـغـيـرـهـمـ كـثـيـرـ مـنـ خـيـارـ الـطـلـبـةـ السـوـرـيـنـ الـذـيـنـ يـشارـ إـلـيـهـمـ بـالـبـنـانـ. بـعـدـ حـرـبـ سـبـعـةـ وـسـتـيـنـ ، قـطـعـتـ سـوـرـيـةـ عـلـاقـاتـهـاـ الدـبـلـوـمـاسـيـةـ مـعـ رـوـمـانـيـاـ ، بـسـبـبـ عـدـمـ قـطـعـ الـأـخـيـرـةـ لـعـلـاقـاتـهـاـ الدـبـلـوـمـاسـيـةـ مـعـ إـسـرـائـيلـ ، مـخـالـفـةـ بـذـلـكـ مـاـ سـارـتـ عـلـيـهـ جـمـيعـ دـوـلـ الـكـتـلـةـ السـوـفـيـتـيـةـ آـئـدـ . وـبـقـيـتـ هـذـهـ الـعـلـاقـاتـ مـقـطـوـعـةـ إـلـىـ مـطـلـعـ عـامـ ثـلـاثـةـ وـسـبـعينـ . وـمـعـ عـوـدـةـ الـعـلـاقـاتـ الـطـبـيـعـيـةـ مـاـ بـيـنـ سـوـرـيـةـ وـرـوـمـانـيـاـ ، عـيـنـ وـلـيـدـ الـمـعـلـمـ سـفـيرـاـ فيـ بـوـخـارـسـتـ ، سـاعـدهـ فيـ إـدـارـةـ السـفـارـةـ لـلـشـؤـونـ الـقـنـصـلـيـةـ

محمد جيروديه ، والشون الثقافية أمين عيزوقي .

ونتيجةً لتنامي العلاقات الاقتصادية ما بين سورية ورومانيا ، فقد نشط العديد من رجال الأعمال السوريين غير المقيمين في رومانيا ، لعل من أبرزهم اسكندر بندلي . أما نادر قره شولي ، الهارب من سورية منذ مطلع السبعينات كونه شيوعي ، فكان يعمل في القسم العربي بالإذاعة الرومانية - وهي إذاعة لم أسمع بها قبل وصولي إلى رومانيا وتعزّي بنادر - وهو من الأجانب النادرين ، الذين يعملون في رومانيا ويتقاضون أجوراً بالعملة المحلية ، غير القابلة للتحويل ، شأنهم في ذلك شأن المواطنين الرومانيين ، دون حقوقهم في الحصول على الجنسية الرومانية ، أو تملك أي شيء في رومانيا .

وراجعت المسؤولين عن البعثات في وزارة التعليم الرومانية ، وقررت إنهم لم يُبدِّلوا لي منحتي من دبلوم اختصاص إلى دكتوراه ، فسوف أكون مضطراً لوقف الدراسة والعودة إلى بلدي .

وبسبب من حسن الطالع بالنسبة لي ، والعديد من الظروف المحلية والدولية التي خدمتني من حيث أدرى ولا أدرى ، ومتابعي للموضوع بجد لا يعرف الكل ، واتصالاتي هنا وهناك تكللت جهودي بالنجاح . وافت وزارة التعليم العالي في رومانيا على تبديل المنحة ، من دبلوم لمدة سنتين ، إلى دكتوراه لمدة ثلاث سنوات ، مُدَدَّت إلى خمس سنوات بسبب وفاة الأستاذ المشرف الأول على رسالتي ، مما اضطرني إلى تبديل موضوعها والانتقال بسبب ذلك من معهد البترول والغاز إلى معهد البولي تكنيك ، إضافة إلى فترة تعلم اللغة الرومانية .

حين انتهت العائق الإداري بالنسبة لدراستي ، باشرت دراسة اللغة الرومانية مع غيري من الزملاء السوريين والعرب من مصر والسودان وفلسطين والأردن ، إضافة إلى طلاب من الدول الإفريقية والآسيوية ، ولا سيما فييتنام الشمالية التي كانت في تلك الفترة في حالة حرب مع الولايات المتحدة الأمريكية على أرضها ، ضمن إطار الصراع العالمي وقتها ما بين الشيوعية بقيادة الاتحاد السوفيتي ، والرأسمالية بقيادة

الولايات المتحدة .

وانتهت فترة دراسة اللغة ، لأباشر بعدها في معهد البترول والغاز في مدينة بوخارست . كان على الطالب ، أن يبحث عن أستاذ ليشرف على رسالته ، وبعد بحث طويل ، قيل للأستاذ ميهاي بوجдан ، وكان عمره أكثر من ستين عاماً بقليل ، أن يكون المسؤول عن أبحاثي ورسالتي .

كان الأستاذ الأول ميهاي بوجدان ، مثله مثل الأستاذ الثاني يون فاسيلي نيكوليسيكو وهو الذي قام بالإشراف على أبحاثي ورسالتي للدكتوراه بعد وفاة الأستاذ الأول وانتقالي من معهد البترول والغاز إلى معهد البولي تكنيك في بوخارست .

كان الأستاذان ينتميان إلى الطبقة الوسطى قبل سيطرة الشيوعية السوفيتية على رومانيا بعد الحرب العالمية الثانية والتي كان من نتائجها احتلال الاتحاد السوفييتي لرومانيا وفرض نظامه عليها .

بدأت العمل في أبحاثي مع الأستاذ بوجدان ، إلا أنه و خلال عام أربعة و سبعين ، تقرر نقل معهد البترول والغاز من مدينة بوخارست إلى مدينة بلوبيشت ، والتي تبعد حوالي ستين كيلو متراً عن بوخارست . كان عيناً كبيراً عليّ ، فأنا مضطرب يومياً للتنقل بين بوخارست و بلوبيشت ، فأسرتي المكونة من زوجتي و ابنتي فاطمة (فاتن) تسكن في بوخارست ، ومقر دراستي في بلوبيشت ، كان انتقالي بين المدينتين يتم بواسطة سيارة سياحية اشتريتها بمبلغ ألف و ستمائة دولار أمريكي من نوع رينو ، ذات لون كحلي ، كانت سيارة جميلة مميزة بالنسبة للمواطن الروماني والأجنبي على السواء ، حيث كانت القوانين الرومانية تسمح للطلبة الأجانب باستيراد سيارة سياحية دون جمارك .

عام أربعة و سبعين كان عاماً مُنهِكاً لي ، فأنا مضطرب يومياً للسفر مسافة تزيد على مائة وعشرين كيلو متراً ذهاباً وإياباً ، وهذا إضافة إلى العمل المتواصل لتحضير

مستلزمات الدراسة، والدراسة المتصلة ، وما يتطلب ذلك مني من جهد من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل. إرهاقٌ جسدي وفكري ونفسي.

وحدث ما لم يكن بالحسبان ، إذ توفي المشرف على رسالتي للدكتوراه ، الأستاذ بوجдан ، فكان القدر يقف لي بالمرصاد ، ويعني هذا أنني مضطرب للبحث عن أستاذ مشرف جديد ، وتغيير موضوع أطروحة الدكتوراه ، وإلغاء امتحانيين ودبلوم كنت قد أنجزتها مع المشرف الأول .

وبالتشاور مع المشرف الثاني الأستاذ يون فاسيلي نيكوليسكو ، والذي كان يشرف على أطروحتي زميلي ياسر حورية و محمد علي الشعار ، انتقلت إلى معهد البولي تكنيك في بوخارست واضطررت إلى تغيير موضوع الأطروحة ، فاختارت الوسائل الكيميائية ، وبهذا أكون قد خسرت أكثر من سنة ونصف من العمل والجد ، ضاعت هباءً من دون طائل ، ولافائدة ترجى . إلا أن الإيجابية في المسألة هو أنني قد عدت إلى بوخارست ، ولم أعد ملزماً بالسفر يومياً ما بين مدينة سكني بوخارست ، ومدينة دراستي بلوبيشت .

ضاعفت جهودي في الدراسة والبحث العلمي ، وخصوصاً بعد أن حصلت وزملائي على موافقة خاصة لإجراء أبحاثنا العلمية في المركز الوطني للبحوث الكيميائية ، تحت إشراف أستاذنا ومساعديه ، وهذا المركز التابع لوزارة الصناعة الكيميائية في بوخارست . وهو مركز أفضل تجهيزاً من معهدنا .

كانت فترة جد وعمل ، لا مجال فيها للتراخي والتواني ، كنت أعمل من الصباح حتى العاشرة ليلاً ، دون توقف أو انقطاع ، وهناك النظري وهو بحاجة إلى تحضير وفهم وهناك العملي وهو بحاجة إلى إجراء التجارب والتأكد من نتائجها .

كانت سنوات جد وكدح ، لم أضع منها شيئاً ، إلا ما ضيقته ظروف وأقدار لا حول لي فيها ولا قوة . وأنهيت دراستي بنجاح ، وحصلت على شهادة الدكتوراه بعد مضي خمس سنوات كاملة إضافة إلى فترة تعلم اللغة الرومانية .

في عام سبعة وسبعين ، قمت بزيارة خاصة مع صديقي ياسر حورية و حنا ليون ، إلى مدينة برلين الغربية ، وهناك اشتريت سيارة شبه حديثة ، سويدية المنشأ من نوع فولفو بقيت معي حتى مغادرتي رومانيا في مطلع عام تسعه وسبعين ، حيث عدت بها إلى سوريا عبر بلغاريا وتركيا ، برفقة زوجتي وابنتي الوحيدة آنذاك فاطمة .

في تلك الفترة من الزمن ، كانت رومانيا تعاني ما تعاني من التضخم الناجم عن ارتفاع سعر البترول ، وضعف إنتاجية الاقتصاد الروماني الشديد المركبة ، وتسييد ما عليها من ديون مستحقة ، أنفقتها رومانيا في تشيد مصانع ذات إنتاجية منخفضة مما أدى إلى ضائقة مالية اقتصادية ، رزح الشعب الروماني تحت وطأتها ، رافقتها سياسة سلطوية قمعية .

عندما عبرت تركيا إلى سوريا في مطلع عام تسعه وسبعين ، كانت تركيا أيضاً تعاني من ظروف صعبة بسبب ارتفاع سعر البترول ، بينما شهدت سوريا في تلك الأيام طفرة اقتصادية مالية توجه معظمها إلى قطاع البناء والخدمات ، سببها تدفق الأموال من دول الخليج العربي النفطية ، التي كانت تدفع بسخاء لسوريا ، إضافة إلى تدفق الأموال من العاملين السوريين في تلك الدول .

كانت سوريا تعيش في حينه فترة رخاء ، مقارنة برومانيا . كانت رومانيا قد أعطتني فكرة غير جيدة عن دور الدولة في الاقتصاد ، و كنت أحمد الله أن دور الدولة في سوريا لم يكن تماماً كما هو الحال في رومانيا .

كانت أسعار الطاقة هي الأكثر أهمية في الأوساط السياسية والاقتصادية ، وقد أثرت سلباً بشكل كبير على رومانيا وبلغاريا . إلا أنني فوجئت بها في تركيا أثناء عبوري للأراضي التركية بسياري الخاصة ، كانت آثارها أكثر سوءاً في تركيا ، ومحطات الوقود فارغة تماماً من المحروقات . وحين نَفِدَ وقود سياري ، لم أستطع تأمين وقود لها إلا بصعوبة بالغة ، ودفع أسعار مضاعفة . وحين وصولي أرض الوطن قضيت فترة استراحة في السلام على الأهل ، والأقارب والأصدقاء الذين جاؤوا مهنيين لي

بسالمة الإياب ، ومباركين لي بالنجاح ، والحصول على شهادة الدكتوراه . أصبحت الدكتوراه بيدي ، وهي ما كنت أطمح إليه ، أما العمل .. فشيء آخر . بدأت بالتفكير بما يجب علي فعله ، انتهى زمن الدراسة والتحصيل العلمي ، وقد قضيت في سبيل ذلك زمناً ، حوالي ثلاثة وثلاثين عاماً ، وأنفقت أموالاً طائلة . إنها فترة نضال حقيقي ، وقد تكللت جهودي بالنجاح - والحمد لله - وما لقيته من عناء وتعب ، كان لا يعدل شيئاً عندي بالنسبة لما حققته من نيل لما أريد ، فكان ما لقيته هيئاً .

إذا اعتاد الفتى خوض المعالي
 فأيسر ما يمر به الوحول
 كانت الطريق إلى الدكتوراه مفروشة بالمتاعب ، بدءاً من سورية التي غادرتها على عجل من أجل الدكتوراه ، وسعياً بكل جد لتحويل المنحة إلى دكتوراه ، بعد أن كانت دبلوم اختصاص . لم يكن الطريق ممهدًا بل كان وعراً مليئاً بالأشواك . أضف إلى كل ذلك مفاجآت منها ما هو بفعل القدر ، ومنها ما هو بسبب الظروف ، إلا أن الانضباط والمتابعة والجد المتواصل أوصلوني إلى ما أريد . نعم حققت ما أردت ، وكلفني هذا ما كلفني من جد ومال وسهر الليالي ، وكان ذاك عليّ يسيرًا سهلاً فالملهم هو النتيجة .

تهون علينا في المعالي نفوسنا
 ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر

سورية تسعة وسبعين التي جئتهااليوم ، هي غير سورية ثلاثة وسبعين التي غادرتها متوجهاً إلى رومانيا ، وذلك بسبب تدفق الأموال إليها ، وتغير أنماط المعيشة فيها . وأنا اليوم غير ذلك الشاب في عام ثلاثة وسبعين .

كان هناك إنفاق كبير للأموال في سورية ، وأكثر هذا الإنفاق يكاد يكون على القطاع الاستهلاكي ، أما الإنتاجي فقد كان خجولاً ، وذلك واضح من طبيعة المعروضات التي امتلأت بها الأسواق السورية .

وأخذ التضخم يطغى على أجهزة الدولة بحشد الأعداد الكثيرة من الموظفين غير المنتجين فيها ، وسيطرة العقلية الاستهلاكية أمام تراجع العقلية الإنتاجية ، فبدلاً من

إنشاء المؤسسات الإنتاجية ، والمعامل ، والمصانع ، كانت سورية تعتمد أكثر فأكثر على البضائع المستوردة .

وبدأت أفكـر بما أقوم به ، وقـمت بالعـديـد من الـزيـارات لـمعـارـفـي الـقدـامـي بـحمـص أـوـدمـشـق بـحـثـاً عـن عـمـلـ.

كان في رأسي اهتمامـين أـسـاسـيين ، الـاهـتـمـامـ الأول هو الـعـمـل بمـصـفـاةـ الـنـفـطـ فيـ حـمـصـ الـتـيـ عـمـلتـ بـهـ جـامـعـاًـ مـنـ قـبـلـ ، أوـ مـصـنـعـ الـأـسـمـدـةـ فيـ حـمـصـ .ـ أـمـاـ الـاهـتـمـامـ الثانيـ فـكـانـ الـعـمـلـ كـمـدـرـسـ فيـ جـامـعـةـ الـبـعـثـ بـحـمـصـ ،ـ وـكـانـتـ فيـ بـدـاـيـاتـهـ ،ـ وـكـانـتـ أـوـلـىـ كـلـيـاتـهـ الـهـنـدـسـةـ الـبـتـرـوـكـيـمـاـوـيـةـ ،ـ قـدـ قـطـعـتـ شـوـطـاـ لـأـبـاسـ بـهـ .ـ

بعد العـديـدـ مـنـ الـمقـابـلـاتـ وـالـمـشاـورـاتـ اـسـتـقـرـ الرـأـيـ -ـ وـتـلـكـ مـشـيـئـةـ اللـهـ -ـ أـنـ أـعـمـلـ فيـ شـرـكـةـ الـأـسـمـدـةـ بـحـمـصـ ،ـ وـكـانـتـ تـضـمـ ثـلـاثـةـ مـصـانـعـ:ـ مـصـنـعـ السـمـادـ الـأـزـوـتـيـ ،ـ وـمـصـنـعـ سـمـادـ الـيـورـيـاـ ،ـ وـمـصـنـعـ الـأـسـمـدـةـ الـفـوـسـفـاتـيـةـ ،ـ الـذـيـ كـانـتـ شـرـكـةـ رـوـمـانـيـةـ تـقـومـ بـإـنـشـائـهـ .ـ

فيـ مـطـلـعـ حـزـيرـانـ مـنـ عـامـ تـسـعـةـ وـسـبـعينـ ،ـ باـشـرـتـ الـعـمـلـ فيـ شـرـكـةـ الـأـسـمـدـةـ ،ـ وـلـمـ يـكـنـ عـمـلـيـ مـحدـداـ،ـ فـقـدـ تـهـمـ تـسـلـيـمـيـ غـرـفـةـ فيـ الطـابـقـ الـأـوـلـ ،ـ مـقـابـلـ مـكـتبـ المـدـيرـ الـعـامـ ،ـ وـكـانـ لـلـشـرـكـةـ فيـ حـيـنـهـ مـدـيرـاـ مـؤـقاـتاـ مـكـلـفاـ بـتـسيـيرـ أـمـورـهـ .ـ بـدـأـتـ عـمـلـيـ بـجـهـودـ خـصـصـيـةـ ،ـ وـدـوـنـ تـكـلـيفـ مـنـ أـحـدـ ،ـ وـذـلـكـ بـالـاطـلـاعـ عـلـىـ وـاقـعـ الـعـمـلـ فيـ أـقـسـامـ الـشـرـكـةـ ،ـ كـانـ عـلـىـ أـنـ أـطـوـرـ نـفـسـيـ ،ـ وـأـفـيدـ الشـرـكـةـ مـنـ خـبـارـاتـيـ ،ـ وـإـمـكـانـيـاتـيـ .ـ لـعـلـيـ أـعـمـلـ مـاـ يـفـيدـ ،ـ وـيـطـورـ إـنـتـاجـيـةـ الـشـرـكـةـ كـمـاـ وـنـوـعـاـ .ـ

بعـدـ فـتـرـةـ وـجيـزةـ لـمـ تـجـاـزـ الشـهـرـ وـالـنـصـفـ ،ـ تـمـ إـرـسـالـيـ إـلـىـ بـرـيـطـانـيـاـ عـلـىـ رـأـسـ وـفـدـ مـنـ الـفـنـيـنـ السـوـرـيـنـ ،ـ تـلـبـيـةـ لـدـعـوـةـ مـنـ إـحـدىـ شـرـكـاتـهـ ،ـ وـذـلـكـ لـلـإـطـلـاعـ عـلـىـ تـجـربـةـ تـلـكـ الشـرـكـةـ فيـ إـنـتـاجـ وـاسـتـخـدـامـ الـوـسـائـطـ الـكـيـمـيـائـيـةـ ،ـ وـالـتـيـ هـيـ مـوـضـوعـ رـسـالـتـيـ فـيـ الدـكـتـورـاهـ .ـ

استـغـرـقـتـ زـيـارـتـناـ لـبـرـيـطـانـيـاـ أـكـثـرـ مـنـ أـسـبـوعـيـنـ ،ـ وـكـانـتـ زـيـارـةـ مـفـيـدـةـ مـنـ جـوـانـبـ عـدـةـ .ـ بـعـدـ عـودـتـيـ مـنـ بـرـيـطـانـيـاـ ،ـ حـاوـلـتـ تـطـبـيقـ هـذـهـ الـمـعـارـفـ ،ـ سـوـاءـ مـنـهـاـ مـاـ كـنـتـ

أعرفه ، وما أضفته إلى معرفتي خلال هذه الزيارة ، فموضوع رسالة الدكتوراه التي أحملها ، هو في الوسائل الكيميائية بشكل عام ، والبتروكيمائية بشكل خاص .

فور عودتي باشرت عملي في الشركة ، وأخذت أطورو معلوماتي أيضاً في مجال معالجة المياه الملوثة . ولكن ذلك لم يحقق لي الانسجام لـ مع نفسي ، ولا مع البيئة التي كانت محطة بي ، وأخذ ينابني إحساس أن العمل الوظيفي لا يعني أكثر من الحصول على الراتب في نهاية الشهر ، وأن الموظفين كلهم كذلك ، ينخرطون في سلك الوظيفة ، ولا هم إلا الحصول على المرتب الشهري ، وهي فرضية كنت أمقتها شديداً ولا أرضى لنفسي أن أكون موظفاً هدفه الراتب الشهري ، وما الأجر الشهري إلا لقاء عمل وأنا في منظور نفسي لا أقوم بعمل أستحق عليه الأجر الشهري الذي أتقاضاه ، إضافة إلى أن ما أقوم به من عمل لا يشبع رغبتي العلمية ، ولا يتناسب مع طموحاتي ، ولا تربיתי . يجب أن أكون فاعلاً ، مؤثراً ، عالماً ، عاماً ، ولا شيء من ذلك تتحقق أو يمكن تحقيقه في مكان عملي هذا ، لا شيء يشبع رغبتي العلمية الإنتاجية ، ومع ذلك فإن الراتب الشهري الذي أحصل عليه لا يغطي نفقاتي ، ولا يفي باحتياجاتي التي هي في ازدياد مضطرب ، وكلما تقدمت بي الأيام .

ودائماً كانت تزداد قناعتي بأن بقائي في العمل الوظيفي سيحولني بمرور الأيام إلى شخص لا مبالٍ ، إنسان لا هم له إلا أن يأكل ويعيش ، ويسقط كل ما قمت به من دراسات وأبحاث ، وتتحول مع الأيام إلى منسياً وذكريات .

كنت في جامعة دمشق ، درست ، نجحت ، وذهبت إلى رومانيا ، وحصلت على الدكتوراه وأرضيت طموحاتي العلمية . ولكن هذا لا يكفي ، ولست من الذين يرضون بالحلول الناقصة ، أن يقال جاء الدكتور وذهب الدكتور . وخشية من أن يتغلب عليَّ الزمن ، وتسلمني الأيام إلى الكسل والركون إلى ما أنا فيه ، فالإنسان تؤثر فيه السنون ، فيكون رضاه بالواقع ممكناً أكثر من الشباب استعجلت الأمر وأنا في أواخر سني الشباب ، قبل أن تتحكم بي السنون اللاحقة وتغلب على ما يحول

بخارطي ، وتشيني عما اعزم عليه .

اتخذت قراري ، ومن دون تردد بالاستقالة من وظيفتي التي لم يمض على ممارستي العمل فيها الشهور الأربع ، وكنت أحسب أن مجرد تقديم الاستقالة يكفي ، ولكنني فوجئت بإجراءات إدارية وروتينية استطاعت بجهودي الشخصية التغلب عليها ، وقُيلَت استقالتي ، وأخذت أراجع نفسي ، هل كان قراري بتركي العمل صائباً ، توظفت بسرعة واستقلت بسرعة ، وتبيّن لي أن عملي في هذه الشركة لم يكن صائباً ، وكان خطأً صحته فأنا لم أُفِد نفسي ولا وطني بشيء ، لم أطور أبحاثي العلمية ، ولم أعمل شيئاً أستحق عليه أن أتقاضى أجراً . وقد شعرت - وللمرة الأولى في حياتي - بعد محاسبة يبني وبين نفسي ، أنها المرة الأولى التي تقاضيت فيها أجراً من دون عمل ، وأن هذا المال هو مال حرام ، ولا يحق لي أخذه وإنفاقه ، فهو أجراً من دون مقابل ، وإنه لمن الصعب على الإنسان أن يتقاضى مالاً حراماً ، وهذا مردُه إلى تربية ذات جذور دينية عميقة وراسخة .

وفجأة عادت الخدمة العسكرية بعد طول تأجيل دراسي ، تدعوني للالتحاق بها ذلك قبل عدة أيام من انتهاء عملي في الشركة ، إذ أن استقالتي يسري مفعولها في نهاية أيلول من عام تسعه وسبعين ، مرة أخرى جاءتني الدعوة للخدمة العسكرية ، فقد انتهى التأجيل الدراسي الطويل من الصف الحادي عشر ، والتأجيل الدراسي يسري مفعوله إلى الجامعة إلى الدكتوراه ، ثم التأجيل الإداري .

كنت قد نسيت موضوع الخدمة العسكرية بسبب الزمん الطويل ، و هاؤنذا قد شارفت على الثانية والثلاثين من عمري ، وأنا رب أسرة مؤلفة من زوجة وابنتين فاطمة (فاتن) وكِنْدَه ، وأدعى مجدداً للخدمة العسكرية ، حيث أن الله رزقني ابنتي الثانية كِنْدَه في آب من عام تسعه وسبعين . ولما علمت أنه يمكن إعفائي من الخدمة العسكرية ، إذا عملت خمس سنوات متالية على الأقل ، في دول الخليج العربي النفطية ودفع بدل نقدي بالعملات الصعبة للدولة ، فقد قبلت الأمر وعزمت

على السفر ، ولكنني حتى تلك اللحظة لم أكن عارفاً آلية السفر إلى تلك الدول ، ولاكيف يحصل الذي يريد السفر على تأشيرة الدخول إليها، وبدأت العمل للحصول على تأشيرة دخول إلى الإمارات العربية المتحدة أو المملكة العربية السعودية ، وبعد جهود مضنية و سعي لا يعرف الكلل استغرق أكثر من شهر ونصف ، حصلت على تأشيرة زيارة إلى السعودية ، كان ذلك في منتصف تشرين الثاني من عام تسعة وسبعين ، وسافرت إلى عاصمتها الرياض ، على أول طائرة مغادرة من مطار دمشق ، وجدت فيها مقعداً وكأني بذلك نلت المنى ، وتجاوزت الصعب .

لم أكن أعرف أن مرحلة الصعب والأهوال قد بدأت بنزولي في الرياض ، كان الخريف في سورية قد غادرها ، وأصبح الطقس يميل إلى البرودة ، فقد ولى حر الصيف ، وهبت على بلاد الشام الرياح الباردة ، إنها رياح أواخر الخريف ، وتلبد جوها بالغيوم المتقطعة التي تبشر بقدوم الشتاء .

إلا أن ذلك لم يكن في السعودية ، كان جو السعودية ورياضها التي نزلتها في قمة الصيف حاراً وجافاً أكثر مما تعودته في سورية ، ناهيك عما تعودته في رومانيا . كانت الرياض شبه مقفرة بسبب موسم الحج الذي صادف وصولي إليها ، لم يكن لدى علاقات في السعودية ، ولا ذهبت إليها بدعوة من شركة ، ولا صديق ، وليس لي فيها معارف . حتى أني كنت كالذى يتخطى على غير هدى ، وكان كل همي الحصول على الإقامة لمدة خمس سنوات ، وعمل يغطي نفقاتي خلال تلك الفترة ويمكّنني من توفير المال اللازم لدفع البدل النقدي للإعفاء من الخدمة الإلزامية .

بعد مضي مدة شهر أو أكثر ، أقمت خلالها بأحد الفنادق المتواضعة ، تمكنت من تحويل تأشيرة الزيارة التي أحملها ، إلى تأشيرة عمل بكفالة شاب سعودي اسمه حسين العلي ، تعرفت عليه في الطريق ، أثناء تجوالي المستمر في شوارع مدينة الرياض بحثاً عن كفيل كان من مدينة الإحساء ، عمره أقل من ثلاثين عاماً ، كان شاباً طموحاً ، يعمل مقاولاً صغيراً لبعض المشاريع التي يحصل عليها من الحكومة

السعودية ، كان حسين العلي يحتاج إلى كل شيء لتنفيذ مشاريعه ، ولكنه لم يكن بحاجة إلي ، وإلى اختصاصي النادر كان بحاجة إلى المعماريين ، والبنائين ، والمبلطين ، والدهانين ، وعمال الحفر والحدادين ، والنجارين ، والمحاسبين ، ولم أكن واحداً من هؤلاء على الإطلاق ، ولم يكن لدى خبرة حتى في شراء ما يلزمه من تجهيزات ، أو مواد أو أي شيء مما يحتاجه لعمله ، لكنه وبالرغم من ذلك ، وعلى أمل أن أكون عنصراً مفيدةً لتطوير عمله ، فقد أستأجر لي بيته ، واشترى لي سيارة ، وقال لي: عندما تنجح أدفع لك أجراً ، وكيف أنجح؟! وبدأت رحلة أخرى ، وأخذت أراجع نفسي وأحاول من دون جدوى .

خلال بحثي وتجوالي التقى بزوج أخي السيد عبد الكريم خطاب ، والذي كان يعمل مع زملائه ، ببناء بيوت على الهيكل . ورغم الحفاوة التي لاقيتها عندهم ، واهتمامهم بأمري ، إلا أنني لم أستفد شيئاً ، لا من معارفهم المحدودة ، ولا من العمل الذي يقومون به ، فليس هذا مجالـي .

بدأت أبحث عن عمل ، كان بحثي عن العمل يومياً ، من الصباح حتى المساء ، طرقت كل الأبواب ، فوجدتـها موصدة بوجهـي ، لم يفتحـ لي أيـ منها ، كلـما طرقت بابـاً للرزقـ أغلـقـ دونـي ، وكـأنـ لا رـزـقـ ليـ هناـ .

كـنتـ حـلـيقـ اللـحـيـةـ وـالـشـارـبـ حتـىـ تـلـكـ السـنـ ، فـجـربـتـ إـطـلاقـ شـارـبـيـ لـعـلـ فـيـ ذـلـكـ فـائـدـةـ وـحتـىـ لـاـ يـكـونـ فـيـ مـظـهـرـيـ ماـ يـدـعـوـ لـحـرـجـهـمـ منـيـ ، كـأـنـيـ جـسـمـ غـرـيبـ ، لـمـ يـقـبـلـنـيـ أـحـدـ . كـلـ مـحاـواـلـاتـيـ التـيـ قـمـتـ بـهـاـ بـاعـتـ بالـفـشـلـ ، يـاـ لـلـعـجـبـ مـاـ هـذـاـ الـامـتـحـانـ الصـعـبـ ، إـنـهـ مـنـ أـصـعـ الـمـعـادـلـاتـ ، بلـ هـذـهـ مـعـادـلـةـ يـكـادـ يـسـتـحـيلـ حـلـهـ ، وـلـ بـدـ مـنـ أـجـدـ لـهـ حـلـاـ وـأـصـابـنـيـ الإـرـهـاـقـ ، وـبـدـأـتـ قـوـايـ تـتـدـاعـيـ ، حتـىـ أـنـ شـعـرـ ذـقـنـيـ قـدـ تـسـاقـطـ مـعـظـمـهـ ، لـشـدـةـ هـمـومـيـ وـمـاـ عـانـيـتـ . وـكـمـ مـنـ لـيـلـةـ يـتـ حـزـينـاـ ، وـأـوـيـتـ إـلـىـ فـرـاشـيـ ، وـالـأـفـكـارـ تـعـصـفـ بـرـأـسـيـ عـصـفـاـ شـدـيدـاـ ، إـلـىـ أـنـ أـصـبـحـ النـصـفـ الـأـيـسـرـ مـنـ ذـقـنـيـ دـوـنـ أـيـةـ شـعـرـةـ ، تـمـاماـ كـجـبـهـيـ ، وـمـعـ الـمـعـالـجـةـ ، وـبـعـدـ عـدـةـ شـهـورـ ، بـدـأـ الشـعـرـ يـنـتـ فـيـ ذـقـنـيـ مـنـ جـدـيدـ .

أخذت أراجع ما مضى ، وأنا أبحث عن عمل .. أي عمل ، فلا أحصل عليه ، في سورية كان العمل بالإجازة الجامعية ، وبالدكتوراه ، فتركت ، وأنا الآن أبحث وأبحث ، وقد أرهقني البحث ، ولم أحصل على أي عمل ، لا بمؤهلاتي العلمية ولا بدونها .

وأحاطت بي الهموم ، واستبدت بي الظنو ، هل ما قمت به ، كان خطأً أدفع ثمنه الآن بهذه العقوبات التي أعقّب بها ؟ هل أخطأت عندما تركت العمل في سورية ؟ ودخلت في دوامة هذا التفكير ، أيامًا وشهورًا ، ولكن إيماني بالله وبأقداره ، جعلني أفكر في إكمال مشواري ، إكمال ما بدأت به ، وأن المطلوب المتابعة ، أو لست القائل في تقييم نفسي بأنني الرجل المُنظَّمُ والمُتَابِعُ والمُؤْفَقُ . سأكمل المشوار حتى النهاية ، ولو كلفني ذلك ما كلف من جهد و عناء ، لن أدع مجالاً لل Yas ، فلأعد إلى محاولاتي ، من قرع جديد للأبواب ، ولا بد لله أن يجعل لي مخرجاً من هذا الضيق الذي أنا فيه ، أما اليأس ، فلن ي Yas ، ولو طال الزمن ، وطالت رحلة البحث والشقاء . لن أتراجع ، ولو كلفني ذلك ما كلف ، فإرادتي لا تقهق عزيمتي لا تلين ، وبإذن الله لن تلين .

ومرة أخرى ، رحت أتجول في شوارع مدينة الرياض بحثاً عن عمل ، فما بقيت لوحه إلا وقرأتها ، وراجعت أصحابها ، وعرضت مؤهلاتي العلمية عليهم ، ولكن دون جدو ، والمشكلة التي أعاني منها ، أن الجميع يريدون مهني ، فما أن أسلم على أحدهم وأعرض عليه العمل عنده ، إلا وسألني : ماذا تعمل ؟ ما هي المهنة التي تجيدها ؟ وماذا يجيد مثلي غير العمل الفكري . ماذا يجيد حامل الدكتوراه من الأعمال غير إعمال الفكر والبحث ، ومرة أخرى ، أخذت الدنيا تسود في وجهي ، وأخذ الخناق يضيق من حول عنقي . تقدمت إلى شركة الزيت العربية الأمريكية (آرامكو) ، عارضاً العمل لديهم ولكنهم رفضوا طلبي ، والسبب في ذلك أنني أحمل شهادة دكتوراه من دولة شيوعية والشيوعية لا دين لها ، وهم أصحاب دين ، فحسبني الله ونعم الوكيل . بعدها تقدمت إلى المؤسسة العامة لتحليل الماء ، وهي مؤسسة

حكومية سعودية ولنفس السبب رفضوا طلبي ، كل المؤسسات الحكومية رفضت طلباتي لنفس السبب . وحين توضحت لي الفكرة ، وانجلت عن ناظري ما خفي من أمرهم ، واعتقادهم ، تركت طرق باب المؤسسات الحكومية . ومرة أخرى ، وليت وجهي شطر مؤسسات القطاع الخاص ، لعلي أجد فيها ما لم أجده في المؤسسات الحكومية . حيث كانت اهتمامات القطاع الخاص منصبة على الاستيراد والمقاولات ، أما الاستيراد فلم أكن أعرف شيئاً عنه ، وماذا يستفيد المستورد من رجل يحمل شهادة دكتوراه في الوسائل البتروكيميائية ، وأما المقاولات و عالمها ، فلم يكن لي أية خبرة بها ، فلا هنا لي عمل ، ولا هناك لي أمل ، فشهادتي لا تصلح إلا في مجال الصناعات الكيميائية و الدولة السعودية ، مالكة هذه الصناعات ، ليست بحاجة إلى خريجي الدول الشيعية من أمثالي !

**أَغْرِبُ خَلْفَ الرِّزْقِ وَهُوَ مُشَرِّقٌ
وَأَقْسِمُ لَوْ شَرَقْتُ رَاحَ يُعَرِّبُ**

كل ما يلزمها من ثياب ، وحتى الطعام تستطيع السعودية أن تستورده ، بأموالها الكثيرة ، مما عليها إلا أن تستورده ، وكل شيء جاهز لمن يدفع ، وكل شيء يأتيها بالباخر والطائرات إذاً لا حاجة لهم بأمثالي .

أما التصدير فلا حاجة إليه ، فهم يستوردون كل شيء ، والأسواق مملوقة بالمستورد من كل حدب و صوب ، في تلك الفترة كان كل شيء قائماً على الاستيراد ، إذ لا شيء يصدر باستثناء النفط الخام ، يستوردون اللباس ، الطعام ، المواد الأولية للبناء . إلا أنهم يقومون ببناء البنية التحتية ، و المباشرة ببناء العديد من الصناعات الخفيفة والمتوسطة و حتى الثقيلة منها .

النشاط التجاري محصور فقط بالسعوديين ، يعاونهم في ذلك الكثير من ذوي الخبرة من الدول العربية ، والأجنبية و هم يعملون بأجور مقطوعة شهرية ، أو بنسبة من الربح . وقد تم استقدامهم من ذوي الخبرات في هذا النشاط .

أما أعمال المقاولات ، فتلك قصة أخرى ، ولكنها لم تكن بعيدة عن موضوع النشاط التجاري ، لتعطية حاجة المقاولين من الآليات و المواد الازمة لتلك المشاريع ،

وكان معظم تلك المواد يستورد من خارج السعودية .
وعملاً بمقولة : إن لم تكن بقرُّ فَمِعْزِي ، وسعيًا مني للحصول على أي عمل ، فقد تجاهلت أنَّ لدى مؤهلات علمية ، لا دكتوراه ، ولا حتى بكالوريوس ، المهم أن أعمل ، فعملت مرة في مؤسسة لاستيراد المواد الصحية ، بوظيفة أمين مستودع ، إذ ليس بالإمكان أفضل مما كان لأعمل إلى حين توفر مجال آخر للعمل ، وعملاً بقول القائل: لا تستح من إعطاء القليل فالحرمان أقل منه ، صحيح أن هذا شيء قليل ، ولكن حتى هذا القليل كنت سعيداً به بعض الشيء ، المهم أن أعمل ، ولتذهب المؤهلات وتتوارى إلى حين ، ولكنَّ هذا القليل الذي رضي به لم يرض بي .

ومرة أخرى ، يغلق الباب في وجهي ، وأفلَّت نجوم سعدي ، وطالعني النحوس ، كان النحس يتصدني أينما ذهبت . استلمت عملي أميناً للمستودع الذي كانت مساحته حوالي مائة متر مربع ، وبدأت العمل . أخرجت ما في المستودع من محتويات ، وبدأت عملية تنظيف له ، ولمحتوياته من الأواني البورسالية وغيرها ، يوم واحد لم يمض غيره ما غربت شمسه حتى جاءني رسول من رب العمل ليخبرني أن رب العمل قد استغنى عن خدماتي .

ومرة أخرى وجدت نفسي بلا عمل ، ولم أصدق أنني وجدت عملاً حتى فقدته . " لا حول ولا قوة إلا بالله " ما هذا العناء ؟ لقد غاظني ذلك ، واشتد عليَّ الضيق ، وعندما حاولت الاستفسار عن سبب رفضي ، وشطبي من العمل قال لي أحد العاملين : أن صاحب العمل عندما علم من خلال جواز سفري ، أنني أحمل شهادة دكتوراه ، اعتبر أن من غير المعقول لمثلني أن يقبل بعمل كهذا إلا إذا كانت له دوافع أخرى ، " ففَكَرْ وقدر فُقْتِلَ كَيْفَ قَدَرْ " وكما يتصرف العقلاء ، فهو ليس بحاجة إلى وجع الرأس ، وظن أنني قضية ستجلب له وجع الرأس فطردني . طردني من العمل ليوفر على نفسه التفكير والألم وأنني له ذلك .

أما التفكير فسبحان الخالق ، وأما الألم .. فمن أين الإحساس ؟ وأما أنا .. فلن يضيعني ربي سأسعى حتى النهاية ، ولِيَكْلِفْنِي ذلك ما يكلف ، الإفلاس والاقتراض من

الآخرين وتابعت رحلة البحث، إذ لم يكن لدى خيار آخر.

أثناء تجولي باحثًا عن عمل، زرت شركة السيد، وهي شركة تقوم على استيراد الملابس الجاهزة الرجالية من إيطاليا، وتقوم ببيعها سواء لمحالتها العائدة لها بالرياض، أو البيع بالجملة إلى محلات أخرى، وتقدمت إلى الشركة وقبل طلبي، ولم أطلعهم على مؤهلاتي العلمية، وعملت في الشركة عدة أيام اكتشفوا هم، كما اكتشفت أنا، أن لا فائدة ترجى، فلا خبرة لي في هذه المجالات، ومن أين تأتيني الخبرة، وهل كنت أدرس الخيوط التركيبية، وكيفية صناعة الأقمشة وخياطتها وطرق تسويقها؟ ومرة أخرى، وجدت نفسي بدون عمل بعد العديد من المحاولات،

رحلة شقاء لم أعرف لها مثيلًا في حياتي، سنة كاملة أو أكثر من البحث.

وأقبل خريف عام ثمانين، فسافرت إلى بلدي سوريا لقضاء إجازة، ومشاهدة الأهل وكانت رحلتي - هذه المرة - راكبًا عاديًّا في الباص، عندما كنت طالبًا كنت أمثل سيارة أتنقل بها كيف أشاء، وعندما أصبحت دكتورًا، أركب الباص، مشيئة الله، فليس عندي نقود أقتني بها سيارة خاصة، ولا ما يكفي للسفر بالطائرة، قضيت حوالي أسبوعين في سوريا.

كانت نتائج الثانوية في سوريا قد أعلنت، وكان من الناجحين فيها أخي زياد رحمه الله وقد حصل على الثانوية العامة، بمعدل لا يسمح له بدخول أي من الجامعات السورية، وتحت ضغط شديد من والدي، سافرت إلى رومانيا، بغرض الحصول على منحة دراسية لأخي زياد، مستفيدًا من علاقاتي السابقة في رومانيا خلال السنوات التي قضيتها هناك، ولمعرفتي بكيفية الحصول على المنح، وبعد جهود مضنية استغرقت أكثر من أسبوع، تمكنت من الحصول على منحة دراسية لأخي زياد، لدراسة الهندسة المدنية.

في هذه الأثناء، تشاء إرادة الله أن ألتقي بأحد معارفي السابقين، من كبار الموظفين الرومان في حديقة هيرسترو في بوخارست، الذي اقترح علي افتتاح مكتب تجاري هناك، ولم أكن أعرف عن المكاتب التجارية إلا الاسم.

وُعدت من رومانيا إلى سوريا ، وحصلت على الموافقات الالزمة لسفر أخي زياد ، وبعد أن أرسلته إلى رومانيا ، ذهبت بدوري إلى السعودية ، فلم يأس بعد ، ليس اليأس والإحباط من طباعي .

كان خريف عام ثمانين ، قد انتَصَفَ ، وبدأت رحلة طرق الأبواب من جديد ، للبحث عن عمل ، وكان من الأبواب التي طرقتها في رحلة البحث شركة يديرها الشاب غازي محمد القصبي ، وهي شركة عائلية صغيرة ، تستورد المأكولات الكورية ، وتبيعها للعاملين الكوريين ، الذين يعملون في مجال المقاولات في الرياض . وحدثني أنه يشكو من مرض في إحدى عينيه ، وأنه بحاجة إلى جراحة عينية ، فعرضت عليه إجراء الجراحة في رومانيا ، حيث أن هناك طبيب عسكري مشهور بطب العيون ، وسافرنا معاً إلى رومانيا وأجْرِيت له العملية ، في المشفى العسكري الروماني ، على يد الطبيب الأستاذ أولتيانو والذي كان طبيباً ذا شهرة في داخل رومانيا وخارجها .

نجحت العملية ، مما حدا بغازى القصبي إلى زيادة ثقته بي ، وفي أثناء تواجدنا في رومانيا اتفقنا معه على إنشاء مكتب تجاري في رومانيا ، يقوم هو بدفع خمسة وعشرين ألف دولار كنفقات تأسيس ، وأقوم أنا بالحصول على عروض المنتجات الرومانية ، أنا أشتري من رومانيا ، وهو يقوم بتسويقها في السعودية . ونُوزع الأرباح والخسائر مناصفةً .

ونظراً لعدم وجود علاقات دبلوماسية بين السعودية ورومانيا ، كونها شيوعية ، فقد لقيت مصايب جمة ، واستدعيت كل معارفي هناك ، وتمكنت من الحصول على رخصة المكتب من وزارة الخارجية الرومانية ، وكأننا بعثة دبلوماسية ، وبأجور مخفضة ، وهذا أفادنا في أن أجور المكتب مع تشغيل موظف رومني واحد ، للعمل في المكتب ، كانت حوالي ثلاثة آلاف دولار أمريكي في الشهر .

بدأت العمل بزيارة الشركات الرومانية ، وجميعها حكومية - إذ لا وجود للقطاع الخاص فيها بغية الحصول على عروض أسعار ، ومنها أسفر إلى السعودية ، على أمل

الحصول على فرق سعر أو أتعاب ، في حال البيع ، وقد اكتشفت فيما بعد أن شريك غازي القصبي ليس لديه أية خبرة في أعمال التسويق ، ولا الرغبة في تعلم ذلك ، وأن علي العمل في رومانيا للحصول على عروض منتجاتها ، وال سعودية لبيع هذه المنتجات فيها ، وقبلت العمل مبتدئاً على مضض . وبدأت بجمع مواصفات وأسعار المواد الصحية ، والكهربائية والمفروشات، وكل ما أعتقد أن رومانيا تنتجه وتحتاج إليه السوق السعودية .

وبعد جهود مضنية ، تمكنت من بيع كمية بسيطة من الرخام ، و لكن الجانب الروماني لم يدفع لنا عمولة أتعابنا ، ومرة أخرى لم أحْجِن فائدة تذكر ، سوى النفقات . قمت بجهود خاصة مني بعقد وساطة ، بين الجانب الروماني ، ومؤسسة عبد العزيز المعجل السعودية لبيع المفروشات ، والتي كان لديها معرض كبير . كان الاتفاق على إقامة معرض كبير للمنتجات الرومانية بالرياض ، و كنت أتصور أن هذا المعرض سيكون فاتحة خير لي ، وبداية كسب مادي . وبالفعل فقد تم شحن حوالي عشرين حاوية من المنتجات الرومانية ، وتم عرضها بالرياض لمدة أسبوعين ، والنتيجة أن المعرض فشل فشلاً ذريعاً ، وسبب فشله عاملين اثنين : الأول هو عدم موافقة البائع الرومانية المعروضة بشكل عام ، والمفروشات منها بشكل خاص للذوق السعودي ، والثاني كان ضعف إدارتنا في السعودية ، فقد كان صاحب المعرض وخلافاً للعقد الموقع بيننا يظن بأنني سأقوم بكل شيء ، و كنت أنا بدوري أظن أنه سيقوم بما عليه ، وكانت النتيجة أن تكبّدنا خسائر فادحة ، بلغت حينها حوالي ثلاثين ألف دولار .

في البداية كنت أبحث عن عمل فلا أجده ، كنت أخسر الوقت بحثاً عن العمل ، أما الآن فأنا أعمل وأخسر الوقت والمال ، أخسر الاثنين معاً !! العمل و مشاقه ، والمال المقترض مما زاد الطين بلة .

وبعد عدة أشهر من التعب المضني ، قمت بإعادة البضائع إلى رومانيا ، وكانت أشبه ما تكون بالتالفة ، وعند عودة البضاعة إلى رومانيا ، طالبني الجانب الروماني بدفع

قيمة البضاعة البالغة مائة وثلاثة وستين ألف دولار أمريكي ، وبدأت صراعاً مع الجانب الروماني استغرق أكثر من ستة أشهر ، انتهى بعدم دفعي لأي مبلغ للجانب الروماني مقابل تلف معرضاتهم ، إلا أنهم خسروا ثمن البضاعة وتغليفها وأجور نقلها من رومانيا إلى السعودية وبالعكس ، عبر أحد الموانئ الغربية ، إضافة إلى أنهم فشلوا في بيع أي من منتجاتهم في السعودية ، ولم يحصلوا على أية عقود ، كل هذا أساء إلى صورتي لديهم كرجل أعمال ناشئ وزاد الطين بلة ، فقد خسرت جهودي وما افترضت من أموال ، كما خسرت سمعتي أمام كافة مؤسسات التجارة الخارجية الرومانية ، وكان هذا المعرض القصة التي قصمت ظهر البعير ، ما بيني وبين شريكى غازي ، الذي وإن لم يعلن ذلك ، اعتبر أن كل ما لحق به من خسارة كان بسببي سواء ما كان منه من إيجارات ، وبطاقات طائرات... الخ.

والحقيقة أن أحوال شريكى غازي القصبي ، بدأت تسوء وتتدحرج ، فلم يمض على شراكتنا أقل من عام ، حتى أصبح في عداد الفقراء السعوديين ، بسبب عودة العمال الكوريين إلى بلادهم ، لانتهاء مشاريعهم ، وبالتالي لم يجد شريكى من يبيعه الأطعمة الكورية . فقد باع بيته الجميل في الرياض ، وعاد إلى موطنها في المنطقة الشرقية ، ليقطن في بيت صغير مستأجر ، وليبحث عن عمل جديد يتاسب وإمكانياته .

حتى ذلك الوقت ، كانت إقامتي في السعودية ، بكمالة حسين العلي - حسب النظام المعمول به في تلك الدولة - والذي لا تربطني به أية علاقات ، سوى أنه بعد دخولي إلى السعودية قام بكفالتي . واستأجر لي بيتاً لمدة ستة أشهر ، واشتري لي سيارة أخذهما بعد مضي الأشهر الستة ، البيت والسيارة ، واعتبر أن ما تم كان خسارة ، لكن بالرغم من تسببي في خسارة الاثنين ، فإن علاقتي كانت جيدة بهما ، حيث أني - كما خبراني - مستقيمٌ جادٌ نشطٌ صادقٌ ، لكن دون خبرة ، أو معرفة بما أريد ، ولا كيف أصل إلى ما أريد . واستمرت النكسات ، لكن دون إحباط . في خريف عام واحد وثمانين وقد بلغت بي الصائفة المالية أشدتها ، كنت عائدًا إلى

رومانيا، وأنباء الوقوف بالدور أمام شرطة الجوازات في مطار بوخارست ، دخل معه في الحديث الرجل الذي كان واقفاً خلفي ، كان رجلاً أنيقاً ومهاباً، قدّرت أنه في العقد الخامس من عمره ، وبأسلوب لطيف ولهجة خليجية سألني لماذا كل هذا الظلام في المطار؟ لماذا كل هذا البطء في مرور المسافرين بالرغم من أنهم أقل من رجال الشرطة الموجودين؟ وجالته مجاملة المسافرين . أخبرني أن اسمه فريد مصطفى زين العابدين، سأله عن جنسيته فأجاب بأنه عربي ، وأعدت السؤال فقال بأنه عراقي مقيم في الكويت، ويعمل هناك منذ منتصف الخمسينات.

بعد انتهاء من إجراءات المطار ، ومن باب المجاملة أيضاً عرضت عليه إيصاله بسيارتي، إذ كان لدى سيارة صغيرة من نوع فولكس فاكن طراز غولف محرك ديزل ، فقبل شاكراً وأوصلته إلى الفندق الذي أراد ، وكان قريباً جداً من مكتبي ، وفي صباح اليوم التالي زارني فيه حيث جلسنا قليلاً من الوقت ، حدثني بأنه رجل أعمال متعدد النشاطات داخل الكويت وخارجها ، أما أنا فحدثه عن محاولاتي التجارية غير الناجحة حتى تاريخه . وافترقنا بعد أن أوصلته إلى الفندق ، حيث ذكر لي أنه سيغادر رومانيا مساء نفس اليوم .

بعد عدة أشهر ، ازدادت ضائقتي المالية ، فقد تراكمت علىَ الديون وغدروت عاجزاً عن دفع فاتورة الكهرباء والهاتف، ناهيك عن إيجارات المكتب والسكن الباهظة ، ورواتب مواطن سوري وآخر رومني يعملان معه . إضافة إلى نفقات أخي المرحوم زياد وابن أخي هيثم اللذين كانا طالبين في معهد الهندسة المدنية والجسور والطرق في بوخارست. وبدأت أتصفح دفتر عناوين معارفي لعلي أجده من أستطيع الاقتراض منه، ووجدت أنني قد اقترضت من كل المؤسسين منهم، وشاهدت اسم زين العابدين ، وكلما حاولت الاتصال به ألغيت الفكرة ، فكيف أطلب قرضاً من شخص لا أعرف عنه سوى اسمه، ولم أشاهده أو أتحدث معه إلا مرتين في يومين متاليين ، وصادفةً كنت أتساءل ماذا سيظن بي؟؟! لكن وأنه لا خيار آخر فقد اتصلت متراجعاً بمقسم بوخارست للهاتف طالباً منهم الاتصال برقم زين العابدين في

الكويت، حيث لم تكن الاتصالات الخارجية تتم مباشرة ، وإنما عن طريق مقسم المدينة . كانت الاتصالات الخارجية تتأخر كثيراً، وأحياناً لعدة أيام ، وللمفاجأة فقد طلبت عاملة المقسم مني الانتظار دون إغلاق الهاتف لأن خط الكويت معها ، وما هي إلا دقائق وكنت أتحدث إلى السيد زين العابدين ، الذي ذكرته بنفسي ، وطلبت منه قرضاً بدون تحديد مدة السداد وقدره عشرين ألف دولار أمريكي ، فوافق وطلب مني اسم البنك ورقم الحساب وانتهى الاتصال وبدأ صراعي مع نفسي، حيث وبعد زمن يسير قررت إعادة الاتصال معه وطلب إلغاء القرض، واتصلت بقسم الهاتف في بوخارست طالباً معاودة الاتصال بالكويت ، وكررت اتصالي بالمقسم دون جدوى إلا الانتظار. وانتهى النهار على ذلك ولم أتمكن من معاودة الاتصال .

كان يوماً سيئاً جداً بالنسبة لي ، لم أتمكن من النوم وأنا ألوم نفسي على ما تصرفت، وفي اليوم التالي وعلى غير عادتي حضرت إلى المكتب متأخراً ، وكلي نية بمعاودة الاتصال بصاحب في الكويت لإلغاء طلب القرض ، وما إن دخلت إلى المكتب إلا وهاتف من البنك في بوخارست يعلماني بوصول المبلغ . كانت مشاعري جداً متناقضة ، هل أعيد له المبلغ أم ماذا؟ وقبل نهاية الدوام بقليل ذهبت إلى البنك وسحبت كامل المبلغ ووزعته بنفس اليوم على مستحقيه . وحاوت الاتصال به في الكويت لأشكره ، ولم أتمكن أيضاً هذه المرة من الاتصال .

بعد عدة أشهر فوجئت باتصال منه ، فقلت له مباشرة بأنني لا أستطيع سداد ديني، وذكرته بأنني عند استدانتي منه لم ألتزم بأي زمن للسداد . فأجاب ضاحكاً بأنه يتصل بي ليس للمطالبة بدينه وإنما لطلب مساعدتي في تحصيل حوالي مليون دولار أمريكي من إحدى المؤسسات الحكومية الرومانية في بوخارست ، ثمن مواد قدمها لأحد مشاريعها في إحدى الدول العربية . وهو يطالبهم بها منذ سنوات دون طائل . فطلبت منه وكالة نظامية تفوضني بمتابعة الموضوع واستلام المبلغ في حال تحصيله . - المسألة هنا هي مسألة علاقات وليست مسألة تجارة ، وهذا ما كنت أتقنه

بعكس التجارة - وبذات جهودي دون كلل أو ملل حتى صار المبلغ كاملاً معي ، فحولته كاملاً إلى صاحبي في الكويت، وتمكنت من الاتصال به وإخباره بذلك ، ففرح بالأمر وألح عليّ بقبول مبلغ مئة ألف دولار كأتعاب لي ، فرفضت بشدة ، فعرض مسامحتي بقرضه لي ، فرفضت قائلاً إنها خدمة مقابل خدمة ، وقد كان هو البادي ، وهو ذو الفضل .

وفي العام التالي تمكنت من سداد قرضه والحمد لله ، وبقيت صداقتنا قائمة ووطيدة، دون أن ينشأ بيننا أي عمل ، بالرغم من محاولاتنا المستمرة في ذلك ، وبعد سيطرة العراق على الكويت في عام تسعين ، أقام صاحبي وأسرته في بريطانيا ، ومن هناك انتقل إلى الأردن للإقامة والعمل حيث زرته فيه عام اثنين وتسعين ، ثم انتقل إلى الإمارات العربية المتحدة واستمرينا تبادل الاتصالات والزيارات.

إنه من رجال الأعمال العرب المثقفين ، المتمسكين بعروبتهم ، المتفهمين لدينهم ، استفاد من الطفرة النفطية في العالم العربي ، خلال السبعينات من القرن العشرين ، وعاني الأمرين من ارتجالية ونزوات الأنظمة العربية . في عام اثنين وثمانين اتضح لي أنني أسير خطط عشوائية ، وأن مجالي ليس ما كنت أبحث عنه من عمل في السعودية ، كموظفي عمل بشهادة الدكتوراه التي كانت الطموح الأول بالنسبة لي ، علمياً ، ولما لم أجده مجالاً للعمل في السعودية التي كنت أطمح للعمل فيها ، إضافة إلى الإقامة لدفع البدل النقدي ، قادني بحثي عن عمل إلى ما أنا فيه الآن ، فلو أن ما أسعى إليه أولاً قد تحقق ، ربما سيكون عقبة في طريقي وعائقاً ، فكان ما عانيت من ضيق في البحث عن العمل ، أو كان الأمور تسير إلى ما أريد من حيث لا أدري ، أو هي توفيق أقدار لأقدار . كانت الأمور تسير بصعوبة بالغة ، خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء ، والنتيجة عودة إلى الوراء .

إلا أنني تبينت أن للتجارة أساليبها وطرقها ، فلماذا لا أقوم بما يكسبني مصداقية في عملي ويكون قفزة نوعية للقضاء على النحس المتكرر الذي مازال يطاردني كأنه ظلٌّ لي والطريق أصبح لي معروفاً واضحاً ، فلأجرب ولأتعامل مع الرأس بدلاً من

الفروع. لاحظت أن رومانيا تعاني من أزمة في البترول ، وكان ذلك واضحاً للناظر ، ولني كعربي أقام هناك لفترة طويلة ، والناس هناك يتحدثون عن النفط وعن الطاقة ، وقد ألقى هذا بظلاله على الحياة في كل أنحاء رومانيا ، فغدت كالحة اللون ، تنذر بالشوك ، وسوء الطالع على مختلف مناحي الحياة ، قلت في نفسي هي فرصة وأغتنمها. كان ذلك في صيف عام اثنين وثمانين ، حيث ذهبت إلى وزير التجارة الروماني ، وقابلته مطولاً ، واستفسرت منه عن سبب هذه الأزمة التي يعانيها الرومان في هذه الأيام ، فقال لي : ببساطة السبب عدم وجود المال اللازم لشراء النفط ، فقلت له : سأحاول أن أحضر لكم المال من سويسرا ، فقال لي : إذاً نريد منك أن تؤمن لنا حوالي ثلثين مليون دولار أمريكي ، لشراء ما يقارب مليون برميل من النفط الخام . وذهبت إلى سويسرا برفقة محامي ، من وزارة التجارة الرومانية لإبرام العقد بين الحكومة الرومانية وأحد البنوك في سويسرا .

ولما لم يكن معني من المال شيء ، وكنت في حالة من الإفلاس لا يحسد عليها أحد ، ولما كانت نفقات سفري والمحامي المرافق تقع على نفقي ، قمت باستدانة مبلغ ألفي دولار لتغطية نفقات السفر في الذهاب والإياب ، وكنت أمني النفس بأن هذه الصفقة ستكون منعطفة في مجرب حياتي ، وهناك في سويسرا ذهبت برفقة المحامي الروماني إلى مدير البنك السويسري ، وعرضت عليه الأمر ، فقال لي : إن رومانيا بلد مفلس ، ولا ضمانة له فكانت صدمة لي ، إذ تبين لي أن الدول تفلس كما يفلس الأفراد .

فعدت من سويسرا إلى رومانيا معتبراً العودة إليها مغنمًا ، أو كما قيل : فقد رضيت من الغنيمة بالإياب ، وزيادة الديون المترتبة علي .

ومر عام اثنين وثمانين ، كغيره من الأعوام السابقة ، وأنا في ضائقة مالية شديدة ، حتى ترتب علي ديون كبيرة.

ورغم كل الضغوط الاقتصادية التي كنت أعاني منها كان لدى القناعة بأنه لا بد من الوصول إلى نهاية النفق المظلم ، كنت واثقاً أن الله لن يضيعني ، طالما أني أسير

في الطريق الصحيح ، وأعتمد على الله وأثابه ، ولا تمر فرصة إلا وأغتنمها ، فلا بد أن تأتي الفرصة الملائمة . وأن تسير الأمور نحو الأفضل .

في أواخر ربيع عام اثنين وثمانين ، وبينما كنت مسافراً بالطائرة من الرياض إلى الدمام حيث كنت أحضر إلى السعودية - كل سنة أشهر - لتجديد تأشيرة الخروج والعودة ومحاولة بيع ما يمكن من المنتجات الرومانية ، جلس إلى جانبي رجل سوري الأصل يعمل في مدينة الدمام ، لدى مؤسسة سعودية يملكها داود العصيمي ، وتعمل في مجال الأخشاب المستوردة ، من تشيلي وكندا ، اسمه شihan العُرْ ، وبعد أن تعارفنا سألني إن كان لي علاقة مع منتجي الأخشاب في رومانيا ، وفوجئت بما يقول ، منتجي الأخشاب في رومانيا! ولم يخطر بيالي أن رومانيا تنتج الأخشاب ، بل هي الأشهر في إنتاج خشب البناء من الشوح و خشب المفروشات من الزان ، ناهيك عن باقي الأنواع الأخرى من الأخشاب الخاصة بالبناء والمفروشات . اتفقنا على التعاون ، وسافرنا إلى رومانيا ، كانت المؤسسة الحكومية التي تقوم بتصدير الأخشاب تقع بجانب مكتبي ، ولم أكن أعرف ذلك ، واكتشفت أن العديد من رجال الأعمال اللبنانيين يقومون بتصدير الأخشاب من رومانيا إلى السعودية ، وفي البداية رفضت المؤسسات حتى استضافتنا ، وبعد ضغوط عديدة على المؤسسة الحكومية المصدرة للأخشاب ، عرضوا علينا سعراً للأخشاب في رومانيا هو أكبر من السعر الذي يباع به نفس الخشب في السعودية ، وكان ذلك من أجل صرفنا عن التفكير بهذا العمل ، ولكننا لم ن Yas .

بعد أسبوعين من العمل المضني ، قمنا بشراء كمية بسيطة من الأخشاب ، صدرناها إلى السعودية ، وكانت خطوة نوعية ، وهي أول خطوة أخطوها وتحقق ربحاً بسيطاً، وأعطتني مصداقية، لما أقول وما أقوم به من أعمال ، وبدا أن النحس قد ضفت قوته بإذن الله . كان علي في هذه المرحلة - وقد استلمت الطريق السوي - أن أكون ملماً بهذه التجارة وما تتطلبه من مشاق . كان علي أن أتعلم اللغة الإنكليزية ،

والطباعة على الآلة الكاتبة والتلكس، ونظام البنوك، وشركات التأمين، والنقل البحري، وكل ما يحتاجه عملي الجديد. وخلال ستة أشهر من الدورات والدراسة المتواصلة، والجد المضني، أصبحت ملماً في التجارة الدولية، ملماً ببعض خفاياها وخباياها، إضافة إلى كوني منظماً ومتابعاً، وبصعوبات شديدة اجتذب ما اعتبرضي من عقبات منفرداً، بعد أن تركني شيحان العرُّ، فقد طاب له المقام في رومانيا، بما فيها من مغريات آنية وملذات، وأخذت أزور مستوردي الألخشاب في السعودية، محاولاً بيعهم، إلى أن تعرفت في مطلع عام ثلاثة وثمانين، إلى الدكتور فيصل سُنُو، اللبناني الجنسية، والذي كان يعمل شريكًا غير رسمي، في مؤسسة تعمل بتجارة الألخشاب يملكها أحمد نجيب. فقد اتفقنا على أن يقوم بفتح الاعتمادات المستندية لمكتبي في رومانيا، وأنا أحوالها إلى الشركة الحكومية الرومانية المنتجة محظوظاً بالفرق المتفق عليه، أما فيما نبيعه لغيره من المستوردين السعوديين، فالربح مناصفة. لقد كان عملي يقوم على الصدق مع الذين أتعامل معهم، فقد كنت حريراً على حقوقهم كحرسي على حقوقى، ليكون عملي ذو مصداقية، ويحظى باحترام الجميع، من مصدرها في رومانيا، إلى مصبها في السعودية.

وكانت ثقتي بنفسي تعزز يوماً بعد يوم، وأخذت صفاتي التجارية تدر علي أرباحاً لا بأس بها، وما شارف عام ثلاثة وثمانين على نهايته حتى كانت أموري قد توازنت. لقد غادرني اليأس، وحل محله التفاؤل، وحققت أرباحاً لا بأس بها.

وحين أهلَّ عام أربعة وثمانين، كنت قد تمكنت من سداد جميع ديوني، فتذكريت - والعاقل يتذكر - عملاً بقول الشاعر :

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلَفُهُمْ فِي الْمُنْزِلِ الْخَشِنِ

تذكريت شريكي السابق غازي محمد القصبي، كان أول عمل قمت به بعد أن أيسرت هوزيارته، وكان قد انقطع عني حوالي ثلاث سنوات، فتَّشت عنه، ولقيته في الدمام. كان القصبي في وضع اقتصادي صعب، يبعث على الأسى والحزن، مشقاً بالديون فقلت: أصلح حالي، لقد كان شريكى، وتحمل معي ما تحمل من

خسارة ، فأعطيته - على دفعات - أكثر من عشرين ضعفًا من المبلغ الذي دفعه أثناء عملنا معاً، وكان يعزُّ عليَّ أن أراه وقد آل إلى ما آل إليه من سوء الحال .

كان القصبي مثقلًا بالديون، فأعطيته المال ليسدد ديونه، ومن ثم ينطلق للعمل من جديد . ولكن القصبي - سامحه الله - لم يكن مؤهلاً بما فيه الكفاية ، كما لم يكن عارفاً لطبيعة المرحلة في السعودية ، فقد أضاع كل هذه الأموال التي أعطيتها له من دون طائل، ومن دون أن تظهر عليه أية بادرة من بوادر التحسن، وقد تبين لي أنه إنما حقق ما حققه في السنوات المنصرمة بسبب تلك الطفرة الفوضى التي كانت تعيشها السعودية، فاغتنمته دون أن يغتنمها ، ولما زالت الفوضى، وبدأ العمل المنظم، ضاع كما يضيع كل خطأ إذا قوبل بالصواب . ونظرًا لكونه رجل غير مُجرب ، وليس بذي خبرة . وبرغم تحذيراتي له التي تكررت، بقصد إصلاحه وتقويمه ، ورغم حرصي الشديد عليه وإصراري كي يبدأ عملاً مناسباً على المدى القريب والبعيد، إلا أنه كان كلما أعطيته مبلغًا ضيئعه، وقد تبين لي أن صاحبى القصبي بئر بلا قاع، فقررت وقف مساعداتي له رغم محبتى وتقديرى له وأسرته الكريمة .

الحقيقة أن عام ثلاثةٍ وثمانين ، كان عاماً مختلفاً عما سبقه من الأعوام ، ففي نهاية هذا العام تمكنت من سداد كامل ديوني، وأملتُ أن تكون نهاية هذا العام نهاية كل المتابع والعقبات غير الموضوعية، والمهم في المسألة التي أنا بصددها أنني استطعت بعد جهد أن أحول طلاسم المعادلة ، لقد وقفت على أسرار العمل الذي أقوم به، وأي عمل اقتصادي آخر ، فلا تخبط بعد الآن ، فقد أصبحت أعرف الهدف وأعرف كيفية الوصول إليه بشكلٍ علمي ، وهنا بدأْتُ أجني ثمرات مواصفاتي من التنظيم والمتابعة . والتوفيق من الله .

الأمور بالنسبة لي أصبحت مفهومة، ومنظمة، ومعظم أسرار اللعبة أصبحت عندي، وبيدي معظم مفاتيح ما أغلق منها، فلأُقدِّس فسيحتي بيدي، وكما تعلمتُ من غيري، علىَّ أن أعلم بدوري الآخرين ، كيفية ترجمة ما يريدون إلى الواقع ، وأن لا ينتابهم اليأس والإحباط .

كانت السنوات الخمس التي مرت بي، من عام تسعين وسبعين ، وحتى نهاية عام ثلاثة وثمانين، بالرغم من شدتها وقوتها ، وأقسى ما فيها ، ضياع الطريق وضعف الأمل ، كانت سينياً عجاف أكلت معظم معنوياتي ، وهزتي هزاً شديداً ، وبالرغم من ذلك ، لم أخبر والدي ، أو أيا من أهلي بمدى معاناتي .

كنت دائماً أجيب على تساؤلاتهم بكلمة الحمد لله ، كل شيء على ما يرام ، وذلك لمعرفتي بأن قرارهم سيكون الاستسلام وطلب عودتي إلى سوريا بدعوى أن الخير كثير، وليس هناك ما يبرر الصبر على تلك المعاناة ، إلا أن المسألة بالنسبة لي ، كانت مختلفة تماماً، لم تكن مسألة أموال وإنما مسألة طموح .

كنت دائماً متفائلاً عاملاً بالقول المعروف : كل مصيبة تصيبني ولا تقضي عليّ تقويني وكثيرة هي مصائب تلك السنوات الخمس ، إلا أنني كنت واثقاً بالله ، وبنفسي ، ما دمت لا أحلل حراماً ، ولا أحرم حلالاً إِنَّ اللَّهَ لَنْ يُضِعِنِي . لكن هذه السنوات الخمس، وبالتالي قد جعلتني شخصاً مختلفاً عمّا كنت ، شخصاً أكثر واقعية وعملية . لقد أصبح أحب الألوان إلى اللون الرمادي ، بينما كنت لا أحب من الألوان إلا الأبيض أو الأسود وهذا مما حدا بي إلى متابعة الطريق دون التفكير بالتراجع ولو للحظة واحدة، وكان لدى وعدى الذي قطعته على نفسي، أن أكون ناجحاً، وأن يكون نجاحي فيه مصلحة للآخرين، وليس على حسابهم . وعملاً بوعدي هذا، كان لا بد لي من مواجهة أية معوقات تعترضني، فكان كل شيء لدى متحفز للدفاع عن كياني ، فأنا ابن الأسرة المحافظة، وأنا ابن رجل رباني فأحسن تربيتي، ولم يدخل شيئاً في سبيل إعدادي وتجهizi بمعظم ما يلزم للقادم من الأيام .

وللإنسان أحوال وتقىبات ، وتعريه أسباب القوة والضعف ، والصعود والانحدار ، وأنا الرجل المتعلّم، إضافة إلى ما تعلّمه في مراحل دراستي ، اكتشفتُكم كانت فائدتي كبيرةً من قراءتي لكتب الفلسفة والتاريخ والجغرافيا والاجتماع والفقه....الخ .كم كانت فائدتي كبيرة من قراءتها في المراكز الثقافية في المرحلة

الإعدادية والثانوية والجامعة ، كل هذه كانت بالنسبة لي مساعدة في الدفاع عن ذاتي ، كانت سلحاً تدافع عنِي ، ما كان منها مادياً ، وما كان منها روحياً ، كلها تساعدني بشكل متناهٍ ومتكملاً كلها كانت تقوم بدور الدفاع عن ذاتي ، ولكنها مجتمعة وأياً منها لم يُهزم ، فقد كانت جميعها كتلة واحدة وكلاً لا يتجزأ ، لهذا صمدتْ وتجاوزت سنوات النبي يوسف العجاف الطويلة المريدة وخرجت منها كخروجه من السجن . علمتني الأيام ، فتعلمتُ ، وازدادت بها معرفةً وتنويراً . لقد كانت سينيناً عجافاً بكل معنى الكلمة ، فلم أتلق في تلك السنوات من الأنباء ما يسرّ أو ما يبعث في النفس البهجة ، ويبعث في الروح الأمل ، إلا ذلك الخبر الجميل الذي كان بداية أول بشارة أتلقاها في تلك السنوات العجاف ، هو ولادة أبني مصر ، وأنا في رومانيا .

كنت قد أبلغت أهلي في الرستن ، بأنني سأركب في مكتب بيروخارست هاتفاً ، وأعطيتهم رقمه ، وحين كنت أقوم بتركيب خط الهاتف ، وبعيد وصل الشريط وضع الجهاز مباشرة رنَّ جهاز الهاتف ، وتلقيت أول مكالمته به ، وهي اتصال من الأهل يبلغونني فيه بولادة أبني مصر . الحقيقة كانت بشارة حملت لي الكثير من السعادة ، اعتبرتها بداية البشائر وكان ذلك بتاريخ الثامن والعشرين من شهر أيار لعام واحد وثمانين وتسعمائة وألف .

الحقيقة أن تلك السنوات الخمس العجاف التي مررت علىِي ، قد صقلتْ مواهبي ، ونمّت تجربتي . وقد كانت المنعطف الأهم في مسيرة حياتي ، أو لعل الظروف كانت تعيق تطلعاتي المحدودة التي كنت أشغل نفسي بها ، لأنها للأهم ، متتجاوزاً صغار الأمور إلى كبارها . هذه السنوات كانت منطضاً بارزاً ، ونقطة تحول ، ليس في تاريخي الشخصي فحسب ، بل على مستوى أسرتي وأقاربي والجيران . فقد أثرت بشكل مباشر ، وغير مباشر على العديد من أفراد الأسر في الرستن ، بشكل إيجابي ، فكنت محفزاً لهم لإرسال أبنائهم إلى خارج الوطن سواء للدراسة أو للعمل .

إن بناء الشخصية يتطلب زمناً ليس بالوجيز على كل حال ، فبناء شخصية الإنسان وتكاملها يتطلب سنوات مديدة ، ولا أبالغ إن قلت بأنه يتطلب أكثر من جيل واحد، ولا يتم ذلك في أيام معدودات ، أو شهور قليلة ، ألا ترى أن الإنسان كلما تقدمت به السنون واستعرض ما مضى من حوادث مرت به، يحاسب نفسه ، فيجد أنه تصرف خطأ ، ولو أنه فعل كذا لكان أفضل ، ولو أنه بادر الأمر لما ضاعت عليه الفرصة التي ضاعت ، وهكذا ، محاكمات يجريها، يعيّب على نفسه تصرفات ، ويجد غيرها .

فبناء الشخصية وإعدادها لتحمل المسؤولية ، لاتخاذ القرارات الفيصلية والمناسبة في الوقت المناسب ، والمكان المناسب ، تتطلب إعداداً متعدد الجوانب الشاقولية منها والأفقية.والشخصية القيادية ، لها معطيات وراثية ، عقلية و جسدية ، يضاف إليها التربية ، والإعداد والأصدقاء ، والبيئة ، فالإنسان صورة من بيئته وعصره ، ومرآة لأهله ومحيطة ، يحمل ما ورثه عنهم من مورثات، ويضيف إليها ما تعلم من مكتسبات ، إذ من الفراغ لا شيء يأتي.

إن تلك السنوات كانت امتحاناً للذات وتمحیضاً وصقاً لها . تعرضت إلى ما تعرضت من تحديات ومحن ، اجتازتها واثقاً بأنني في زحمة هذه المتناقضات لن أضيع ، فأنا لم أفقد الأمل في النجاح برغم الانتكاسات المتكررة، إلا أن ذلك لم يمنعني من تكرار المحاولة بعد إصلاحٍ وتصحيحٍ لبعض المسارات ، وإنَّ من علامات الإنسان المثقف قدرته على التعامل مع المنعطفات وفهمها على أنها آنيةٌ مؤقتة وأنَّ الطبيعي فيها هو الطريق المستقيم فقد كنت حريصاً على دخول البيوت من أبوابها ، كي لا ألام ، ولا ألوم نفسي ، وكان كثيراً ما ينتابني شعور بضرورة الوقفة مع الذات ، فأسأل نفسي هل ما أقوم به هو عنادٌ ، أم هو طموح مشروع ، لذلك كنت أقوم بتحليلٍ موضوعي، ومحاكمة داخلية بيني وبين نفسي، وكانت هذه المحاكمة تنصب على تفسير بعض الأمور ، هل في عملي هذا ما يسمى السباحة ضد التيار؟ ومعاندة الأقدار ، أم هي الظروف؟ وجريان الرياح بعكس ما تشتهيه السفن ، هو

امتحان لربّانها . وقد ثبت لي من خلال هذه الاستقراءات أن ما أقوم به من تحدي الظروف كان عملاً مشروعًا ، فلا بأس من المواجهة طالما أني أسير في الطريق القويّم ، باتجاه هدفي النبيل ، الذي لا اعوجاج فيه . فلأتابع سيري .

ولا بد دون الشهد من إبر النحل

ولولا إبر النحل ما كان الشهد شهداً ، ولا تزاحمت الأكتاف للوصول إليه . كان يشجعني ، ويزيدني ثقة بنفسي ، ذلك الإرث الثقافي ، وما حصلته من خلال دراستي لحياة المشاهير من قادة العالم العظام ، وفي مقدمتهم ، رسول العالمين محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ولهم الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة . ألم يعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عانى ، ولماذا تم اختيار تاريخ هجرته بدأية للتقويم ، ولم يتم اختيار تاريخ ميلاده أو حتى بعثته . لأنَّ هجرته صلى الله عليه وسلم هي قمة معاناته ، وآلامه في سبيل رسالته .

ألم يعاني من أهل مكة ثلاثة عشرة حجة ، دون أن يحصل من ذلك على طائل ، أو شيء يذكر ، وكان أصحابه يعدون لقلتهم ، وبعضهم من الذين لا يستطيعون حتى حماية أنفسهم ولكن ألم تتخلل جهوده ، وصبره على ما لاقى بالنجاح . فلماذا لا أصبر وأكرر المحاولة ؟

وليكن (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قدوتي في نضالي ، وما ألاقي من مصاعب ، وكيف كان يسرني ويبعث في نفسي العجب والفخر هجرته من موطنه الأثير مكة المكرمة إلى المدينة المنورة . وكيف استطاع أن يؤسس أول دولة للإسلام على أرضها ، حيث لم يمض على تأسيسها سنوات معدودات ، حتى نشرت نورها في الجزيرة العربية ، وبلاد الرافدين والشام ومصر وشمال أفريقيا ، وانتشر هذا النور ليصل إلى أقصى الأرض المعروفة آنئذ في جنوب شرق آسيا ، وما دام صلى الله عليه وسلم قدوتي ، فلن يجد اليأس والإحباط طريقاً إلى نفسي . كان لهذا الإرث الثقافي يعطيوني دفعاً ، وجذباً ، وصبراً على ما أعياني . لذلك كنت تراني بعد كل نكسة ، أنطلق ولا أتعثر ، واثقاً بأن الحق لا بد منصور ، ولا بد لسعبي أن يتخلل بالنجاح . فلأتابع مسيرتي رغم كل الصعب .

لابد من مصارعة الخطوب ، وعلي أن أتغلب عليها ، وكان ذاك الإرث العظيم لأولئك السلف الصالح يشد من عزيمتي ، وكانت ثقتي بالله كبيرة ، وكنت متأكداً بأن الله لن يضيعني ، وهو القائل :

وَقُلْ أَعْمَلُوا فِي سَرِيرِ اللَّهِ عَمْلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ

صدق الله العظيم

وبما أن لكل مسألة مفتاح ، وكاليبيوت لكل باب مفتاح . فلا بد من أن أمتلك تلك المفاتيح لأنتمكن من دخول البيوت من أبوابها ، وهو المدخل الصحيح .

على سبيل المثال .. أذكر مرة أني - وخلال إقامتي في أحد الفنادق - اضطررت لإرسال تلكس كنت قد كتبته . فنزلت إلى عامل التلكس ، وطلبت منه إرسال التلكس فقال لي : إن دوامه في هذا اليوم قد انتهى ، وهو لا يقوم بإرسال التلkses خارج أوقات دوامه ، وأضاف متهدياً : هذا جهاز التلكس ، فاطبع تلكسك وأرسله إذا كنت تريده وفهمت إشارته ، وما رمى إليه . فما كان مني إلا أن طلبت منه كتاب تشغيل جهاز التلكس وكيفية استخدامه ، وعندما طلع صباح اليوم التالي ، كنت قد أتقنت درسي جيداً فذهبت إلى جهاز التلكس ، وأرسلت منه رسالتي دون الحاجة إلى عامله ، الذي كان ينظر إلي دهشاً ، مستغرباً للسرعة التي أتقنت فيها فن اللعبة . وكان حافزي على ذلك إرادة التحدى ، وحيث أن معظم رجال الأعمال الأجانب يستخدمون بأنفسهم جهاز التلكس ، فلماذا لا أكون مثلهم ، فإذا كانت هناك قضية صعبة فعلي حل ما استغل منها ، وأخذت من حينها استخدام جهاز التلكس بنفسي ، أينما سافرت وحللت ، دون الحاجة إلى الاستعانة بعامله .

هذا ما كنت أعمل به دائماً ، بل ومؤمناً به الإيمان القاطع الذي لا يشوبه شك ، فالطموح بالنسبة لي ، كان حافزي دائماً إلى معالي الأمور ، والتجاوز عن صغارها ، ويمكنني تصنيف الناس إلى ثلاثة فئات .

أولاها : فئة تعيش على أعمال الآخرين وإنجازاتهم ، وثانيها: فئة تعبّر الحياة دون أي أثر أو تأثير ، وثالثها : فئة بنائية تخدم نفسها من خلال خدمة الآخرين .

وأبناء هذه الفئة هم الذين يبنون الحياة ويشيدونها .

والنجاح في الحياة ، إضافة إلى الإمكانيات الذاتية ، مسألة تتعلق بالزمان والمكان والظروف المحيطة ، فما أن تكون هذه كلها عوامل مساعدة على تحقيق المراد أو إعاقة تحقيقه ، بعضها أو معظمها ، مجتمعة أو متفرقة ، وقد عانيت ما عانيت من فعل الظروف مكانها ، وزمانها في تلك السنوات الخمس العجاف ، فمتى يكون عام العصر؟؟

لُمَّا يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يُعَصِّرُونَ

صدق الله العظيم

حيث أشعر بالاستقرار ، وبأن ما عملت له قد تحقق ، وكان لتحقيقه آثار جيدة على وعلى Ahلي ، وأقاربي ، ومدينتي ، و وطني .

إن النجاح في الحياة متعدة ، وإذا انعكس هذا النجاح بالفوائد على الأهل والمحيط الذي نعيش فيه ، يشعر الإنسان براحة البال ، فالكريم دائمًا يسعى لمساعدة الآخرين ، وحل مشاكلهم ، والأهم من هذا إعطاؤهم المثل الجيد في الحياة والتغلب على مصاعبها .

وفي كل إنسان جانب إيجابي وآخر سلبي ، تختلف نسبتها من شخص لآخر ، لكن الجذور وال التربية و الثقافة و البيئة و المناخ ، تلعب دوراً كبيراً في تغليب جانب على آخر وكلما كان المجتمع ذو قيم و ضوابط واضحة ، كلما حفظ الجانب السلبي في عناصره . فكما قام المجتمع الإسلامي في بداية عهده بتطوير و إبراز الجوانب الإيجابية في الإنسان ، قامت المجتمعات أخرى بإبراز و تعزيز الجوانب السلبية فيه .

فكما كانت الشعارات التي طرحتها الدول الشيوعية براقة ، وكم كانت مثار إعجاب الملايين من القراء في كل أنحاء الأرض ، وكم ضحى القراء من أجلها ، بل لقد كان القراء وقود تلك الثورات ، احترقوا بنارها ، قاتلوا ، وقتلوا ، فلما انتصرت لم يكن لهم من حصادها إلا مزيداً من الفقر والجوع والاضطهاد . لقد استأثر بعضهم بمكاسب التغيير و مغانمه ، و أبرز النظام الشيوعي الشمولي الجوانب السلبية في

مسلمي زمام أمره ، أما غالبية الشعب الذين كانوا أداة التغيير وقوده ، فلم يجنوا من هذا التغيير إلا شعورهم بان ظلم أبناء طبقتهم السابقين أشد بكثير من ظلم وجور أبناء الطبقات الذين ثاروا ضدهم وهزموهم .

الْمُسْتَجِيرُ بَعْمِرٍ عِنْدَ كُرْبَتِهِ كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمَضَاءِ بِالنَّارِ

وعندما حاسبت نفسي وفق معظم المعايير الفلسفية بشكل عام ، والمعايير الإسلامية ، بشكل خاص ، لم أجد فيها مجالاً لاتهام نفسي بالطمع ، بل تبين لي أن المسألة عندي قد انحصرت في الطموح المشروع، لبناء نفسي وأسري ، وفي المساهمة ببناء المجتمع الذي أنتمي إليه ، وفق القيم والمعايير التي أؤمن بها إذ و بإجماع العاقلين من الذين يحيطون بي، أني أنتمي إلى الشريحة ذات العقلية البنائية ، التي تريد أن تساهم في بناء محيطها وأمتها، من مختلف النواحي .

معظم الناس ، يعجبون بأبي الطيب المتنبي ، ذاك الشاعر الذي داع صيته في كل مكان مما أدى إلى إهمال ذكر كثير من معاصريه الشعرا ، فكان عصر المتنبي ليس فيه من الشعراء إلا ابن الحسين، يشراقُ و يعرّبُ كيف يشاء ، والناس لا هم لهم إلا

قوله:

الخيل والليل والبيداء تعرفني **والسيف والرمح والقرطاس والقلم**

وقوله :

أنا صخرة الوادي إذا ما زوحمت **و إذا نطقت فإنني الجوزاء**
والناس منشغلون به ، فعلماء اللغة يتخاصمون حول مسألة إعرابية ، وعلماء البيان يتخاصمون حول مسألة بيانية ، وصورة فنية ، ورجال الحرب متخاصمون في قوله :
ومرهف سرت بين الفيلقين به **حتى ضربت وموح الموت يلتقط**
عنفوان ، رجولة ، أخلاق ، نبل ، فصاحة . ولكن .. ما سبب شهرة أبي الطيب ؟ .

كان الناس ينظرون إلى أبي الطيب وكأنه لسان حالهم ، يتكلم بلسانهم ، يتكلم بلسان الطموح الذي يسعى لتحسين حياته ، وبلسان الفصيح الذي يُعْقِد قواعد النحو والصرف ، وبلسان البطل الذي يخوض المعارك . فقد كان المتنبي لسان حال الناس الطموحين على مر العصور . الناس في حياتهم يلقون تبعات ما يتعرضون له من فشل في الحياة على الظروف والمحيط الذي يعيشون فيه ، فالطالب المقصّر ، يسأله والده عن سبب تقصيره في مادة الرياضيات ، فيقول : بأن مدرس الرياضيات مدرس ضعيف ، وغير قادر على الإعطاء الجيد . فإذا سُئل فلماذا تأخرت في مادة اللغة العربية ؟ أجاب : أن مدرس اللغة العربية لا يجيد العربية ، وهو يضيع الوقت ، ولا يعطينا ، لهذا السبب رسبت في هذه المادة و تلك . كذلك الحال في باقي المواد . يلقي ببعضه فشله على غيره ، وكان لا علاقة له بكل ما يجري في المدرسة ، ولا يقر بالحقيقة ، بأن تقصيره من فعله ، وقلة انتباذه ، وغفلته ، ولا مبالاته بما يجري في قاعة الدرس ، لا سيما عند مقارنته بغيره من زملائه في الصف ، الذين حصلوا على علامات ممتازة في تلك المواد التي قصر فيها ، فمن المسؤول الظروف ، أم التقصير ؟

والحق يقال : إن الظروف المحيطة تؤثّر سلباً أو إيجاباً على الإنسان ؟ . فإذا أخذنا مثلاً على ذلك الطالب في المدرسة ، قد يعاني الطالب من تقصير في أداء بعض المدرسين ، ولكن الطالب الذي يضع في مقدمة أهدافه العلم ، وإن عانى من تقصير بعضهم ، بقصد ، أو بغير قصد ، يستطيع تجاوز ذلك ، بمضاعفة الجهد . فليس كل الطالب على سوية واحدة في الإدراك ، والاستيعاب ، إن كان يهدف إلى أن يتعلم وكثير هُم الطالب غير الموسرين ، والذين لم تتوفر لهم شروط الدراسة النموذجية كانوا من الأوائل ، والمميزين على غيرهم من الطلاب الموسرين ، وكانوا مثار إعجاب زملائهم وغضبهم . ومن ذلك .. كنت تراني دائماً أحَمِّلُ نفسي المسؤلية ، عندما أعاني من أي فشل

وإحباط، ولا أرد ذلك إلى الظروف، وإن كانت قاسية، فكنت دائمًا أقوم بالمراجعة الشاملة، وأبدأ السير من جديد، لعلي قد أخطأت في سلوكى للطريق القوي، فلأجرب مرة أخرى، وطالما أني أفهم الغاية من الحياة، فالحياة جميلة بتنوعها، بتناقضاتها. والتنوع سر جمال الحياة، والناس هذا دأبهم، منهم الخيرون الطيبون، ومنهم الأشرار وعلي أن أتعامل مع الحياة بحلوها ومرها. فالحياة مزيج من الأضداد وكم هو جميل عندما ينتصر الخير على الشر، فتبعد الحياة جميلة. ولا بد للحق أن ينتصر، ولا بد للجمال أن يتتفوق على القبح، فتزدهر الحياة، و النجاح لا يكون جميلاً إلا بعد العناء والتعب وما من معركة انتصر فيها منتصر إلا وقدم في سبيل نصره، كل جهدٍ و غال ونفيس. كل تلك المعاناة تزيلها حلاوة النجاح.

إذا كانت النفوسُ كباراً تعبتْ في مرادها الأجسامُ

و ما إن أطل عام أربعة وثمانين ، حتى عصرتُ وأشرت في وجهي الحياة باسمة ، وأخذ ذلك يظهر جلياً يوماً بعد يوم .

ودخلت هذا العام واثقاً عارفاً بدقائق الأمور التي تتطلبها مهنتي كرجل أعمال . بعد العديد من الإخفاقات التي تعرضت لها في السنوات العجاف السابقة ، بدأت أكتشف إمكانياتي الكبيرة في مجال عملي ، ومهد ذلك هو تربيتي ، وما نشأت عليه . فأنا منذ نعومة أظفاري مناقشٌ بارعٌ ، يحكمني منطقٌ سليمٌ ، أغنىته على الدوام بشقاقة متنامية مع الأيام ، يقتنع بها كلَّ ذي عقلٍ سليم .

كان لتربيتي منذ الصغر الأثر الواضح ، فقد عودني الحاج سليمان - حفظه الله - أن أكون صادقاً ، ومحاوراً لبقاً ، لا مُجادلاً سهلاً بحق أو بغير حق ،

من شب على الصلاح شاب عليه . فأبى قد ربانى على ذلك ، فكنت مبادراً ، ومفاؤضاً يحكمه المنطق السليم ، وأخذت انقل من نجاح إلى نجاح ، وطورت عملي في مجال تجارة الأخشاب وال الحديد والأسمدة الكيميائية وغيرها .

كنت في معاملاتي كلها صادقاً مع نفسي ومع الآخرين ، فالصادق يحترمه أصحابه

وأعداؤه على حد سواء .

كنت قنوعاً في تقدير قيمة أرباحي ، دون جشع ، والسلعة التي أعرضها يعرضها غيري ، فإن وجد المتعامل أني غبنته ، سيفتش عن غيري ، لذلك كنت أقنع بالربح القليل ، فالقليل إلى القليل في المحصلة كثير ، وتلك كانت سياستي في تجاري . فلم أستغل حاجة مضطرب ، فأضاعف عليه الثمن ، وهذا مما أعطاني مصداقية مع المتعاملين معي ، و شعاري في ذلك قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم (ما معناه) : رحم الله امرء سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشتري ، سمحاً إذا قضى ، سمحاً إذا اقتضى . صحيح أني بدأت أشعر براحة البال والسعادة ، إلا أن ذلك لم يمنعني من تطوير معلوماتي في مجال عملي ، فأُلهم بكل شاردة وواردة ، إضافة إلى مجالات النقل والبنوك ومؤسسات التأمين ، وإلى ما هنالك من مؤسسات لها علاقة بعملي .

في صباح أحد أيام صيف عام أربعة وثمانين ، حضرت إلى مقر شركة جي تي سي في بوخارست والتي أدبرها وأمارس كل نشاطاتي من خلالها ، فوجدت زملائي ينتظرونني عند الباب ، قائلين : لقد دخل لصوص إلى المكتب ليلاً وعاثوا فيه فساداً، وبالمعاينة تبين لي كسر الباب الخلفي للمكتب (باب الخدمة) والدخول منه ، كانت الفوضى تعم المكان ، المكاتب ، الأرائك ، الكراسي ، طاولات الاجتماعات ، الملفات .. الخ.

وبالتذقيق تبيّن لي أن العبث الحقيقي كان في وثائق الشركة ، وأن كل العبث في محتويات المكتب الأخرى ، وحتى فقدان جهاز التسجيل العادي وبعض القهوة والسجائر والمشروبات الغازية ، رغم أهميتها بالنسبة للمواطنين الرومانيين حيث لم تكن موجودة في الأسواق ، والتي كنا نشتريها من مخازن خاصة بالأجانب وبالعملات الأجنبية ، فقد كانت للتغطية عما تم من اطلاع على الوثائق الخاصة بالشركة وموظفيها الأجانب ، كان واضحاً لي أن ما تم هو من فعل الشرطة السرية سواء بداع الاطلاع على ما يجري داخل هذه الشركة وخصوصاً بعد تطور أعمالها

بشكل كبير، أو بناءً على تقرير من أحد العاملين الرومانيين في شركتنا، أو بوشایة من إحدى الشركات المنافسة لشركتنا.

وأبلغنا الشرطة ، اللذين حضروا مع كلامهم البوليسيّة، وقاموا بإجراءاتهم المألوفة من معاينة لكافة غرف المكتب ، وأخذوا ما تبقى من السجائر والقهوة ، وغادرونا .
وسُجّلت السرقة كالعادة ضد مجهول .

لازلت أعتقد أن الشرطة السورية قامت ، بدخول مكتبي ليلاً ، بالرغم من رقابتهم على الهاتف والتلكس والبريد ، ومعرفتهم لكل شاردة وواردة من خلال الموظفين الرومانيين العاملين فيه والذين كانوا من عناصرهم أو من المتعاونين معهم ، إذ لا يوجد لدينا ما نخفيه حيث أن جميع نشاطاتنا وعقودنا كانت تتم مع مؤسسات حكومية بما في ذلك البنك الذي نتعامل معه ، وأظن أنهم قاموا بذلك إما للحصول على معلومات يتوقعون أن مندوبيهم لدينا لا يعرفونها ، وإما وهو الأكثر رجحانًا إشعارنا بأنهم موجودون دائمًا وأبدًا ، وأنه لا حيّة لأحد حتى ولو كان يساهم في تطوير صادرات بلدتهم وحصولهم على العملات الصعبة التي كانوا في أمس الحاجة إليها . حيث أن مصلحة النظام أهم من مصلحة الوطن .

وبما أن هذه الحادثة لم تتكرر فقد اعتبرتها ، شرًا لا بدًّ منه ، حيث تابعت نشاطي الاقتصادي المعتمد . مبتعدًا كل البعد عن التصرفات التي تزعج سلطات النظام في رومانيا ، مثل الحفلات الباذخة في الأماكن العامة ، وإقامة أية علاقات مع المواطنين الرومانيين خارج المؤسسات الاقتصادية الحكومية ، واقتناء السيارات الملفتة للأنظار ، وما شابه ذلك والحقيقة ما كان يخفف عنّي ، أن تضيق السلطات الشيوعية في رومانيا ما كان موجهاً إلى جالية أجنبية دون أخرى ، فقد كان يطال الجميع ومن مختلف الجنسيات ، لأن الأجانب قليلي العدد ، تسهل مراقبتهم وحصر كافة نشاطاتهم .

وبغرض الحصول على العملات الصعبة ، فقد كانت السلطات الرومانية ترغب في السياحة الأجنبية لديها ، لكن كمجموعات وليس كأفراد ، حتى تُسهل مراقبتهم ،

وتحديد مسار تنقلاتهم . إلا أن السلطات الرومانية كانت تضع العديد من القيود على هذه المجموعات السياحية مثل عدم التأخر في السهر في المطاعم العامة ، وعدم ارتداء الملابس غير المألوفة وعدم وجود أي تماس مع المواطنين الرومانيين سواءً في المتاحف أو المطاعم وما شابه ذلك ، باستثناء مرافقى هذه المجموعات من الموظفين الرومانيين . وقد انعكست هذه الإجراءات سلباً على عدد هذه المجموعات السياحية و نوعيتها بحيث لم يبق منها خلال سني الثمانينات من القرن العشرين سوى مجموعات العجائز من الشرائح العمالية من أوروبا الغربية ، غير القادرين على السفر إلى بلاد أخرى بسبب غلاء أسعار السياحة فيها . حيث كانت أسعار السياحة المنظمة لهذه المجموعات المنضبطة في رومانيا ، تقاد تكون رمزية ، بعكس السياحة الفردية إن وجدت ، فقد كانت تدفع أجور الفنادق والإقامة والتنقل ، وكأنها في الدول الرأسمالية المتطرفة ، ناهيك عن حظر استئجار السائحيين والمقيمين لغرفٍ في بيوت المواطنين الرومانيين . كانوا يريدون (قطّاً من خشب) !

صحيح أنه لم تكن هناك أية قيود على سفرنا داخل رومانيا ، كما هو الحال في الاتحاد السوفييتي ، لكن الصحيح أيضاً أن لوحات سياراتنا الأجنبية كانت تسجل مباشرةً من قبل الشرطة في أية مدينة أو قرية نزورها .

إلا أنه في حال رغبتنا بزيارة أية مؤسسة صناعية أو خدمية تقوم بتنفيذ عقودنا التجارية داخل مدينة بوخارست أو خارجها ، كان يتطلب إبلاغ مؤسسة التصدير التي نتعاقد معها برغبتنا بذلك ، قبل يومي عمل على الأقل ، حيث يرافقنا في زيارتنا ما لا يقل عن شخصين من مؤسستهم ، حتى ولو كانت زيارتنا إلى إحدى الغابات للاطلاع على نمو الأشجار فيها . كان كل شيء يبدو أنه تحت المراقبة الشديدة ، يعلمون ما ظهر و ما بطن و سبحان مُعَيْر الأحوال .

كنت حتى عام أربعة و ثمانين ، لا أملك مسكناً مستقلاً في الرستن ، فباعت بناء سكن فيها ، أتبعته بالتبرع ببناء سكن وتأثيثه ، لكل من أخوتي ،

ال الحاج محمد (عدنان) والدكتور قاسم، وبانتقال أخي إلى سكنهم الجديد ، أصبح بيت الأسرة الصيفي ، من نصيب أخي المهندس زياد رحمه الله ، إضافة إلى دعم شقيقتي ، مساعدًا على تحقيق ما يطمحن إليه من آمال ورغبات ، و "الأقربون أولى بالمعروف" .

أشرتُ سابقاً أنه في عام ثمانين ، حصلت على العديد من المنح الدراسية من رومانيا بمختلف الاختصاصات ، فكانت إحدى هذه المنح من نصيب هيثم العمر - ابن أخي الحاجة زهرة - وقد كانت هذه المنحة فاتحة خير عليه وعلى أسرته . نعم كانت سبباً في نجاحه بعمله في رومانيا ، بعد تخرجه من الجامعة ، وحصوله على الإجازة الجامعية في الهندسة المدنية ، وتغيير النظام الشيوعي في عام تسعين ، وتدربيبي له فقد دخل السوق بمعرفة علمية ، وحقق نجاحاً ، ومردوداً اقتصادياً ، حتى أصبح من رجال الأعمال البارزين في رومانيا . والذي بدوره وقف إلى جانب أخيه وأخواته ، ناهيك عن العديد من الذين يعملون معه في رومانيا وخارجها .

في هذه الفترة التي تلت نجاحاتي المتكررة والمتألقة ، كان من المنغصات التي تبعث على الأسى في مدينة الرستن ، تردي الواقع التعليمي لدى أبنائها ، والأغرب من ذلك وأدهى ، الحالة التعليمية لأولاد أخي ، وأخواتي ، وأولاد عمومتي ، فقد أهملوا التعليم بشكل كامل ، حتى بات الحصول على الشهادة الثانوية أمراً صعب المنال أو ضرباً من الأحلام والآمنيات .

فأين ما كنت عليه مما أراه أمام عيني؟ كان على أن أعيد بناء الجسور من جديد ، وأن ألغى نظر أولئك المقصرين ، بضرورة العودة إلى العلم ، ولو كان ما كان فالعلم تبني الأمم .

العلم يبني بيوتاً لا عmad لها والجهل يهدم بيوت العز والكرم

كان من أسباب تردي الواقع العلمي ، لأبناء أسرتي ، وعمومتي ، كما هو حال أبناء الرستن ، ضعف المردود المادي للمتعلمين ، وضعف دورهم في قيادة الإدارات

والمؤسسات الحكومية، وتهميشه دورهم الاجتماعي ، بحيث لم يعودوا النموذج الذي يسعى الشباب له، مما حولهم عن طلب العلم والتعليم ، وتراجع عدد الراغبين في إكمال تعليمهم . وبمقارنة بسيطة نجد أنه في عام ثمانين وستين كان عدد الحاصلين على الثانوية العامة في الرستن يزيد عن ثلاثة طالباً ، بينما كان أقل من ذلك في عام ألفين . لذلك .. كان علي أن أقوم بعملية إصلاح ، تبدأ من بيتي ، حيث أبناء أخوتي وأخواتي إلى أبناء أقربائي ، ومن ثم إلى أبناء مدینتي . من خلال القيام بحملة توعية وتشجيع لنعيد هؤلاء المقصرين إلى جادة الصواب ، والسير في الطريق الصحيح .

في منتصف عام تسعين ، وبالتعاون مع وزارة الأخشاب الرومانية ، أَسْتُ شركة فرزات للأخشاب الرومانية (فاروتي) ، ومقرها مدينة بوخارست ، و تعمل في مجال تصدير كافة أنواع الأخشاب الرومانية المنشأ . تملك شركة فرزات للتنمية السورية ، واحد وخمسين بالمائة من أسهمها ، والباقي تملكه وزارة الأخشاب الرومانية ، وقد عملت هذه الشركة الكبيرة حتى عام ستة وتسعين ، حيث تم تصفيتها . بسبب بيع وزارة الأخشاب الرومانية لجميع مصانعها إلى القطاع الخاص ، الذي أصبح يقوم بتصدير منتجاته مباشرة .

بالعودة إلى رومانيا خلال الثمانينات من القرن العشرين ، كانت الحياة كئيبة ، تبعث على الأسى ، بسبب اشتداد الضائقة الاقتصادية ، وسياسة الدولة التي كانت تدعى شيئاً وتفعل شيئاً آخر ، كانت الدولة تدعى الاشتراكية ، وملكية الشعب لوسائل الإنتاج ، وما إلى ذلك من شعارات ، لا تعدو كونها شعارات فقط ، تكتب على القماش ، أو على واجهة مبني الدولة ، من معامل ، ومنشآت . أما الحقيقة ، فقد كانت رومانيا تعيش رأسمالية الدولة بأبشع صورها ، وقد فشلت الدولة في جعل حياة الشعب أكثر رخاء ، كما وعدت وكان الفشل واضحاً في كل مناحي الحياة ، حتى لكان الحياة في رومانيا كانت تسير بالقضاء والقدر ، تنتظر لحظة النهاية . فشل اقتصادي ، أدى إلى غياب لجميع السلع الأساسية التي لا يعيش الإنسان بدونها ، أما

الكماليات فلا وجود لها أصلًا ، حتى بات الحصول على الخبر - وهو قوت الإنسان اليومي - أمرًا بالغ الصعوبة ، فكيف باللحوم والخضروات والفاكهـة لقد تعطلت الحياة ، بل لقد أصابها الشلل ، حتى أن الكهرباء والماء ، كانت تأتي بأوقات معلومة ، وتظلم المدن وتجفُ الصنابير في أكثر ساعات الليل والنـهار . أما التدفئة ، فمن أين تأتي التدفئة ؟ لا وقود للمدافئ ، ولا بنزين في محطـات الوقود ، وكان الحصول على البنزين أو المازوت يحتاج إلى كثير من الجهد ، ودفع الرشاوى ، ورغم قلة السيولة المادية لدى الناس ، فقد كانت كتلتها أكبر بكثير من كتلة السلع والخدمات المتوفرة و كنتـيـحة لذلك فقد تضـختـ أجهـزةـ النـظامـ الـآمنـيةـ ، واـزـدـادـ القـمـعـ ، حتى أنه بـاتـ منـ الصـعبـ عـلـيـكـ أـنـ تـرـىـ الـبـسـمةـ عـلـىـ شـفـاهـ النـاسـ ، والنـاسـ يـسـيرـونـ نحوـ المـجـهـولـ ، لاـ أـمـلـ وـلاـ أـحـدـ يـسـطـيعـ الـاعـتـراضـ عـلـىـ ماـ يـجـريـ .

وأخذ الفساد والإفساد يتـفـشـيـ وـعمـ كلـ منـاحـيـ الـدـوـلـةـ وـالـمـجـتـمـعـ . وـتـرـاجـعـ النـظـامـ العامـ أـمـامـهـ ، حتىـ أـنـ شـرـاءـ قـطـعـةـ مـنـ اللـحـمـ كـانـ يـتـمـ بـطـرـقـ مـلـتـوـيـةـ ، وـيـدـفعـ عـلـيـهـ رـشـوةـ لـاـ تـقـلـ عـنـ ثـمـنـهـ الـمـعـلـنـ ، وـسـبـبـ ذـلـكـ أـنـ جـمـيعـ الـمـؤـسـسـاتـ الـخـدـمـيـةـ ، وـالـإـنـتـاجـيـةـ هـيـ مـلـكـ لـلـدـوـلـةـ ، فـالـدـوـلـةـ هـيـ الـمـسيـطـرـ عـلـىـ كـلـ شـيـءـ . مـاـ تـعـاملـتـ معـ مـؤـسـسـةـ لـلـدـوـلـةـ إـلـاـ أـطـلـ عـلـيـكـ الـفـسـادـ ، شـامـخـاـ بـرـأـسـهـ ، مـؤـذـنـاـ بـالـشـرـ ، وـالـوـيلـ ، وـالـثـبـورـ . سـوـاءـ أـكـانـتـ الـمـوـادـ مـتـوـفـرـةـ ، أـوـ غـيرـ مـتـوـفـرـةـ ، فـالـأـمـرـ سـيـانـ لـدـىـ الـفـاسـدـيـنـ وـالـمـفـسـدـيـنـ ، فـإـنـ كـانـتـ الـمـوـادـ غـيرـ مـتـوـفـرـةـ ، فـلـاـ مـشـكـلـةـ تـذـكـرـ ، أـمـاـ إـذـاـ تـوـفـرـ الـمـادـةـ ، فـهـنـاـ يـبـدـأـ دـورـ الـمـوـظـفـيـنـ بـالـمـماـطـلـةـ ، حـتـىـ يـحـصـلـونـ عـلـىـ الرـشـوةـ الـتـيـ يـحـدـدـونـهـاـ مـنـ كـلـ مـتـعـاملـ ، لـيـتـمـكـنـ - وـيـاـ لـلـأـسـفـ - مـنـ الـحـصـولـ عـلـىـ مـاـ يـرـيدـ بـعـدـ أـنـ يـدـفعـ مـاـ يـرـيدـونـ . وـيـبـرـرـ الـفـاسـدـيـنـ أـفـعـالـهـمـ بـأـنـهـمـ قـدـ دـفـعـواـ لـأـصـحـابـ الـقـرـارـ ثـمـنـ مـوـاقـعـهـمـ ، وـأـنـ عـلـيـهـمـ اـسـتـرـدـادـ مـاـ دـفـعـوهـ مـعـ بـعـضـ الـأـرـبـاحـ الـمـعـقـولـةـ ! وـالـأـمـرـ كـذـلـكـ فـيـ كـلـ مـؤـسـسـةـ تـعـودـ بـمـلـكـيـتـهـ لـلـنـظـامـ ، وـمـاـ أـكـثـرـهـاـ ، بـلـ إـنـهاـ كـلـهاـ مـلـكـ لـلـنـظـامـ فـأـينـ الـمـفـرـ ؟ فـيـ أـوـاـخـرـ السـبـعينـاتـ أـصـدـرـ النـظـامـ الـحاـكـمـ فـيـ روـمـانـياـ ، قـانـونـاـ أـلـغـىـ بـمـوجـبـهـ كـلـمـةـ السـيـدـ وـالـسـيـدـةـ وـالـأـنـسـةـ ، وـأـسـبـدـلـهـاـ جـمـيعـاـ بـكـلـمـةـ رـفـيقـ . وـفـيـ أـوـاـخـرـ الثـمـانـينـاتـ ،

وفي خطاب لرئيس النظام قال : إن من لا يرغب بأن تنادوه بكلمة رفيق ، عليكم أن تنادوه بكلمة مواطن و ما تعنيه هذه الكلمة بأن حاملها فاقد بصورة تلقائية لكل الحقوق المدنية والسياسية .

لقد عانى المواطن الروماني في تلك الفترة ما عانى من الضيق ، والفقر ، حتى لقد بات يحلم بالشيطان ، بديلاً لهذا النظام الشيوعي الشمولي ، في ظل رأسمالية الدولة المقيمة المتحكمة في كل شيء ، وتتالت الأزمات ، واشتد التضييق على الناس ، حتى بات الناس في جهد جهيد . وكما يعلق المقصّر أسباب تقصيره على الظروف ، فكذلك أخذت القيادة الشيوعية الرومانية تعلق أسباب فشل سياستها الاقتصادية ، وشيوع الفقر ، على التوافة ، والقشور ، ولم تدخل إلى أصل المشكلة ، فتقوم بحلها الحل المناسب .

كل نظام يحمل بذور نهايته بيده ، وكذلك النظام الشيوعي الروماني . كان يحمل بذور نهايته بيده ، بقوانين وقرارات تناقض الفطرة السليمة ، محاولة ترقيق ثوبه المهترئ ، ومنها حظر الاحتكاك بالأجانب . لذلك كنت ترى أنَّ المواطن الروماني كان مكرهاً على ذلك ، ولم يكن ما يقوم به صادراً عن قناعة منه ، أو فطرة فطر عليها ، أو لؤم في طباعه ، وعاداته . ولكنه الخوف من المسائلة ، والتحقيق ، والسجن لمن يقيم علاقة مع الأجانب . إذ أن هذه وحدتها - حسب القانون الشيوعي - كافية لسؤاله وسجنه ، وإنزال أشد العقوبات به ، وسبب ذلك وجود المال مع الأجانب ، ومعروفة القيادة بإفلاس الشعب الذي بات لا جول له ولا قوَّة .

أذكر مرة أني حضرت جلسة من جلسات محكمة البداية في بوخارست . وكان القاضي الفاضل حصيفاً جداً ، فقد أصدر في خلال ساعة واحدة حكاماً بالسجن على أكثر من مائة متهم ، فتصور كم كان هذا القاضي عادلاً ، ونشيطاً ، وحربياً على فهم القضايا وتحقيق العدالة !!!

إنَّ القضية الواحدة استغرقت أكثر من نصف دقيقة بقليل للبت فيها ، وإصدار الحكم فأيَّ قانون ، وأيَّ نظام هذا ، وأيَّ إنسانية !!.

والأغرب من ذلك أنّ موضوع التهم يتراوح بين رؤية المُتهم يرتدي بنطال جينز أو التمثي مع أجنبي ، أو تهريب دجاجة من الريف إلى المدينة ، وما شابه ذلك من التهم. إن ارتداء بنطال الجينز ، والذي كان يتم الحصول عليه من السوق السوداء ، حيث لا وجود له في الأسواق الحكومية ، تهمة عقوبتها السجن ، مصادقة أجنبي أو السير معه في الطريق ، حتى ولو كان زميلاً في الجامعة – وربما حصل ذلك مصادفة. جريمة عقوبتها الحبس (شرّ البلية ما يضحك) .

أما زواج بعض الطلبة الأجانب من مواطنات رومانيات ، فكانت موافقة السلطات الرومانية عليه تتم بصعوبة بالغة ، ورضوخاً للأمر الواقع ، بعد أن يكوننا قد أنجينا طفلهما الأول ، وكان هذا يؤدي إلى خسارة المواطنة الرومانية ل كامل حقوق المواطنة بما في ذلك حق العمل والدراسة المجانية ، حيث كانت تُفصل من دراستها عند زواجهما من الأجنبي ، ولا تتمكن من العودة إليها إلا كطالبة أجنبية تدفع الرسوم المتوجبة على الطلاب الأجانب ، وذلك عن دراستها السابقة اللاحقة ، وإذا كانت عاملة ، تُفصل أيضاً من عملها .. إلى غير ذلك من الحقوق إن وجدت .

ومن التهم التي سمعتها أيضاً في تلك الجلسة ، أن المتهם قد وضع على سطح منزله هوائي يمكنه من التقاط القناة التيليفزيونية البلغارية – حيث أن بوخارست تبعد ستين كيلو متراً فقط عن الحدود البلغارية – رغم أن بلغاريا كانت هي الأخرى دولة شيوعية ، إلا أنها كانت أقل سوءاً من رومانيا ، فقد كانت تذيع في برامجها بعض المسلسلات التلفزيونية الاجتماعية ، وهذا يعني أن الرجل الذي وضع هذا الهوائي على سطح منزله ، سيتمكن من مشاهدة ما هو محظوظ عليه مشاهدته ، بالرغم من عدم معرفة المواطن الروسي للغة البلغارية ، لأن هذا يتعارض مع رغبة النظام في رومانيا بأن يكون المصدر الوحيد لكل أشكال الثقافة والإعلام .

فعلى المواطن الروسي التقييد بتعليمات قيادته الحريصة على سلامته أفكاره ، ولينظر فقط إلى محطة التلفزيون الروسي ، والتي تبث بشكل مستمر لا ينقطع ، من

الساعة عشرين حتى الساعة الثانية والعشرين من كل يوم ، ساعتين كاملتين تملآن على الروماني كل أوقاته، وهي جرعة كافية للمزيد من الإملاءات والإرشادات ، والتوجيهات التي لابد منها ، ليكون مواطناً مثالياً ، مخلصاً لرومانيا ونظامها .

كانت برامج التليفزيون الروماني تتحدد خلال هاتين الساعتين عن إنجازات النظام الروماني ، وقائده نيكولاي تشاوتشيسكو ، في كل المجالات ، الصناعية ، الزراعية ، وزارات تشاوتشيسكو وزوجته ، الداخلية والخارجية . إضافة إلى الحديث عن الشعب الروماني العظيم ، وحياته الجيدة ، بشوفينية واضحة ، فيها استعداء واستعلاء ، على كل الشعوب الأخرى ، بما فيها شعوب الدول المجاورة . ويبذرون صوراً من المسؤولين والعاطلين عن العمل في الدول الغربية . ولقد أدخل إعلام النظام السري في أذهان المواطنين ، المزج ما بين القومية والدين ، وأن كل روماني هو أرثوذكسي وكل من ليس أرثوذكسي فهو غير روماني ، ويعامل كمواطن من الدرجة الثانية .

وهذا ينطبق على الرومان الكاثوليك ، والروم البروتستانت ، والجريحين الكاثوليك والأتراك والتتار المسلمين ، وغيرهم من الأقليات العرقية والدينية الأخرى .

كان هذا الحديث مكرراً ، بحيث أصبح المشاهد يعلم ما سيقوله مذيع التليفزيون قبل أن يدللي بما عنده ، فالامر بات معتاداً من قبل الجميع .

ومرة واحدة في الأسبوع ، ولمدة نصف ساعة ، كان التليفزيون الروماني يبث حلقة من حلقات مسلسل أمريكي (دالاس) ، فكانت الحياة تتوقف في رومانيا ، تفيض في هذا الوقت المياه الساخنة ذات الإنتاج المركزي ، شأنها شأن التدفئة المركزية التوليد على مستوى المدينة .

وكنت أستغل هذه الفرصة ، فرصة تدفق الماء الساخن ، لأقوم بالاغتسال أنا وأسرتي . هذه هي الحياة ، شاحبة فارغة ، في ظل نظام قمعي لا إنساني ، لا يقيم وزناً للإنسان وخصوصياته ، حتى إنتاج الأحذية كان يتطلب موافقة مسبقة من قيادة الحزب على

تصميماًها وبالتالي كلفتها ، فكانت أميز الرومان عن غيرهم من أحذيثهم . رغم جمال الطبيعة في رومانيا ، و كثرة مساحاتها الخضراء ، أجدبت كل حقول العطاء في هذا البلد الجميل ، وكان النظام وبالاً على أهله وأرضه وصناعته . كان وبالاً على كل مناحي الحياة فيه ، فكم قائل و كم قائل : حتى لكان الله قد نسي هذا البلد ، وحاشى لله أن ينسى وما هي إلا أيام وينتهي هذا النظام الشمولي ، لقد كان نظاماً مخالفًا لفطرة الله على أرضه وفي مخلوقاته . ورب سائل يسأل خلال هذه الفترة الطويلة في رومانيا ، ألم يكن لك علاقات اجتماعية مع المواطنين الرومان ؟ والجواب أن أعمالي و علاقاتي كانت مقصورة على عملي الاقتصادي بين رومانيا وبقية الدول ، أستلم ما أشتريه منها على حدودها ، وأسلم ما أبيعها على نفس الحدود ، لمؤسساتها الحكومية المختصة ، دون أي معرفة بما يجري داخل هذه الحدود، من علاقات اقتصادية و اجتماعية .

خلال هذه الفترة الطويلة التي أمضيتها في رومانيا الشيوعية - رغم علاقاتي الواسعة هناك - إلا أن هذه العلاقات جمبعها كانت مع موظفين حكوميين حصراً ، في مرات عملهم وأثناء دوامهم ، فلم أذكر أني في يوم من الأيام دعيت إلى مناسبة ما ، حفل زفاف أو حفل غداء ، أو أية مناسبة أخرى ، حتى أني - ورغم إقامتي الطويلة هناك - لم أعرف ما هي المناسبات المفرحة التي يحتفل بها الرومان ، ولا ما هي المناسبات الحزينة التي تمر بهم ، حتى أعياد الميلاد والفالح ، كانت تمر دون ملاحظة ، بسبب الدوام المعتمد وحضر الاحتفال بهما ، بالرغم من الثقافة الدينية الأرثوذوكسية العميقـة ، للشعب الروماني . فعلاقاتي محدودة محصورة ، وضمن وقت العمل ، ومع الموظفين الحكوميين ، ولا غير ذلك ، وإذا ما صادفت أيّاً منهم ، خارج مركز عمله ، يتتجاهـل بعضاـنا الآخـر ، دون تبادـل التحيـات المعتـادة ، خوفـاً من المسـائلـة اللاحـقة . بعد حصولـي على شهـادة الدـكتـورـاه ، بـحوـالي عـشرـسـنـين ، علمـتـ بالـصـدـفة بـوفـاةـ المـشـرفـ علىـ رسـالتـيـ للـدـكتـورـاهـ ، الأـسـتـاذـ نـيكـوـ لـيسـكـوـ ، وـالـتـيـ كـنـتـ أـقـدـمـ لـزـوجـتـهـ الأـسـتـاذـةـ مـثـلـهـ وبـشـكـلـ سـرـيـ بعضـ المسـاعدـاتـ وـفـاءـ منـيـ لـهـ ، وـتقـديرـاـ

لجهودها وجهود زوجها بمساعدة أثناء دراستي .

كانت هذه المرأة لا أولاد لها ، واستفسرت عن مكان الدفن ، وذهبت إلى هناك . كان وجودي مفاجأةً للجميع ، فقد كانت العيون تنظر إلي باستغراب ! كيف عرفت ؟ ومن أين ؟ ومتى ؟ ولم أشارك ؟ وما الدافع ؟ وبالرغم من أن معظم الموجودين ، أعرفهم لأنهم كانوا من مساعدتي المتوفى ، فقد حاولوا تجاهلي خوفاً من المسائلة ، بالرغم أن المتوفى كان أستاذي ، وأستاذهم ، وحيثتهم فرداً فرداً ، وأي منهم لم يكن مرتاحاً لتحيتي له ، وقد بدا الإرباك والحيرة على وجوههم ، بدلاً من أن يكونوا سعداء لوجود زملائهم القديم ، الذي يقر بالوفاء لأصدقائه ، وأستاذنا المشترك .

إذاً هم يتسللون ، ويحاولون الإشاحة بوجوههم عنني ، لكنني كابوس أح Prism على صدورهم طيلة فترة مراسيم الدفن ، ليس عدم رغبة في مشاهدتي ، فقد كانوا يحبونني وكل منهم يتمنى لقائي منفرداً دون علم الآخرين ، لكن خوفاً من بعضهم البعض ، أن لا يُظهِروا أيَّة علاقَةٍ مع أجنبِي ، حتى ولو كان زميلاً سابقاً لهم .

هذه الأمور ، وأمثالها ، لا أعرف بماذا تخدم النظام الشيوعي ، وهذا الخوف الذي زرَّعه في نفوس مواطنيه ، حتى أن كل مواطن كان يخاف من الآخر ، ما الفائدة من ذلك وماذا يعني ذلك النظام البائس بين وراء هذه الأمور .

كان النظام يبرر فعله ذلك بالخوف على مواطنيه من الفساد ، فهو لاء الأجانب لديهم أموال . أما الرومان فلا حول لهم ولا قوة ، ومعرفتهم بغيرهم من الأجانب تؤدي إلى إفسادهم ، فقد كانت جميع وسائل إعلام النظام تصور الشعب الروماني أنه يعيش في الجنة أما غيرهم فيعيشون في النار ، وهو النظام الفاسد من رأسه إلى أخمص قدميه . الرشاوى في كل مكان في كل مؤسسة من مؤسسات الدولة ، فأنت غير قادر على الحصول على أيَّة سلعة أساسية أو كمالية ، دون دفع رسم غير منظور ، يدفع لحساب الموظف ، أو العامل الذي يقوم بتوزيع تلك المادة ، مع ما يتبع ذلك من تعطيل لسير الحياة ، وسبب ذلك - رغم قلة دخول المواطنين - أن كتلة النقود في رومانيا أكبر من كتلة السلع والخدمات المعروضة والأسعار مثبتة بقرارات حكومية ،

فالسلع غير موجودة وإن وجدت ، فإن سعر مبيعها مثبت ومحدد، ولكن (كيف السبيل إلى حمام منجاب) والحصول عليها يكون بدفع الرشاوى للموظفين القائمين على بيعها ، فإن لم يحصلوا على الرشاوى ، فلا مانع من إفسادها ، والتسبب في تلفها ليزداد الأمر سوءً، وتزداد الفوضى وتشتد الحاجة ، ويزاد الطلب مع قلة المعروضات . بقانونٍ ما تقرر أن تكون درجة الحرارة في جميع المنازل الرومانية ، خلال فصل الشتاء ثمانية عشرة درجة مئوية ، ورغم انخفاض هذه الدرجة ، إلا أن القائمين على تطبيق القانون وزيادةً منهم في تنفيذ رغبات النظام ، أخذوا يقيسون الحرارة عند مخرجها من محطة تسخين الماء المركزية في المدينة ، فتصل إلى البيوت أقل من اثنين عشرة درجة مئوية . فكان الناس ينامون وهم يلبسون معاطفهم ، أما الأطفال فيصابون بمختلف أنواع الأمراض ، حيث تحاول الأمهات تدفعه أطفالهن بشتى الوسائل الممكنة . كانت الجمعية الوطنية الكبرى (البرلمان) تجتمع مرة كل ستة أشهر ، ول يوم واحد حيث تصوت بالإجماع ، على تحويل جميع مقررات اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي الروماني في الأشهر الستة المنصرمة إلى قوانين ! ولل موضوعية أقول : إن لكل نظام محسن ، حتى وإن كثرت مساوئه . والنظام الذي زادت محسنه على مساوئه هو نظام حسن ، أما الذي زادت مساوئه على محسنه فهو نظام سيء ، والنظام الشيوعي في رومانيا ، كثرت مساوئه ، وندرت محسنه حتى أنها قد اختفت تماماً ، فما عدت ترى من حسناته أي شيء يذكر . وكان الذي يزعجني وبثير انتعاشي هو كثرة الأقوال وقلة الأفعال ، وما زلت مذكنت طفلاً أكره كثير الأقوال قليل الأفعال من الناس ، وهاؤنا أعيش تماماً يكثر القول بلا فعل يذكر ، يكثر من الحديث عن الرفاهية التي يدعى بها في كل مكان دون وجود أي أثر لهذه الرفاهية و العدالة المزعومة . نظام يقول ولا يفعل ، ويكثر من القول ، حتى فقد كل مصداقية له عند مواطنيه ، وعند الأجانب المقيمين لديه ، والذين أنا واحد منهم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ، كَبَرَ مَقْتاً عِنْدَ
اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ .

وَلَكُنْ أَيْنَ الَّذِينَ آمَنُوا ؟؟ ضَاعَ الدِّينُ ، وَضَاعَتِ الدُّنْيَا ، وَهُوَ نَظَامُهُمْ :
كَذَلِكَ فَعَلَ رَبُّكَ إِذْ أَهْلَكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلَهَا غَافِلًا—ونَّ
صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

معاني الكلمات قد تغيرت ، فلكل كلام تفسير ، وكثيرة هي التفسيرات والتأنويات ، لا
يعادل كثرتها شيء و كنت أرى أن هذا النظام من الصعب أن يستمر ، ولا بد أن ينهار ،
ولن يترحم عليه أحد في يوم من الأيام فهو يهدم بناءه بيده ، ولا بد أن يقتلع البنية
التي يرتكز عليها البناء ، فيكون الانهيار مدوياً .

وَكَانَ مَا تَوَقَّعْتُهُ . فِي نَهَايَةِ الشَّهْرِ الْآخِيرِ مِنْ عَامِ تَسْعَ وَثَمَانِينَ ، انْهَارَ النَّظَامُ الشِّيُوعِيُّ
فِي رُومَانِيَا ، شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنٌ بَاقِيُّ الْأَنْظَمَةِ فِي مَا كَانَ يُسَمَّى بِالْكُتْلَةِ السُّوفِيَّيَّةِ ،
وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَفَاجِئًا ، بَلْ كَانَ مَتَوْقِعًا ، فَقَدْ انْهَارَتْ تِلْكَ الْمَبَانِي كَأَنَّهَا هِيَا كُلَّ كُرْتُونِيَّةٍ
هَبَتْ عَلَيْهَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .

وَلِأَوْلَ مَرَةٍ فِي التَّارِيخِ ، انْهَارَتْ هَذِهِ الدُّولَ ، وَهِيَ فِي أَوْجِ قُوَّتِهَا الْعَسْكِرِيَّةِ ، بَلْ كَانَ
لَدِيهَا مِنِ الْإِمْكَانَاتِ الْعَسْكِرِيَّةِ مَا تُسْتَطِعُ بِهِ تَدْمِيرُ الْكُرْتَةِ الْأَرْضِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَةٍ ،
فَسَقَطَتْ دُونَ أَنْ يُطْلِقَ عَلَيْهَا أَحَدٌ لَوْ طَلْقَةً وَاحِدَةً . تَشِيكُو سُلُوفَاكِيَا ، أَصْبَحَتْ
دُولَتَانَ ، أَمَّا الْإِتَّحَادُ السُّوفِيَّيِّيُّ وَبِوْغْسَلَافِيَا ، فَقَدْ أَصْبَحَتْ دُولَاتٍ عَدِيدَةٍ ، وَزَالَتْ
الْدِيمُقْرَاطِيَّةُ الْمُزِيفَةُ فِي أَلمَانِيَا الْدِيمُوقْرَاطِيَّةِ ، لَكِنْ أَلمَانِيَا بَقَيَتْ .

فِي الثَّمَانِينَاتِ مِنِ الْقَرْنِ الْعَشِرِينَ ، أَذْكُرُ أَنِّي كَنْتُ فِي زِيَارَةٍ عَمَلَ إِلَى
موسُكُو، وَدُونَ قَصْدَ مِنِي لَفَضَتْ كَلْمَةَ رُوسِيَا ، فَثَارَتْ ثَائِرَةُ مَحَاوِرِي ، حَتَّى لَكَانَتِي
أَرْتَكَبْتُ جَنَاحَيْهِ بِحَقِّهِ وَحَقِّ وَطْنِهِ الْعَظِيمِ ، مُعْتَبِرًا ذَلِكَ إِهَانَةً لَهُ مَا بَعْدَهَا إِهَانَةً . وَفِي
الْتَّسْعِينَاتِ ، وَكَانَ الإِتَّحَادُ السُّوفِيَّيِّيُّ قَدْ انْهَارَ وَأَصْبَحَ دُولَةً وَظَهَرَتْ جَمْهُورِيَّةُ رُوسِيَا
الْإِتَّحادِيَّةُ ، تَقَابَلَتْ مَعَ الشَّخْصِ نَفْسِهِ ، وَحِينَ عَاتَبَتْهُ عَلَى لَوْمِهِ لِي فِي الثَّمَانِينَاتِ

لذكر ي كلمة روسيا ، وها هياليوم روسيا الاتحادية ، دولة كبرى ، قال لي معتذراً : إنه كان مضطراً لذلك ، مرغماً ، وليس قناعةً منه ، كما هو شأن جميع مواقفه الثقافية والسياسية. وهذا ليس شأنه وحده ، بل شأن جميع الناس في تلك الفترة . ولم تكن مواقفه ولا مواقف غيره تعبيراً عن قناعة ، إنما هي إملاعات النظام ، وما أكثرها . لذلك نجد أنه حين سقط ، لم يقل له أحد - لعاً - وحين توفي لم يترجم عليه أحد . وكان موته حدثاً أثار البهجة في نفوس الناس .

ولا لعاً لبني ذكوان إن عثروا

كان الأكثر ابتهاجاً لموت تلك الأنظمة شعوبها التي عانت ويلات كذبها ، وخداعها وبطشها وجبروتها .

كانت مهمتي في رومانيا تحصر في العمل دون أي اهتمامات أخرى ، فكانت حياتي بين عملي وبيتي . أما لقاءاتي الاجتماعية ، والتي كانت محدودة ، فلم تكن مع الرومان بل كانت مع الأجانب المقيمين هناك . سواء بغض النظر الدراسة ، أو العمل في ممثليات الشركات الأجنبية ، إذ يُحظر على الأجانب العمل في المؤسسات الرومانية .

كنت أحقق دخلاً ممتازاً ، وأسافر كثيراً ، داخل وخارج رومانيا ، لمتابعة عملي ، وإنجاز مهماتي ، ومنها إلى العربية السعودية التي احتفظت فيها بإقامتي لتسهيل عملية دخولي إليها وخروجي منها . لكنني أصبحت أكثر رغبة في الانتقال بعملي إلى سوريا ، رغم النجاحات التي كنت أتحققها في عملي برومانيا ، والعائدات المجزية لهذا العمل .

كان عملي موزعاً بين رومانيا وغيرها من الدول ، ولكن عيني وقلبي ، كانا على بلدي سورية التي أحبها ، وأتشوق للعمل فيها ، وأنهني الفرصة للدخول إليها ، لأناسهم بقدر ما أستطيع في تنميتها ، منتظراً صدور قانون يسمح للقطاع الخاص ، بإقامة مشاريع خاصة يكفلها القانون ، فالحال في سورية كان في تلك الأيام يشهد هيمنة الدولة المطلقة على النشاطات الاقتصادية المتوسطة والكبيرة ، ولا يسمح إلا

بالقليل للقطاع الخاص . لكنني بدأت وبشكلٍ خجول في بناء رأس جسر للعمل في سوريا ، وبداية تدريب أخوتي لمساعدةً لهم ، وتطوير أحوالهم .

بدأت أتململ ، وقد كثرت أموالي ، وأفker بالفرصة المواتية لدخول سوريا بأموالي التي جمعتها ، لأساهم في تطوير بعض صور الحياة فيها ، داعياً الله أن لا يطيل انتظاري .

وبدأت بشراء شقة بدمشق لتكون مقرّاً لي - إذا استجاب الله دعائي - وقررت الحكومة السماح للقطاع الخاص بالعمل في سوريا ، فلا بدّ من العودة إلى سوريا بعد هذا العناء وطول الاغتراب .

كنت أريد استثمار ما تمكنت من جمعه من أموال ، بالإضافة إلى ما يمكنني اقتراضه للأقوم بتشغيله في سوريا ، وكانت رغبتي شديدة في أن أقوم بأي عمل في سوريا وبصرف النظر عن المردود المادي ، المهم أن أنقل عملي إلى سوريا ، وهناك الأهل وهناك الأصدقاء ، وكل إنسان مفطور على حب وطنه ، وكان حبي - ولا يزال - لوطني عارماً فياضاً ، فهو مسقط رأسي ، وفيه مدارج طفولتي . وفيه أشعر بوجودي وكيني وأكون مفيداً لأهلي ، وأقاربي وأصدقائي ، وأبناء وطني .

كان مما أجيّج هذا الحنين فيّ ، وزاده قوّةً ، أنني لم أستطع أن أقيم في رومانيا ، أيّة علاقة مع أيّ من مواطنيها ، بسبب القوانين التي تمنع ذلك ، فكأنّني في سجن كبير .

نعم .. لقد كنت أسكن في سُقُّةٍ فاخرة ببوخارست ، ولدي العديد من السيارات ، وكل شيء موفّري ، أكثر مما يمكن توفره لي في سوريا . ولكن مع من كنت أسهر؟ وبمن كنت ألتقي؟ إنّ جiranي في البناء الذي كنت أسكن فيه ، ليس بيني وبينهم أيّة علاقة . برغم تلك السنوات المديدة ، لم أتمكن من إقامة أيّة علاقة شخصية مع أيّ من المواطنين الرومان ، وكل علاقاتي كانت في حدود العمل ، مع موظفين حكوميين خلال أوقات الدوام الرسمي ، وغير ذلك ، لا وجود لأيّ علاقات ، حتّى أنّي كثيراً ما استخدمت المصعد مع بعض الرومان الذين يقيمون في نفس

بنائنا الذي نسكن فيه فكانوا يتحاشون السلام علي أو حتى النظر في وجهي . طبعاً من منطلق أن السلام يجرُ إلى الكلام ، وهذا سيجرُ إلى المسائلة من قبل الأجهزة الأمنية عن طبيعة ذلك الكلام وما ينتج عن ذلك من إجراءات، خصوصاً وأن جميع جيراني هم من النخبة الحاكمة إذ كيف يتسمى لغيرهم ، السكن في مثل هذه الأحياء الفخمة .

كان يحضر علينا شراء أي عقار ، فقد كنا نستأجر بيوتنا و مكاتبنا ، من مؤسسة حكومية مخصصة لهذا الغرض ، وكانت معظم هذه البيوت مصادرة ، من أبناء النخبة في نظام ما قبل الشيوعية . كانت أجور هذه البيوت والمكاتب تحدد بقرار إداري من الجهة الحكومية المؤجرة ، وبنفس سوية إيجارات البيوت المماثلة ، في لندن وباريس !؟ وعندما كنّا نتساءل عن المقارنة ما بين بوخارست و كلّاً من لندن وباريس ، كانوا يجيبوننا: أين لندن وباريس من بوخارست ، و علينا أن تكون شاكرين حيث أن الإيجارات في بوخارست هي أقل منها في طوكيو .

أما ما نحتاج إليه من موظفين ، فكنا ملزمين بالتعاقد معهم ، من خلال مؤسسة حكومية أخرى مخصصة لهذا الغرض أيضاً ، ندفع لها أجورهم ، التي تحددها تلك المؤسسة ، والتي تدفع لهم بدورها ، نفس معدل الأجور التي كانوا يتقاضونها من المؤسسات الحكومية التي كانوا يعملون بها سابقاً ، وهي لا تزيد عن سبعة بالمائة ، مما كنا نلزم بدفعه لها . إضافة إلى أن جميع هؤلاء الموظفين ، كانوا ملزمين بالكتابة إلى أجهزة الأمن ، عن كلّ ما كنا نقوم به سواء في مجال العمل أو أي نشاط آخر ، حتى علاقاتنا الاجتماعية إن وجدت ، وكنا مضطرين أن ندفع رشاوى لموظفيينا بما فيهم السائق الخاص، والخدمة في المنزل ، من أجل أن لا يكتبوا غير الحقيقة . إذ أن أي تقرير كاذب منهم كان يعرضنا للعديد من المضايقات ، بما في ذلك طردنا من رومانيا ، وخسارتنا لعملنا ، وقد حدث من هذا الكثير .

هذه الأسباب التي ذكرت ، وحب الأهل والوطن ، جعلت عيني وقلبي على بلدي سوريا، وما أن تم السماح بالمحظوظ والممكّن من النشاط للقطاع الخاص في أواخر

الثمانينات، حتى سارعت إلى تأسيس رأس جسرٍ لي في سوريا ، أرتكز عليه في بداية عملي وإن كان بسيطاً ومتواضعاً ، واضعاً نصب عيني ومقتنعاً أن فضائي هو بلدي وأن أكون نافعاً لأناساً أعرفهم ، وعندى الكثير من القواسم المشتركة معهم ، آمالٍ آمالُهم وألامٍ آلامُهم ، أن أكون مفيداً لهم ، أن أشارك ولو قسماً منهم في أفرادِهم وأتراحهم . أن أعود وألتقي أصدقائي القدامى الذين عايشتهم خلال مراحل دراستي وما قبلها .

ما إن سنتت الظروف في عام سبعة وثمانين، حتى باشرت بوضع ركائز للعمل فيها وكان بإقامة أول مشروع لي في حمص في المنطقة الصناعية ، وذلك لبيع الرولمانات وهي من قطع الغيار التي تستخدم في الآليات . واتفقت مع أخي محمد (عدنان) على أن يقوم بإدارة هذا العمل مقابل حصوله على نسبة من الأرباح . كنت أرغب بتطوير إمكاناته المادية والمعنوية .

كنت أقوم بتصدير هذه الرولمانات من رومانيا ، ويقوم أخي ببيعها في سوريا ، وأطل عام تسعه وثمانين ، حيث سُمح للقطاع الخاص استيراد بعض مواد البناء ، كالحديد الصناعي والأخشاب وما شابه ذلك .

وحين تم السماح بالاستيراد - ولكن بشروط - ذهبت إلى سوريا ، وقمت بجولة في مدنها بحثاً عن الذين يملكون إجازاتٍ للاستيراد ، حيث أن هذه الإجازات كانت مرتبطة بتصدير نفس قيمها من المنتجات السورية واستطعت خلال تجوالي إنشاء شبكة من العلاقات التجارية ، تمكنت بموجبها من تصدير كميات لا بأس بها من الحديد والأخشاب بكافة أنواعها إلى سوريا .

استمر ذلك عامي تسعه وثمانين وتسعين ، حيث كان أخي المهندس زياد رحمة الله قد أنهى خدمته العسكرية ، فانضم وأخي الحاج محمد (عدنان) إلى الإدارة العامة في شركة فرزات للتنمية ، وكذلك صهري الأستاذ الحقوقى محمد محمود العيسى كمدير لفرع الشركة في حلب ، والذي ترك عمله كرئيس لمجلس مدينة الرستن بعد أن أمضى فيه حوالي عشر سنوات ، وكذلك صهري المرحوم

الأستاذ علي أحمد خطاب كمدير لفرع الشركة في دمشق ، إلى أن توفاه الله في مطلع آذار من عام تسعه و تسعين . حيث عملوا جميعاً مقابل نسبة من أرباح النشاطات الاقتصادية التي كانوا يديرونها . كما عمل في الشركة العشرات من أقربائي وجيراني وأصدقائي وأولادهم الذين انضموا إلى العمل فيها سواء في إدارتها العامة بحمص أو في فروعها داخل وخارج سوريا ، ومنهم الشاب تامر أحمد فرزات الذي عمل في شعبة العلاقات العامة مباشرة بعد حصوله على الشهادة الثانوية العامة ، وكانت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن تزوج ابنتي الكبرى فاطمة (فاتن) بعد أشهر من مباشرته العمل .

وبدأت أصدر إلى سوريا ، الحديد ، والأخشاب ، والجرارات ، والمعدات الزراعية ، والمواد الكيميائية ، وبالتوازي مع عملي أنشأت فروعاً ومستودعات في معظم المدن السورية واللبنانية . وهكذا قامت فرزات للتنمية .

والحقيقة أن السوق السورية كانت في مطلع التسعينات عطشى ، فلاقى عملي نجاحاً ولاقت تجاري رواجاً ، ومصداقيةً مع المتعاملين .

لقد كان هناك نشاط جيد في هذه الفترة ، حيث وجدت أن أعمالي في سوريا أخذت تزدهر . أسست بموجب قانون الاستثمار الذي صدر في منتصف عام واحد وتسعين كلاً من شركة فرزات للنقل ، وشركة فرزات للصناعات الغذائية ش . م . م . (فامكو) .

كما بدأت بالتوازي مع هذا ، بتصفيه أعمالي في رومانيا ، ونقل معظم نشاطاتي إلى سوريا ولم يطل علينا عام سبعة و تسعين إلا وكانت قد دعتْ نهائياً إلى أرض الوطن . علماً أن هذه الفترة ، هي فترة السنوات التي شهدت سقوط الأنظمة الشيوعية ، ونهاية ما كان يسمى منظومة الدول السوفيتية ، ومن ضمنها النظام الشيوعي في رومانيا . في تلك الفترة ، كان في رومانيا وبقي الدول الشيوعية سابقاً ، فرص عمل تکاد لا تتكرر ومعظمها نشاطات تجارية ، وأكثر مردوداً بكثير مما هو الحال في سوريا ، كانت المغريات كبيرة جداً ، وهي فرصة نادرة ، فوضى في السوق ، والربح

أكيد لمن لديه الخبرة ورأس المال . ولكن قراري بالعودة إلى وطني كان نهائياً ، لا تشيني عنه كلُّ المغريات . في الوقت الذي كانت وفود الناس تقاطر على رومانيا للعمل فيها - ليس فقط على رومانيا، بل على جميع الدول التي كانت اشتراكية - كنت أعد العدة للرحلة عن رومانيا إلا أن هذا الأمر كان يحتاج إلى وقت .

وفعلاً .. استغرقت عملية رحيلي من رومانيا إلى سوريا ست سنوات ، لكبر حجم أعمالني وتشعبها والعمل على الوفاء بكل تعهداتي والتزاماتي تجاه الشركات الأخرى والموظفين العرب والرومان العاملين لدي ، والذين أوجَدْتُ لهم فرص عمل مناسبة داخل وخارج رومانيا . في نهاية عام ستة وتسعين أنهيت أعمالني هناك ، وأصبحت سوريا بلد إقامتي ، ومنها أوجه نشاطاتي ، بعد أن كانت رومانيا هي المركز .

كانت نشاطاتي في رومانيا تقل شيئاً فشيئاً خلال تلك السنوات الست ، وتزداد في سوريا إلى أن أصبحت - وبشكل كامل - في سوريا ، فجميع ما أملك من أموال سائلة إضافةً إلى القروض التي تمكنت من الحصول عليها من الشركات والبنوك الخارجية جميعها أحضرتها إلى سوريا ، وبدأت عملية استثمارها ، وخصوصاً بعد أن حصلت على ترخيص شركة فرزات للصناعات الغذائية ش . م . م (فامكو) ، في أواخر عام اثنين وتسعين .

كان تأسيس فامكو منعطفاً نوعياً في مسيرة حياتي ، من العمل التجاري إلى العمل الصناعي مع ما يعني ذلك من الحاجة إلى خبرات كبيرة ، ومعدات صناعية ، ومتخصصين آخذاً بعين الاعتبار أن الصناعة تختلف عن التجارة ، وهي ذروة النشاط البشري الذي بدأ بالرعي ، ثم الزراعة ، ثم التجارة ، وأخيراً الصناعة التي تختزل كل النشاطات البشرية السابقة وتطورها .

وللحقيقة أقول : إنه كان عملاً ممتعاً بالنسبة لي ، أن أشعر بأنني أسهم ، ولو بشكلٍ متواضع ، في بناء بلدي الذي نشأت وترعرعت فيه .

بدأت أشعر بحجم الفائدة التي أقدمها لبلدي وللناس الذين أعيش معهم ، وأنا منهم وكيم هو جميل أن يشعر الإنسان بأنه مفيد للآخرين ، إنها لفرحة تملأ جوانحي أن أكون مفيداً للناس. الأمور الآن - بالنسبة لي - قد تغيرت هنا في سورية عنها في رومانيا ، حتى الأسماء تغيرت دلالاتها و معانيها .

كانت الأسماء في رومانيا هذا عربي ، وذاك روماني ، وبلغاري ، وهنغاري ، كان الناس يخاطبون بجنسياتهم ، أما الآن فأصبح لاسم معنى آخر ، الاسم الآن يعني شخصاً بذاته ولم يعد يعني بالنسبة لي شعباً أو جنسيةً . أتفق معه أو أختلف كشخص ، يبادلني المشاعر الشخصية ، إضافةً إلى ما يربطنا من تاريخ مشترك ، وعادات ، وتقاليد ، تغني الحياة وتعطيها طعماً مختلفاً .

ما إن عدت إلى سورية حتى بدأت توسيع وتطوير نقاط ارتكازي الاجتماعية والاقتصادية والتي كنت قد بدأتها خلال زيارتي السابقة منذ مطلع التسعينات . إضافةً لمن ذكرت سابقاً فقد أعدت توطيد علاقاتي مع أصدقائي وزملائي ومعارفي القدامى داخل مدينة الرستن وخارجها .

وفي حمص التي أصبحت مقراً عملي تواصلت مع زملائي أثناء الدراسة في الثانوية الصناعية ومنهم ناجي الزعيم و محمد منير بيازيد الطالب ، وزملائي في الثانوية العامة ومنهم عبد المجيد طالب والأستاذ سهيل محمود ، وفي الدراسة الجامعية ومنهم الدكتور نصر الحاييك والأستاذ بدر الدين عجلاني ، ومن معارفي بعد الدراسة الجامعية الأستاذ فايز مطلق الذي كثرت لقاءاتي به .

عندما عدت إلى سورية بشكل نهائي كان الأستاذ فايز مطلق يعمل في صحفة حمص الحكومية ، وهو إضافة إلى مواهبه و مُثُلِّه الاجتماعية الموروثة ، من الذكاء والجرأة والكرم ، والتي طورتها التجارب والأيام ، إضافة إليها يمكن اعتباره نموذجاً للتحولات الفكرية والاجتماعية التي جرت في سورية بعد ثورة الثامن من آذار لعام ثلاثة وستين ، فقد ولد وشب في إحدى قرى بادية الشام التي أتم فيها مرحلة تعليمه الابتدائي ، وتتابع تعليمه خارجها حتى حصوله على الإجازة في الأدب العربي من

جامعة دمشق ، عمل خلال دراسته وبعدها في إدارات الدولة ومنظماتها داخل سورية وخارجها، إلى أن استقر به المقام في مدينة حمص بعد أن كان قد تزوج سيدة فاضلة منها. فهو نموذج لأبناء الريف الذين تعلموا وعملوا في الوظائف الحكومية داخل كبريات المدن التي استقروا فيها بشكل نهائي .

فكان شاهداً مباشراً على جميع المراحل التي مرت بها ثورة الثامن من آذار وتطوراتها العقائدية والسياسية .

وُلِدتْ فكرة إنشاء فامكو ، إحدى شركات مجموعة فرزات للتنمية ، والتي تنتج كافة أنواع الزيوت النباتية ، والسمون ، والزبدة ، والصابون ، والأعلاف ، من غيرتي على وطني ، ففي خريف عام اثنين و تسعين ، وعندما كنت عائداً من حلب إلى الرستن بالسيارة ليلاً سمعت من المذياع أن سوريا تصدر بذور القطن ، وتستورد الزيوت النباتية والسمنة ، وغير ذلك مما يمكن إنتاجه من تصنيع بذور القطن .

فتساءلت في نفسي : لماذا لا أقوم بإشادة مصنع لتصنيع هذه البذور ، فأضمن بذلك تصنيع المواد الأولية المنتجة في بلدي ورفع قيمتها المضافة ، والحصول على منتجات جيدة تساهم في تحسين الأمن الغذائي الوطني ، وفق أفضل المواصفات العالمية ؟ . فهذه المنتجات يستهلكها أبناء وطني الذين أحبهم وأغار عليهم ، فمكون بذلك مرقاح الضمير من ناحية جودة هذه المنتجات الغذائية ، والتي تعكس جودتها على سلامة أبناء وطني ، فهي غذاؤهم ، وتشكل حيزاً ثابتاً في كل بيت من بيوتهم .

أقيمت فامكو جنوب مدينة حمص ، بحوالي خمسة عشر كيلومتر ، على طريق دمشق الدولي ، وعلى مساحة تزيد عن مائة وثمانين ألف متر مربع ، وتم استيراد آلاتها من ألمانيا الاتحادية ، والولايات المتحدة ، والسويد ، والنرويج ، وفرنسا ، وإيطاليا والدانمارك ، كما تم استيراد عشرات السيارات الكبيرة والصغيرة ، لزوم نقل موادها الأولية ومنتجاتها ، داخل وخارج سورية ، من السويد واليابان ، حيث أقلعت وبشرت إنتاجها في عام سبعة وتسعين . أصبحت فامكو ، بآلاتها

وتجهيزاتها وجهود مئات العاملين فيها من المهندسين والفنين والإداريين ، شركة وطنية رائدة تميز بمنتجاتها ذات النوعية العالمية ، وساهمت في تعزيز الاقتصاد الوطني والأمن الغذائي وخففت من الاستيراد وساهمت في التصدير . وهذا هي منتجاتها ، تزاحم المنتجات الأجنبية داخل سوريا وخارجها بشقة وثبات ، وقد امتلأت بها المحلات التجارية ، وكسَّبتْ موقعاً يتطور باستمرار .

بعد أن وضعت عصا الترحال في سوريا ، أخذت بوضع الأسس لقيام عملٍ فيها ، من خلال تطوير شركة فرزات للتنمية بفروعها في أغلب المدن السورية ، واللبنانية ، وتأسيس شركة فرزات للنقل ، التي تضم أسطولاً من عشرات السيارات الشاحنة الكبيرة ، مهمتها القيام بنقل البضائع داخل سوريا وخارجها . وبإمكانى القول الآن أنه قد أصبح هناك مجموعة من الشركات تنضوي تحت اسم مجموعة فرزات للتنمية ، تقوم بأعمال استثمارية ، وصناعية ، وتجارية ، وتسويقية ، داخل سوريا وخارجها .

توفر هذه الشركات بصورة مباشرة ، أكثر من ألف ، وبصورة غير مباشرة أكثر من خمسة آلاف فرصة عمل . وأخذت الأمور تسير بالمنحي الطبيعي ، في اتجاه تطوير مجموعة اقتصادية ، ذات هُمّ وطني ، مما زاد من مسؤولياتي الاقتصادية ، والمالية ، والاجتماعية .

وللتخفيف من ظاهرة الابتعاد عن التعليم لدى أبناء الرستن ، قمت وبمساعدة مباشرة من والدي ، بحملة ترهيب وترغيب بين أبناء عائلتنا ، فأصبحنا نقاطع المناسبات الاجتماعية لأقربائنا الذين تركوا المدارس دون إتمام تعليمهم ولو بالحصول على الشهادة الثانوية العامة .

وتنظيم احتفال سنوي في دار الضيافة يحضره معظم أقربائنا كباراً وصغاراً ، ذكوراً وإناثاً ، لتكريم الناجحين في الشهادات الإعدادية والثانوية والجامعية ، نستمع فيه لكلمات التكريم والتشجيع في جو تنافسي جميل ، وفي نهاية الحفل يقوم عميد

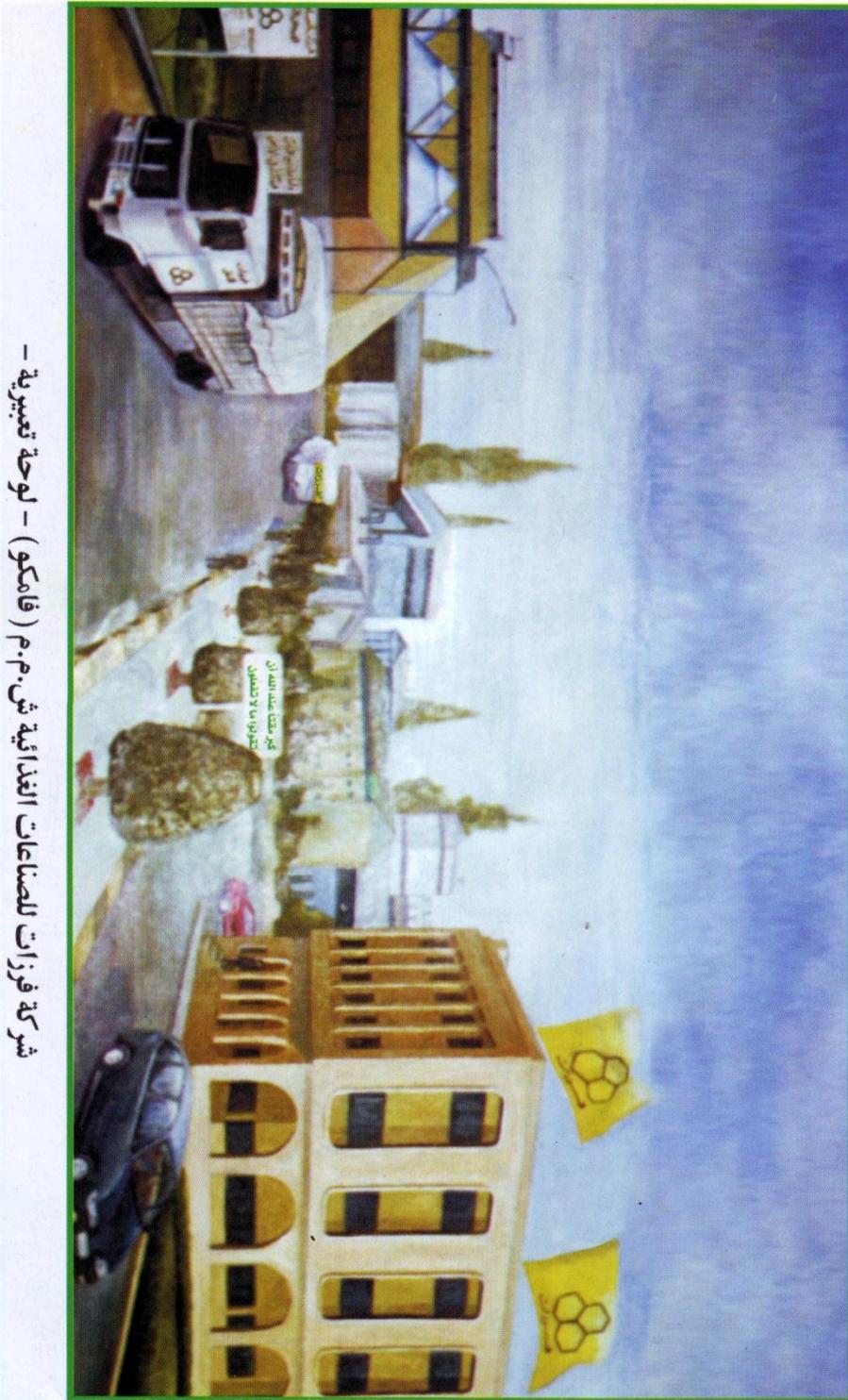
عائلتنا الحاج سليمان حفظه الله بتوزيع المكافآت وشهادات التقدير الموقعة من قبله، على الناجحين .

لاقت هذه الخطوات أثراً طيباً في نفوس أبناء عائلتنا والعائلات الأخرى وبدأت العودة إلى تقدير العلم والفوز بشهاداته . و من نتائج هذه الحملة أن عادت ابنتي الكبرى فاطمة (فاتن) في عام ثلاثة وألفين إلى دراسة الثانوية العامة بعد انقطاعها منذ زواجها في عام واحد وتسعين و تسعمائة ألف ، وحصلت عليها، وبرغبة جامعة انتسبت إلى كلية الشريعة ، إحدى أهم كليات العلوم الإنسانية في جامعة دمشق حيث تم تكرييمها مع أقربائها و قريباتها ، في دار الضيافة يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر آب لعام ثلاثة وألفين باستلامها شهادة التقدير من يد جدها ، حيث ارتجلت كلمة موجزة قالت فيها أن هذه اللحظة هي من أهم لحظات حياتها، وأنها تشعر أنها شخص مختلف تماماً عما كانت عليه من قبل .

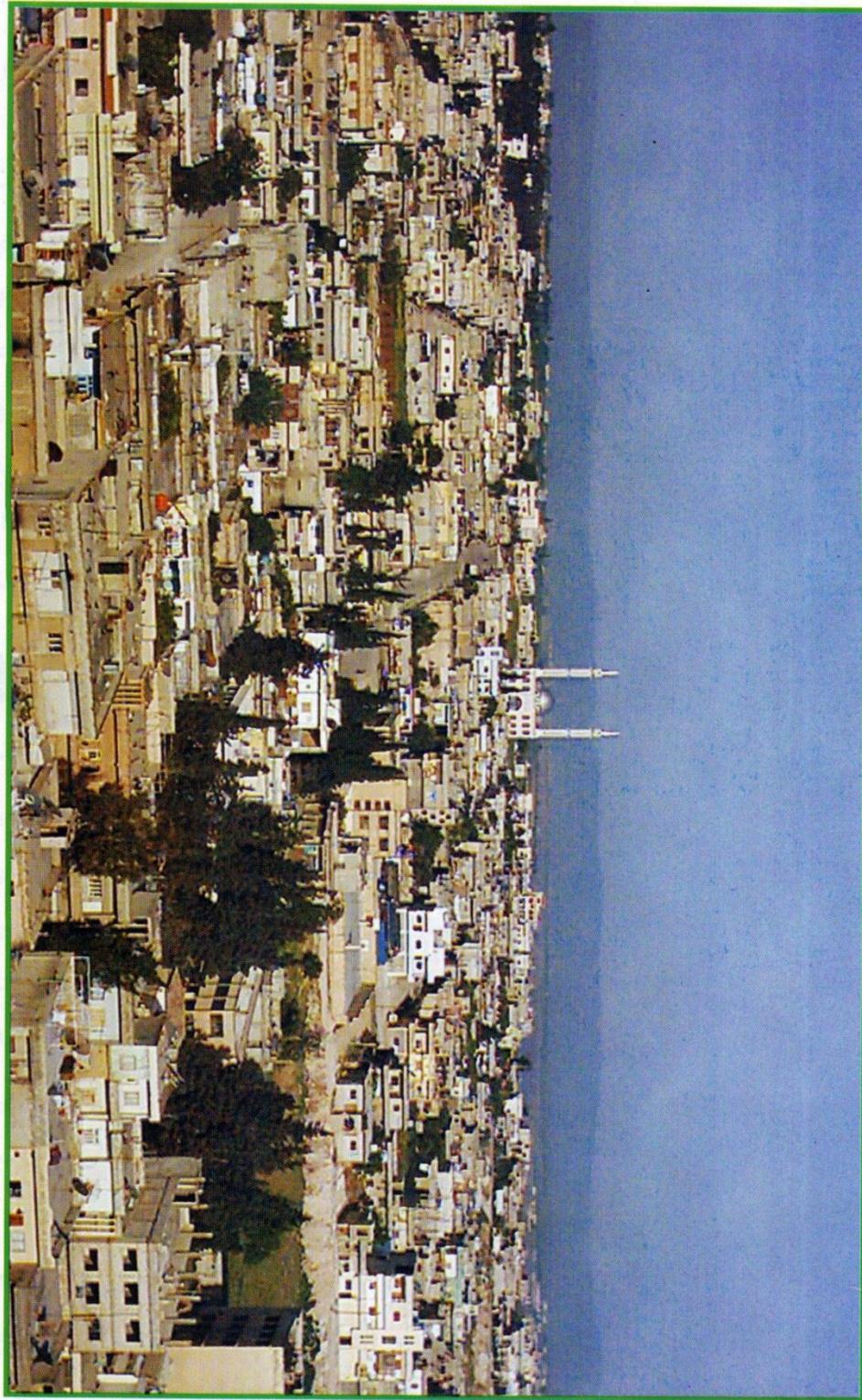
أثرت ظاهرة التكريم السنوية للناجحين بشكل كبير على جميع أبناء عائلتنا وخصوصاً الصغار منهم ، وأصبح التنافس الإيجابي واضحاً ، بعد أن كان التنافس السلبي غالباً باتجاه كل ما هو غير مفيد . أصبح التنافس على التعلم والحصول على أعلى الدرجات العلمية ، لا وبل عادت السيدات وبعد انقطاع طويل عن الدراسة ، إلى التقدم من جديد لامتحانات الشهادات الثانوية ومحاولة الانساب إلى أي من الجامعات السورية ، وانعكس هذا على نوعية العلاقات داخل كل أسرة ، و العلاقات ما بين الأسر تقارب أو تباعدت ، وبعد أن كان التنافس على القضايا الاستهلاكية، تحول إلى تنافس لاقتناء أمهات الكتب وقراءتها وفهم محتوياتها والاستفادة منها في جميع مجالات الحياة ، حتى بدأت أشعر أنني أصبحت ضمن مجتمع لا يشبه المجتمع الذي وجدته عند عودتي من المغرب .

لم تعد الفتاة الأكثر أهمية في عائلتنا هي التي يكون ثوبها أعلى سرعاً وإنما التي لديها شهادة دراسية أعلى وثقافة أوسع . لقد تغير سلم التقييم الاجتماعي في عائلتنا . وأصبح التحصيل العلمي والثقافي أهم مركزاته وعناوينه .

شركة فرزات للصناعات الغذائية ش.م.م (فامكو) - لوحجة تعبيرية -



مجمع جامع محمود العجمي المفتوحاً بالجهة الغربية لمدينة الرستن.



كنت كما ذكرت سابقاً صديقاً لوالدي مُذ كنت طفلاً، فقد كانت علاقتي به مختلفة عن علاقته بباقي أخوتي وأخواتي، ليس لأنني الأكبر سنًا بين الذكور، بل لأنسجامنا وتشابه طباعنا وتفكيرنا، فكثيراً ما كان يصحبني في أسفاره وترحاله.

أذكر أنه في صيف عام اثنين وستين، كان لديه دراجة نارية (موتور) ألمانية المنشأ من نوع مِيِيل، وأخذني خلفه إلى حماه، وعند العودة وأنباء صعوده من مركزها متوجهًا إلى الرستن، غير سرعة الدراجة من السرعة الأولى إلى السرعة الثالثة مباشرة، دون المرور بالسرعة الثانية، فقلت له معاقباً: ما هكذا تكون قيادة الدرجة. فسكت ولم يجب.

لما استوى الطريق عند مدخل حماه الجنوبي توقف وطلب مني النزول، وما إن نزلت عن دراجته، حتى انطلق قائلاً: عندما يكون لك دراجتك قدْها كما يحلو لك. وتركني وحيداً أنتظر ساعات عديدة حتى مررت بي أول سيارة ركاب متوجهة إلى حمض، وأقلّتني إلى الرستن، وكان الليل قد أرخى سُدوله عليَّ ليتلي ... وأحمد الله أنه كان لدى ما يكفي لدفعأجرة الطريق.

وفي صيف عام ثلاثة وألفين، أي بعد مضي حوالي واحدٍ وأربعين عاماً، سافرت مع والدي إلى حماه، لتقديم واجب العزاء بوفاة أحد أقاربنا فيها، وأنباء العودة، وعند مرورنا بالمكان الذي أنزلني والدي فيه من على دراجته. قلت له مداعباً: هل تذكُّر يا أبي عندما أنزلتني هنا من على دراجتك النارية؟ قال: نعم أذكر. فقلت: ما رأيك أن أفعل نفس الشيء معك؟ قال: لا يحق لك فعل ذلك، فأنا لم أتدخّل في قيادتك الآن ولم أعطيك ما لا يلزم من التوجيهات كما فعلت أنت سابقاً.

وأضاف: لو كنت عرفت يومئذ حدودك لما تجشمت مشقة العودة وحدك، رحم الله امرء عرف حده، فوقف عنده. كان كعادته دائمًا، جوابه موجز ومحموم. وسكت دونَما تعليق. وأذكر أيضاً أنه في ظهيرة أحد أيام صيف عام أربعة وخمسين، وكنت حينها في السادسة من عمري، سمعت والدي يقول لمجموعة من ضيوفه

في مزرعتنا: إن موسمنا من الجبس لهذا العام سيكون وفيراً إن شاء الله ، وقد
لأنجد من يقوم بقطافه ..

وبعد انصافهم جميماً، شعرت أنَّ علي مساعدة والدي في حل هذه المشكلة ،
فبدأت أقطف الجبس الذي كان صغيراً جداً ، وأجمعه في مكان واحد.

وبعد عمل شاق استغرق عدة ساعات ، تمكنت خلالها من قطاف حوالي مائتي
بطيخة عاد والدي إلى المزرعة ليأخذني معه إلى البيت ، ودهش لماً رأى مدى
تعبي وما فعلت. وقال: أنت يا محمود كعادتك مجتهد ، ولكن الجبس لم يحن
قطافه بعد يا بُني ، وإن قطافه لا يحين إلا عندما يكبر ويصبح داخله أحمر اللون
ولذيد الطعم والمذاق ، وسكت دون إجابة مطأطناً رأسي .

وفي طريقنا إلى البيت عرَّج على دكان صديقه قاسم وضاح ، حيث قال له: أعط
محموداً ما يشاء من البوظة والسكاكر مكافأة له على جهوده في جمع الجبس اليوم.
وهنا تسأله صديقه قاسم متدهشاً: أحان وقت قطاف الجبس عندكم يا أبا محمود ؟
فأجابه والدي ضاحكاً: لا . ولكن محمود أراد أن يساعدنا ، فباشر بقطافه منذ الآن.
أما أنا ، فدون أية كلمة حملت البوظة والسكاكر إلى البيت لأطعم منها والدي
وأخوتي .

لم يبال والدي بالخسارة المادية التي نتجت عن عملي هذا ، والتي تقدَّر بأكثر من
ألف كيلوغرام من البطيخ الأحمر عند نضوجه ، ولكنه أكبر في الشعور بالمسؤولية ،
الذي حرص على تنميته لدى منذ طفولتي .

أول يوم جمعة من عام ثمانية وتسعين كان يوماً حزيناً جداً بالنسبة لي ، فلقد تلقيت
نبأ وفاة والدي - الحاجة أم محمود - رحمها الله .

هُرِّعْتُ إلى بيته فور سماعي بالمصاب الجلل ، كنت مذهولاً ومصدوماً
بالحدث . فقد مضيت ليل الجمعة معها ، سِرْرُونَا معاً ، وكانت رحمها الله في تلك
الليلة بأحسن أحوالها ، ولكنها توفيت قُبَيل شروق الشمس ، مع إطلال فجر يوم

ال الجمعة الأولى من تموز بسبب سكتة دماغية لم تمهلها ، و كان الأجل . و صلت بيت والدي الذي كان مكتظاً بالناس ، وفي هذا الجو الحزين ، كان الخلاف بين أقاربي يدور بين أكثر من فريق ، هذا يقول : ندفنه في مقبرة الجامع الكبير ، و آخر يرى في المقبرة الشرقية . فريق يقول : نحرق لحداً جديداً و آخر يقول : لا... بل في لحد أنها . كان اللّعنة شديدة .. ودارت بي الأفكار ، تذكرت كيف نستعد للشتاء والصيف ، بإعداد ما يلزم من ثياب ومؤونة ، نُعدُّ لكل شيء ، ولا نعلم أن هذا الشيء سيتحقق أم لا ؟ وهل سندرك ماؤملاً ؟ أم يتوفانا الله قبل ذلك . والشيء المؤكد تحققه لأنعد له ولا نحضر ، هو الموت والقبر فإننا لأنعد له ما يلزم .

اهتمامنا يجب أن يكون منصباً في هذه اللحظة على كيفية تجهيز جثمان المتوفاة بما يلزم من غسلٍ ، والصلوة عليها و الدعاء لها ودفنهما، بما يليق بأسمى مخلوقات الله على الأرض الإنسان، وأعز إنسان على الإنسان هو أمه ...

في هذه اللحظة ، وأنا أقف في الغرفة متاثراً بالحدث أمام جثمان والدتي، داعياً لها، معترفاً بفضلها ، راضياً بقضاء الله تعالى وقدره ، ذاهلاً عما حولي، لمعت في رأسي فكرة إقامة مقبرة خاصة ، تُعدُّ فيها القبور سلفاً ، وتكون قبوراً بسيطة ، حسماً لكل جدل وتماشياً مع شريعتنا الإسلامية السمحاء ، وتفادياً لمفاهيم مجتمعنا المتباينة .

وما إن انتهينا من واجبات العزاء بوفاة المرحومة والدتي ، حتى قمت بمناقشة الأمر مع والدي حفظه الله .

واتفقنا على تحويل قطعة أرض لنا ، تقع على ضفاف بحيرة سد الروشن من الجهة الجنوبية، مساحتها بحدود سبعة آلاف متر مربع ، و مُشجرة بأشجار الزيتون المباركة إلى مقبرة خاصة لأسرتنا . فتم تسويتها بجدار يحيط بها من جهاتها الأربع ، يبلغ ارتفاعه حوالي المترین . وقمنا ببناء غرفة للخدمات ، و حفر بئر للماء . و توفير ما تحتاجه المقبرة بشكل دائم . من مواد وتجهيزات . وتشاء إرادة الله أن تكون أول نزلاء هذه المقبرة ، المرحومة عمتى - الحاجة مريم - أم محمد العيسى .

في مطلع عام واحد وألفين ، توفي أصغر أخوتي - المرحوم المهندس زياد - في حادث سير أليم في العراق ، فكان التزيل الثاني لهذه المقبرة . وأقمنا لهم قبوراً بسيطة دون أن نتعرض لانتقادات الآخرين ، كما حدث في قبر والدي التي دفت في مقبرة الجامع الكبير .

في هذه المرحلة المنعطف من تاريخ حياتي ، وفي جلسة مراجعة مع الذات ، بدأ تفكيري بل أخذ ينصب حول مسؤوليتي عن المجتمع الذي أنا منه ، ووطني ، وأمتى وهو شعوري القديم الحديث ، وبما هو متوفّر ، وضمن إمكانياتي المتواضعة ، وهذا جزء من واجباتي الدينية والإنسانية ، بدأت أطّور مساهماتي متعاوناً مع والدي - حفظه الله - في تأسيس ودعم العديد من الجمعيات الخيرية والصحية والتربوية والثقافية في سوريا .

في نهاية عام واحد وتسعين ، تزوجت ابنتي الكبرى فاطمة (فاتن) من الشاب تامر فرزات، وب مجرد قبوله طالباً في كلية الاقتصاد بجامعة حلب عام اثنين وتسعين ، نقلتُ سكناهما من الرستن إلى مدينة حلب ، وبقيا مقيمين في حلب سبع سنواتٍ رزقاً خلالها ثلاث بنات، رنيم، وتسنيم، وعبير. ثم انتقلا إلى دمشق في عام ألفين حيث كان يؤدي خدمة العلم فيها ، وفيها رزقاً طفلهما الرابع محمد في نهاية عام واحد وألفين .

في عام تسعه وتسعين، قمت ببناء دارٍ جديدة للضيافة ، على الشارع الرئيسي ، في حي بنسко ، وهو من أجمل أحياي الرستن لكثره المساحات الخضراء فيه ، على مساحة تزيد عن ألف متر مربع ، وتضم جناحاً للرجال وآخر للنساء ، مُرحبةً بضيوفها طوال اليوم دون انقطاع، يعلو مدخلها شعارها المحفور على الحجر ، وهو قوله تعالى :

وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان
صدق الله العظيم



دار الضيافة وشعاراتها ، المدخل الرئيسي.

دار الضيافة - جانب من القاعة الكبرى



إن المضافة الجديدة، هي أقرب ما تكون إلى المنتدى الثقافي، الاجتماعي، لأبناء الرستن، فقد قمنا في هذه الدار بإحياء العديد من الأمسيات الثقافية، والندوات التي حضرها العديد من رجال الثقافة، والدين، إضافةً إلى العديد من الأمسيات الفنية وإحياء التراث، وقد حققت هذه الأمسيات كثيراً من أغراضها، ومنها تعارف النخبة الوعية المثقفة في المدينة على بعضهم، وتألفهم، وتمتين العلاقات في ما بينهم، وترميم علاقتهم القديمة، وتتجديدها، هذا فضلاً عن تدارس أوضاع مدينتنا، وما يمكننا أن نساعد في تطويرها وتحسين أحوال أبنائنا.

وفي نهاية عام ألفين ، وبمبادرة وتشجيع ومساهمة من والدي - وفقه الله - وعلى الجهة الغربية من شارع المضافة - البالغ عرضه حوالي سبعين متراً - في حي بسنكو وعلى أرض مساحتها حوالي ألف متربعاً ، كان والدي قد اشتراها ، قبل عدة سنوات تقع جنوب دار الضيافة بحوالي خمسمائة متر ، وجنوبي داري بحوالي ألف متر ، بدأنا ببناء مُجمّع جامع المَحْمُود .

كان علي أن اختار النموذج الأفضل لهذا الجامع ، المُجمّع . وقد تم التعاقد مع خيرة المهندسين المدنيين ، والمعماريين ، لوضع تصميم يليق ببيت الله ، وليواجه الأنواء والزلزال والزمن ما أمكن .

بعد العديد من المداولات تقرر أن يتم بناء مُجمّع الجامع ، وفقاً للهندسة المعمارية العثمانية ، وما ورثته من تراكم للخبرات ، والتراث الهندسي ، التي جمعها الإنسان في القسطنطينية سابقاً (استانبول حالياً) .

وكذلك الاستفادة من تصميم وهندسة مبني جامع سيدنا خالد بن الوليد (رضي الله عنه) في حمص . الذي بني بالحجر الأسود ، أما الحجر الأبيض فكان مكملاً لبنيائه ، وهذا يعود إلى توفر الحجر الأسود في حمص بكثرة ، وندرة وجود الحجر الأبيض ، لذلك كان الأسود أساساً ، والأبيض مكملاً .

أما في جامع المحمود بالرستن فقد تم البناء بالحجر الأبيض ، وكان الأسود تكميلاً وليس سبب ذلك يعود لما ذكرناه في بناء جامع خالد بن الوليد (رضي الله عنه) .

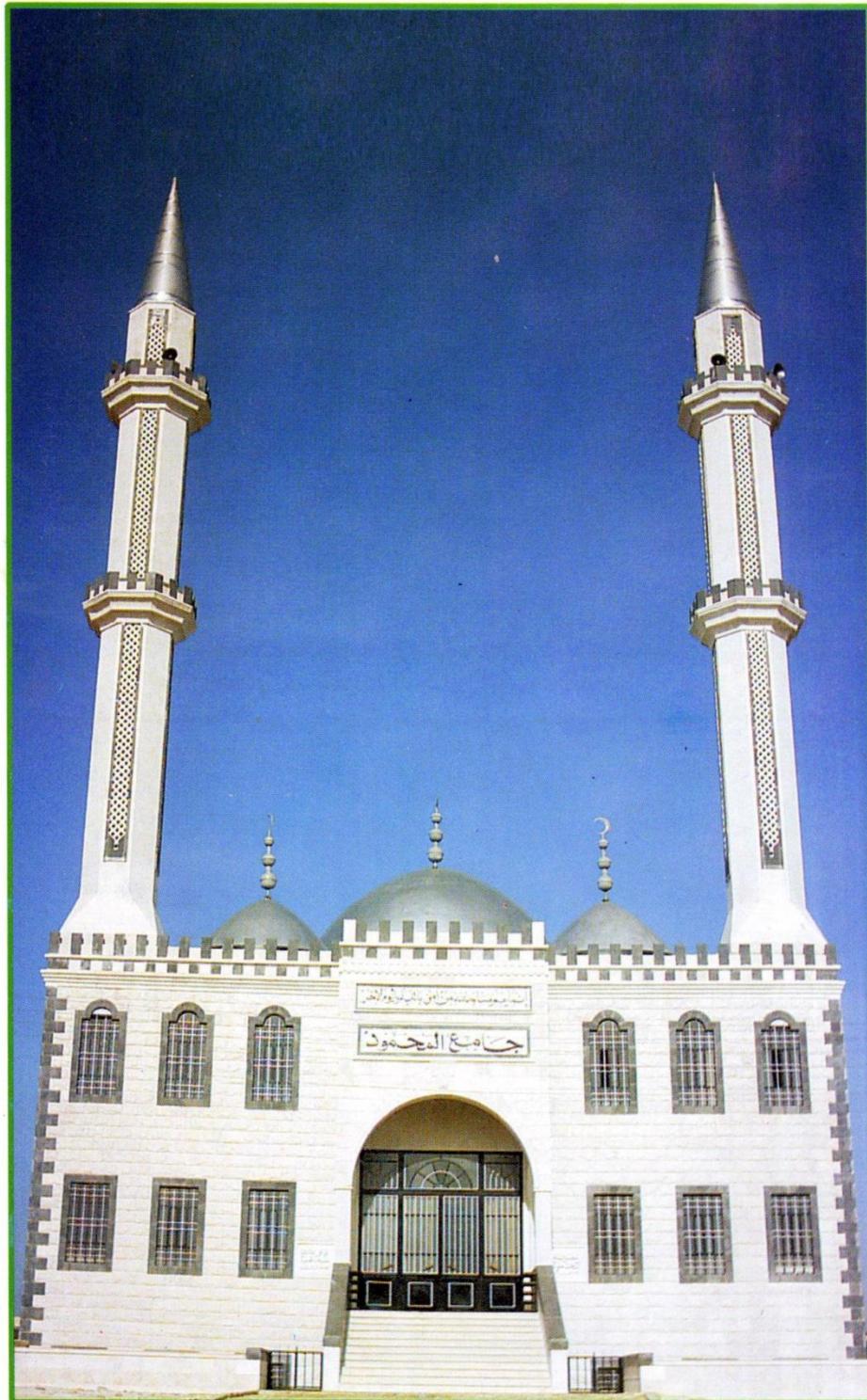
فالحجارة البيضاء التي بني بها جامع محمود ، ليست متوفرة في منطقة الرستن ، بل تم إحضارها إلى الجامع من أماكن تواجدها ، جنوب مدينة حلب .

بني الجامع وفق أفضل المعايير الإنسانية المعروفة ، بحيث يقاوم الزلازل حتى الدرجة ستة على مقياس ريختر ، فقد تم إزاحة طبقات الأرض الرخوة ، إلى أن ظهرت الطبقة الصخرية الصلدة على عمق قدره حوالي ستة أمتار ، حيث صُبَّت القواعد الإسمنتية داخل هذه الطبقة الصخرية ، وغُطِّي ما تبقى من هذه الطبقة برقائق عازلة من البروبيلين (النايلون) لمنع نفوذ الرطوبة من الطبقة الصخرية إلى الأعلى ، ثم صُبَّ فوق هذه الرقائق طبقة سميكة من الإسمنت المسلح ، بحيث أصبحت قواعد أعمدة المبنى وكأنها قاعدة واحدة .

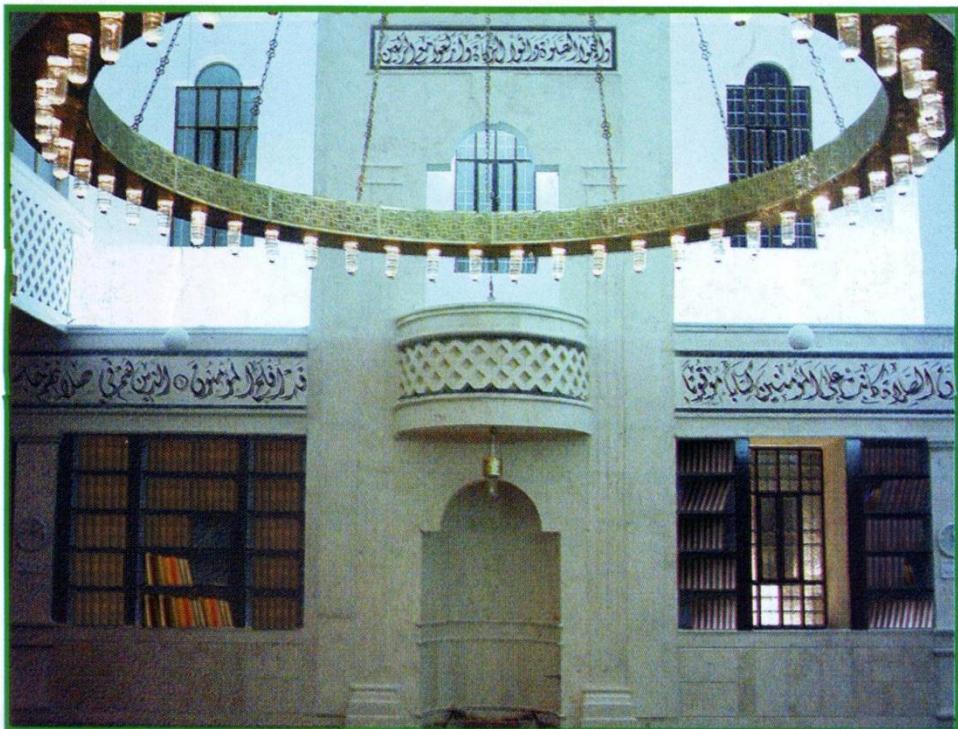
وقد أُعدت مخططات الجامع الإنسانية على أساس عدم وجود أية أعمدة داخل المصلى الكبير وتحت قبابه الخمسة . مما جعل كلفة البناء على الهيكل أكثر من ضعفي بناء جامع بنفس مساحته ، فيما لو بني بالطريقة الإنسانية العادلة . أما الجسور العملاقة فقد عَلَّت السطح الأخير ما بين قبابه المذكورة .

مئذنتي الجامع المثمّنـي الأضلاع والمقامتين في الجهة الشرقية منه ، يزيد ارتفاع كل واحدة منها عن سبعة وأربعين متراً ، مبنـيتـين من الحجر الأبيض والأسود ، يعلو كلاً منها مخروط من الحديد غير قابل للصدأ (ستانلس ستيل) ارتفاعه حوالي السبعة أمتار ويعـلوـ كلـ مـخـروـطـ منـهـماـ مـاـصـةـ لـلـصـوـاعـقـ . وـتـزـيدـ هـاتـانـ المـئـذـنـتـانـ الجـامـعـ جـمـلاـ وـرـوعـةـ .

يتـأـلـفـ جـامـعـ المـحـمـودـ منـ المـصـلـىـ الـكـبـيرـ ، الـذـيـ يـقـعـ مـدـخـلـهـ مـنـ الـجـهـةـ الشـرـقـيـةـ المـطلـةـ عـلـىـ شـارـعـ المـضـافـةـ ، قـبـلـ مـسـاحـتـهـ ، وـبـدـوـنـ أـعـمـدـةـ -ـ حـوـالـيـ أـرـبعـمـائـةـ مـترـ مـرـبـعـ ، تـعـلـوـهـ خـمـسـةـ قـبـابـ ، أـرـبـعـةـ قـطـرـ كـلـ مـنـهـاـ خـمـسـةـ أـمـتـارـ ، تـتوـسـطـهـاـ الـقـبـةـ الـمـرـكـبـةـ الـبـالـغـ قـطـرـهـ عـشـرـةـ أـمـتـارـ . وـسـدـدـةـ لـلـنـسـاءـ ، وـهـيـ مـصـلـىـ مـعلـقـ ، تـؤـديـ فـيـهـ النـسـاءـ الـصـلـوـاتـ الـجـامـعـةـ ، وـتـبـلـغـ مـسـاحـةـ السـدـةـ حـوـالـيـ مـائـةـ وـثـلـاثـيـنـ مـترـاـ مـرـبـعـاـ .



جامع المحمود ، الواجهة الشرقية.



جامع المحمود ، المصلى الكبير ، المحراب .



جامع المحمود ، المصلى الكبير ، من الداخل .

وقد تدللت من القباب الأربع ، ثريات من النحاس الخالص ، كل منها طبقتان ، قطر الطبقة العليا متراً وربع ، تدللت كل واحدة من القبة ، بثماني سلاسل نحاسية ، و قطر الطبقة السفلية ، مترین ونصف ، تدللت كل واحدة من الطبقة العليا ، بثماني سلاسل نحاسية . لتنتهي كل طبقة بدائرة نحاسية تتألّأ جوانبها بمصابيح الإنارة .

أما القبة المركزية ، فتدللت منها ثريا عملاقة ، مكونة من ثلاثة طبقات ، العليا قطرها متراً وربع ، مدبلة من القبة بست عشرة سلسلة نحاسية ، والطبقة الوسطى قطرها ، مترین ونصف ، مدبلة من الطبقة العليا بست عشرة سلسلة نحاسية ، وأخيراً الطبقة السفلية وقطرها خمسة أمتار مدبلة من الطبقة الوسطى بست عشرة سلسلة أيضاً ، ترصعت طبقاتها الثلاثة على التوالى باثنى عشر ، وأربعة وعشرين ، وثمانية وأربعين مصباحاً ، ضمن قوارير زجاجية مذهبة تشد الناظرين . كما يوجد خمسة مصابيح جدارية مدبلة ، من نفس التصميم والنوعية ، تضفي على المصلى أبهة و جمالاً .

يتوسط جدار المصلى ، وعلى كامل مساحته ، ألواح حجرية بيضاء ، بارتفاع يزيد على ثلاثة أمتار محفور عليها آيات مختارة من القرآن الكريم مكحلة باللون الأسود . وتحت هذه الآيات وعلى كامل مساحة جدران المصلى ، توجد رفوف من الرخام والخشب تضم الآلاف من أمهات الكتب الإسلامية والتاريخية وغيرها ، يمكن لجميع الناس استعارتها للاستفادة مما بين دفتيها .

أما المصلى الصغير فيقع في الطابق الأرضي من الجامع ، مساحته حوالي مائة وعشرين متراً مربعاً ، تقام فيه الصلوات الخمس ، إضافةً إلى الصلوات الجامعة ، عند الحاجة . ويقع أمامه المصلى المكشوف ، ومساحته حوالي مائة وستين متراً مربعاً ، أي أن الجامع يتسع عند الازدحام لحوالي ألف ومائتي مصلي و مصلية . وقد فرشت المصليات الثلاثة ، بالحصر الجيدة ، المغطاة بالسجاد الصوفي ، المؤوشى بالرسوم النباتية ، يحدد وقوف المصلين عليه رسم من النقوش الإسلامية الجميلة ، مكملاً جمال الجامع وروعته . وقد تم تصنيعه ، خصيصاً لمصليات الجامع ، في الشركة العامة للسجاد بدمشق ، حيث بذلت إدارة الشركة و العاملين فيها ، جهوداً كبيرة ،

لإنتاج تصاميم ونوعية السجاد اللائقة بهذا الجامع . جزاهم الله عن المسلمين كل خير . كما يضم الطابق الأرضي للجامع في الجهة الشرقية موضأ للرجال ، وآخر للنساء من الجهة الشمالية، وسكنًا للخطيب ، يتكون من ثلاث غرف ومتماماتها ، ومكتبًا مستقلًا ، وجميعها ذات مدخل مستقل ، من الشارع الشمالي .

وكذلك .. يضم مجمع جامع المحمود في الجهة الجنوبية من الطابق الأرضي ، فرع المرحوم المهندس زياد طلاس فرزات وهو فرع للمعهد العلمي الشرعي في حمص ، والتابع لجمعية علماء المسلمين فيها ، وقد تم افتتاحه للدراسة في خريف عام ثلاثة وألفين للميلاد ، حيث استقبل خلال السنة الأولى ، فقط طلاب الأول الإعدادي بشعبتين ، الأولى للبنات ، بدوام صباحي والثانية للبنين ، بدوام يبدأ بعد منتصف النهار على أن يضم في السنوات اللاحقة طلاب الثاني والثالث الإعدادي . افتتح هذا الفرع ، بموجب محضر اتفاق ، تم توقيعه بين والدي الشيخ سليمان - حفظه الله - وسماحة مفتى حمص ، الشيخ الجليل الأستاذ فتح الله القاضي ، الذي يقوم بنفس الوقت بمهام مدير المعهد العلمي الشرعي بحمص ، وكذلك مدير فرع المهندس زياد طلاس فرزات في الرستن ، حيث يبين هذا المحضر ، أن مسؤولية الشيخ سليمان وورثته إضافة إلى تقديم مبني فرع المعهد وتأثيثه ، دفع رواتب وأجور إدارة الفرع ، والمدرسين ، والمدرسات ، والمستخدمين ، وكذلك المنح الشهرية للطلاب والطالبات . أما مهام سماحة المفتى ، وإدارة المعهد العلمي الشرعي في حمص ، فتتحصر في المهام الإدارية والتربية والتعليمية . وقد أنيط الإشراف على الفرع ، بمجلس للأمناء ، مكون من مُمثلين مؤهلين عن الشيخ سليمان وورثته ، وسماحة مفتى حمص ، وسعادة مدير الأوقاف فيها . وفيما يلي صورة لهذا المحضر ، بصفحاته الثلاثة .

لإنتاج تصاميم ونوعية السجاد اللائقة بهذا الجامع . جزاهم الله عن المسلمين كل خير . كما يضم الطابق الأرضي للجامع في الجهة الشرقية موضاً للرجال ، وآخر للنساء من الجهة الشمالية، وسكنى للخطيب ، يتكون من ثلاث غرف ومتماماتها ، ومكتباً مستقلاً ، وجميعها ذات مدخل مستقل ، من الشارع الشمالي .

وكذلك .. يضم مجمع جامع محمود في الجهة الجنوبية من الطابق الأرضي ، فرع المرحوم المهندس زياد طلاس فرزات وهو فرع للمعهد العلمي الشرعي في حمص ، والتابع لجمعية علماء المسلمين فيها ، وقد تم افتتاحه للدراسة في خريف عام ثلاثة وألفين للميلاد ، حيث استقبل خلال السنة الأولى ، فقط طلاب الأول الإعدادي بشعبتين ، الأولى للبنات ، بدوام صباحي والثانية للبنين ، بدوام يبدأ بعد منتصف النهار على أن يضم في السنوات اللاحقة طلاب الثاني والثالث الإعدادي . افتتح هذا الفرع ، بموجب محضر اتفاق ، تم توقيعه بين والدي الشيخ سليمان - حفظه الله - وسماحة مفتى حمص ، الشيخ الحليل الأستاذ فتح الله القاضي ، الذي يقوم بنفس الوقت بمهام مدير المعهد العلمي الشرعي بحمص ، وكذلك مدير فرع المهندس زياد طلاس فرزات في الرستن ، حيث يبين هذا المحضر ، أن مسؤولية الشيخ سليمان وورثته إضافة إلى تقديم مبنى فرع المعهد وتأسيسه ، دفع رواتب وأجور إدارة الفرع ، والمدرسين ، والمدرسات ، والمستخدمين ، وكذلك المنح الشهرية للطلاب والطالبات . أما مهام سماحة المفتى ، وإدارة المعهد العلمي الشرعي في حمص ، فتتحصر في المهام الإدارية والتربيوية والتعليمية . وقد أنيط الإشراف على الفرع ، بمجلس للأمناء ، مكون من ممثلين مؤهلين عن الشيخ سليمان وورثته ، وسماحة مفتى حمص ، وسعادة مدير الأوقاف فيها . وفيما يلي صورة لهذا المحضر ، بصفحاته الثلاثة .

بسم الله الرحمن الرحيم

محضر اجتماع ما بين

الشيخ سليمان محمود	فضيلة الشيخ الأستاذ
طلاس فرزات وأولاده	فتح الله القاضي
المتبرع ببناء وتأثيث مجمع	مفتى حمص
جامع محمود بالرسن	رئيس هيئة العلماء المسلمين
مفوضاً إبنه الفاضل الأستاذ	ومدير المعهد العلمي الشرعي
الدكتور محمود طلاس فرزات	في حمص

في مدينة حمصاليوم الخميس الخامس والعشرين من جمادى الأولى لعام ألف وأربعين وأربعة وعشرين هجرية الموافق الرابع والعشرين من تموز لعام ألفين وثلاثة ميلادية ، اجتمع سماحة الشيوخين الفاضلين المذكورين أعلاه في رحاب جامع سيدنا خالد بن الوليد بحمص واتفقاً على ما يلي :

أولاً : بهدف المساهمة في بناء جيل مؤمن و مسلم و وطني و إنساني بما في ذلك نشر الثقافة القائمة على العقل والعلم والمحبة ، ورغبة في الحصول على رضى وقبول الله الرحمن الرحيم ، يتم التعاون على تأسيس :

فرع للمعهد العلمي الشرعي بحمص باسم
المرحوم المهندس زياد طلاس فرزات

الصفحة الثانية

ثانياً : بتوفيق من الله جل جلاله قام الشيخ سليمان محمود طلاس فرزات وأولاده ببناء وتأسيس مجمع جامع محمود في مدينة الرستن والذي يضم :

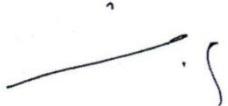
- أ - المصلى الكبير.
- ب - المصلى الصغير.
- ج - مكتبة إسلامية جامعية.
- د - مكتب الإفتاء.
- ه - سكن إمام الجامع.
- و - فرع المعهد ويضم أربعة قاعات مساحة كل منها حوالي خمسة وثلاثين متراً مربعاً ، وباحة مكسوفة مساحتها حوالي مائة متر مربع ، له مدخل مستقل عن الجامع ، ويقع في القسم الجنوبي من الطابق الأرضي ، يمكنه أن يضم ستة شعب إضافة إلى الإدارة ، بدوابين صباحاً وبعد الظهر .

ثالثاً : بإرادة الله سبحانه وتعالى يقوم الشيخ سليمان محمود طلاس فرزات وورثته ما أمكنهم ذلك من الناحية المادية بما يلي :

- أ - ترشيح الإدارة والمدرسين والعاملين على خدمة الفرع ، من ذوي الكفاءات العلمية والسمعة الحسنة والخلق القويم .
- ب - إضافة إلى البناء والأصول الثابتة يقوم بالطبع بتأسيس الفرع بما يحتاج إليه وكذلك دفع منح مالية للإدارة والمدرسين والطلاب (ذكوراً وإناثاً) والعاملين على خدمة الفرع ، وفق النظام المعمول به لدى المعهد بحمص .

رابعاً : تقوم إدارة المعهد العلمي الشرعي المؤقتة بحمص بما يلي :

- أ - تسمية الإدارة والمدرسين والعاملين على خدمة الفرع الذين تم ترشيحهم وفق الفقرة (ثالثاً أ -) ، إذا وجدوا وإلا فقوم إدارة المعهد باختيار من تحتاجه إلى هذه المهمة بالتشاور مع الشيخ سليمان محمود طلاس فرزات وورثته المفوضين .
- ب - الإشراف العلمي والمالي والإداري على الفرع .




الصفحة الثالثة

خامساً : يباشر الفرع نشاطه التربوي اعتباراً من مطلع العام الدراسي الرسمي لعام ألفين وثلاثة ميلادية .

سادساً : يشكل مجلس أمناء الفرع من أصحاب السماحة :

- أ - فضيلة الشيخ الأستاذ مفتى حمص .
- ب - اثنين من ورثة الشيخ سليمان محمود طلاس فرزات المؤهلين .
- ج - فضيلة الأستاذ مدير أوقاف حمص .

يعتبر مجلس الأمناء هيئة استشارية لشؤون الفرع يجتمع مرة في السنة ، أو بدعوة أحد أعضائه عند الضرورة .

سابعاً : فيما لم يرد في هذا المحضر ، يخضع الفرع إلى النظام الداخلي للمعهد العلمي الشرعي بحمص ، بما لا يتعارض مع الأنظمة والقوانين المعمول بها في الجمهورية العربية السورية .

والله ولي التوفيق .

الشيخ سليمان محمود
طلاس فرزات وأولاده
المتبرع ببناء وتأثيث مجمع
جامع محمود بالرستن
مفوضاً إبنه الفاضل الأستاذ
الدكتور محمود طلاس فرزات

فضيلة الشيخ الأستاذ
فتح الله القاضي
مفتى حمص
رئيس هيئة العلماء المسلمين
ومدير المعهد العلمي الشرعي
في حمص

وبعد إتمام إنجاز جامع المحمود وتأييشه ، أقيمت به أول صلاة الجمعة . كان ذلك في الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة ، في العام الرابع والعشرين وأربعين وألف للهجرة ، الموافق للسادس عشر من شهر كانون الثاني ، لعام أربعة وألفين للميلاد بحضور سماحة مفتى حمص الشيخ الأستاذ فتح الله القاضي ، والدي الشيخ سليمان قام سماحة مفتى حلب ، الشيخ الدكتور أحمد حسون بإلقاء أول خطبة الجمعة فيه.

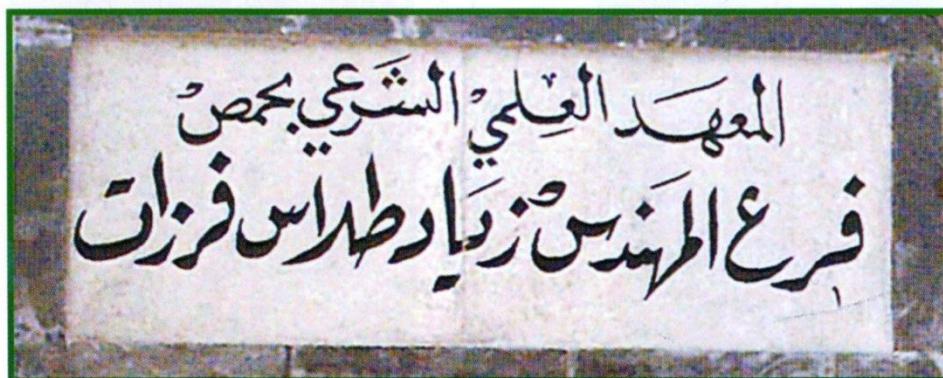
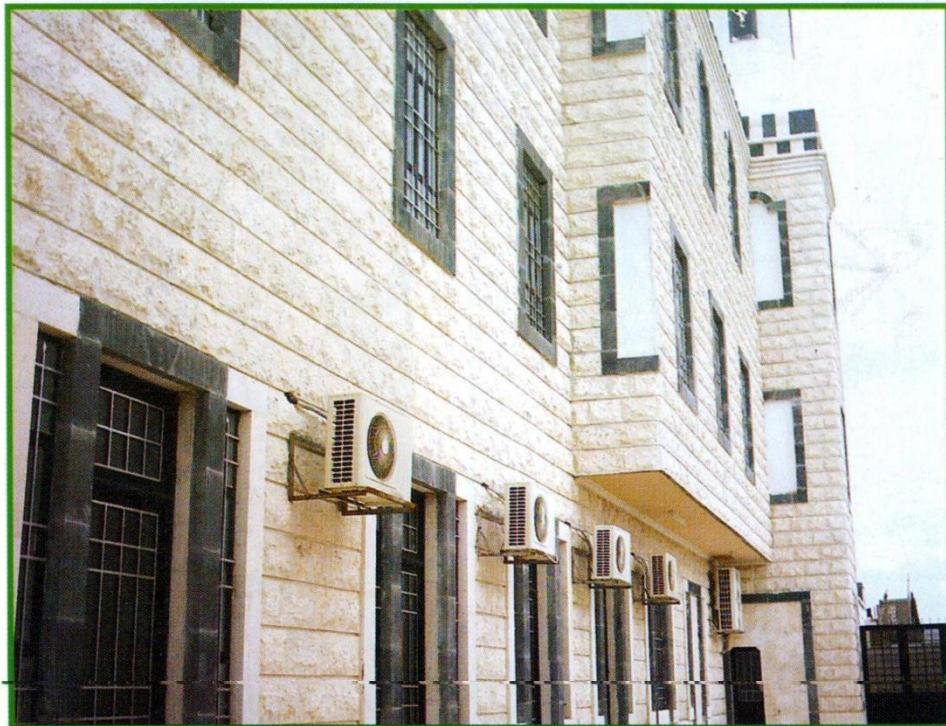
برغم البرد الشديد والأمطار الغزيرة ، فقد كان افتتاحاً حاشداً ، فنسبة كبيرة من المصليين الذين قدموا لصلاة الجمعة ، لم يتمكنوا من الدخول إلى حرم الجامع ، بسبب الزحام الشديد ، والكثير منهم - كي لا تفوته الصلاة - ذهب للصلوة في المساجد القريبة في المدينة . وتابع معظم سكان الرستن ، رجالاً ونساءً ، خطبة الجمعة عبر مضخمات الصوت المعلقة على مآذن الجامع .

رغم أن الخطبة كانت طويلة ، وقد استغرقت حوالي الساعة والنصف ، إلا أن المصليين لم يشعروا بأن الخطيب قد أطّال . وقد كان موضوع الخطبة : بناء المساجد ، وبناء إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، للبيت العتيق بمكة أعاشرنا الله على حمياتها .

لقد سرني ذلك كثيراً ، وتمنيت لو أنها قمنا بهذا الإنجاز ، من وقت بعيد . ودعوت الله أن يقبل هذا العمل الذي أقيم خالصاً لوجهه تعالى ، وأن يكون خيراً على أسرتنا وجميع أبناء وبنات الرستن وما جاورها وجميع من يؤمّه ويقصده .

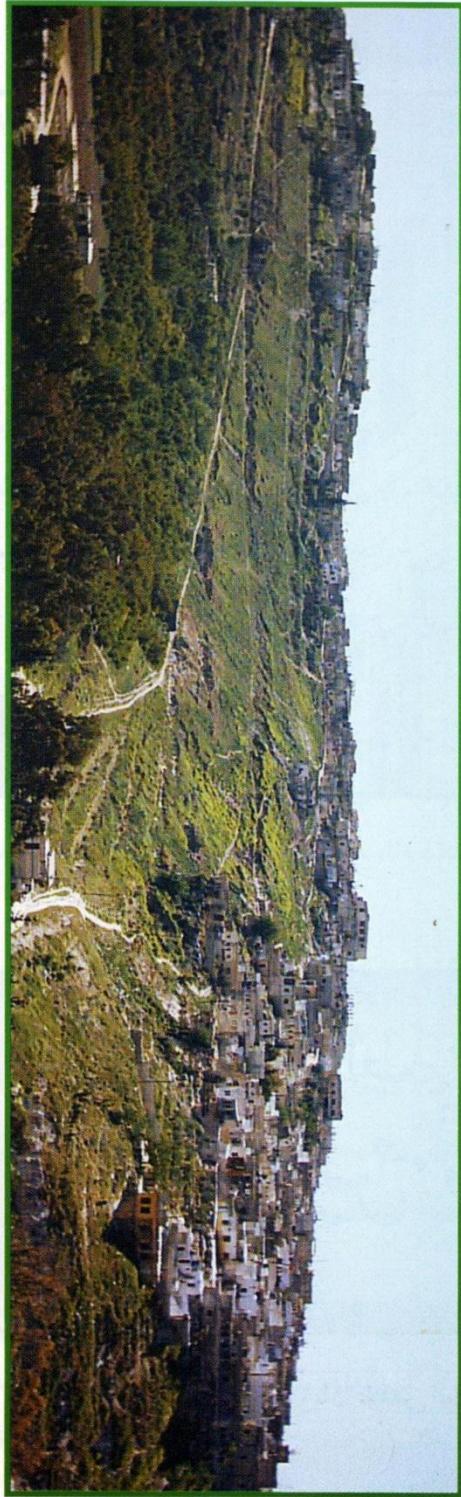
منظراً الجامع وقد خص بالمصلين أمر يبعث على البهجة ، ويؤكد التزام المسلمين والمسلمات في مدینتنا بفرائض الإسلام الحنيف ، والمحافظة عليها ، كان حدثاً أثار في السعادة ، فالشكر لله على نعمه .

إن افتتاح فرع للمعهد العلمي الشرعي في مجمع جامع المحمود ، هو عمل نوعي عظيم ، سوف يساهم - إن شاء الله - في تطوير مجتمع الرستن . فالفرع ، مؤسسة تربوية ، تعليمية ، إسلامية ، المقصود منها المساهمة في بناء جيل مؤمن مثقف بالثقافة

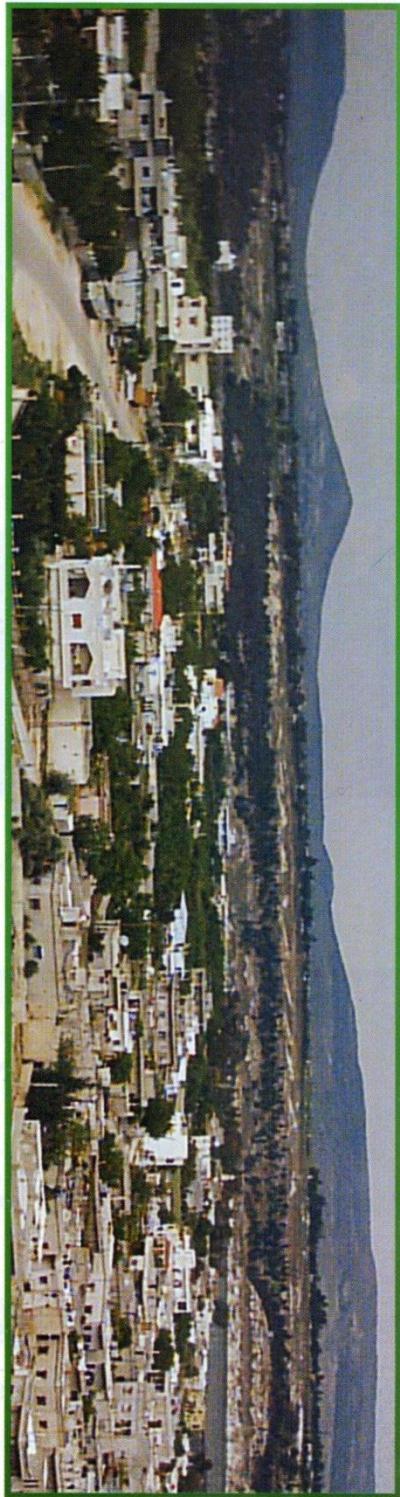


معهد المهندس زياد طلاس فرزات العلمي الشرعي ، ولوحته

الجهة الشمالية الشرقية للرسين ، ويبدو طريق المدرج وطريق عين التين.



حي بستكو ، وبتهور خلفه جانب من بحيرة سد الرستن .



الإسلامية القوية ، من أبناء مدينة الرستن وما جاورها ، وخصوصاً البنات ومالهن من أثر كبير في إعداد الأجيال الصالحة ، فهن بنات اليوم ، وأمهات المستقبل :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

إن ما يميز مجمع جامع محمود ، وجود مكتبة إسلامية جامعة فيه ، تضم الآلاف من الكتب القيمة يمكن للناس الاستعارة منها ، وإعادتها بعد دراستها .

يمكنني القول : أن جامع محمود هو أول جامع في المنطقةبني و شكله النهائي وتأثيره وإنما لا ته معروفة قبل أن توضع فيه لبنة واحدة ، ويعتبر من المعالم المعمارية المميزة في مدينة الرستن وما جاورها .

قام الشيخ سليمان وأولاده - جراهم الله خيرا - بدفع كامل نفقات أرض وبناء مجمع الجامع ، وكذلك جميع تجهيزاته وأثاثه ، ومكتتبته ، وفرع المرحوم المهندس زياد طلاس فرزات للمعهد العلمي الشرعي .

حيث قام العديد من السادة المهندسين بوضع المخططات الإنسانية ، والمعمارية والكهربائية ، والصحية ، التفصيلية لمجمع الجامع ، وقام الأستاذ المهندس المعماري سمير علي طوقاتلي ، متربعاً دون مقابل مادي بالإشراف على جميع مراحل بناء هذا المجمع ، يساعدته في ذلك المهندس المدني زياد مجر بإجراء كامل ما لزم من تطوير وتعديل للمخططات المدنية ، والمعمارية ، مقدمين كامل خبراتهم ، وتجاربهم في التنفيذ والمتابعة باذلين أقصى جهودهم ليل نهار ، لإنجاز هذا المجمع ، بالسرعة القصوى والنوعية الممتازة كما قام الحاج المهندس محمد عامر الزعيم بالإشراف على تنفيذ دارات التدفئة والتبريد، جراهم الله عنا وعن المسلمين كل خير .

ولعل من الميزات التي يسرّني ذكرها تصميمي للثريات ، فقد قمت بوضع تصميم خاص لها ، متأثراً بما شاهدته في جوامع استنبول بتركيا وجامع محمد علي بالقاهرة، وأضفت الكثير عليها ، وتم تصنيع الثريات الخمسة مضافاً إليها اثننتين في سدة النساء ، فالمجموع سبع ثريات، من النحاس الخالص ذو التراث الإسلامي

العربيق ، القديم المتجدد الذي يعطيك معنى الحداثة في جلال القديم هيبة وقاراً. كانت الثريات السقفية الخمسة المعلقة في قباب الجامع الخمسة ، وجدرانه النافرة من الداخل ، لوحة جمالية ، تناصت أشكالها ، وتناغمت مع ما حولها ، لتعطي الجامع منظراً يبعث على الخشوع ، ويحلق بالإنسان في ملوكوت الله ، فقد تزاوجت في الجامع من الداخل الأناقة ورشاقة التصميم والرزانة . خصوصاً لونه الأبيض الفضي والآيات القرآنية التي حفرت على جدرانه ، مكحلة باللون الأسود ، ومنبره المعلق ، ورفوف وأطراف مكتباته الخشبية البنية اللون ، ومحرابه الذي دخل في جوف القبلة .

ضدان لما استجمعا حسناً

فإذا علمت أن اللون الأبيض الفضي ، هو لون حجارة الجامع من الخارج ، والداخل عرفت كم يعطي اللون الأسود من جمال ، وكم يضفي على الجامع من هيبة وقاراً . إذا نظرت إلى سقف الجامع ، فهناك القباب الخمسة ، وهي القبة الكبرى في وسط الجامع وقطرها عشر أمتار ، وقبتان إلى الغرب ، وقبتان إلى الشرق ، قطر كل منها خمسة أمتار صُممَت بإتقان وروعه ، وقد أبدعت يد الصانع الماهر في التصميم والتنفيذ حتى جاءت هذه القباب على ما هي عليه من جمال وتناغم ، وتدلت منها الثريات المعلقة بالسلالس بحيث تدلّت كل واحدة من تلك الثريات من مركز القبة . وقد وزّعت النوافذ المستطيلة الشكل في جدران الجامع من كل الجهات ، بحيث تدخله الشمس في كل ساعات النهار ، معطية إضاءة كاملة دون إبهار . أما صوت الخطيب فيصل إلى جميع أنحاء المصلى ، سواء عملت أجهزة الصوت الحديثة فيه أم لم تعمل .

والشمس رأد الضحي كالشمس في الطفل

من جهة الغرب ، حيث تشرف الرستن على سهولها الغربية ، تستقبل الرياح ، وتفتح صدرها بحنان للقادمين . على رابية ارتفعت بما حولها قليلاً ، يطالعك جامع محمود ، بعياته البيضاء المطرزة بالأسود وقبابه الخمسة ، ومئذنته العملاقتين ،

وقد بسقنا علوًّا تناطحا السحاب ، وتشعان نورًا على كل الجهات ، فainما وقفت في جنوب الرستن أو في شمالها في رأس التل على السد أو جسر الطريق الدولي ، ونظرت نهاراً أو ليلاً رأيتَ جامع المحمود بقامته الباسقة وعباته البيضاء .

يقع الجامع على الجانب الغربي لشارع المضافة الذي ينتهي شمالاً بسد الرستن - والذي يبلغ عرضه حوالي خمسة وستين متراً - مطلًا على كامل المدينة ، مذكراً سكانها وزوارها بأن بيت الله هو الأكبر والأجمل . تدخل الجامع من جهة الشرق عبر مدخل عريض يتدرج علوًّا إلى الباب الكبير الذي يدخل منه المصلون ، وقد استطال الجامع شرقاً وغرباً ، حيث أن المسافة أكبر من مسافته جنوباً وشمالاً . أما جدران مصلاه الكبير ، فقد صممت فيها خزائن محفورة في الحائط ، على شكل مستطيلات مقسمة إلى عدة أقسام ، بزخرفة هندسية متماثلة بدت وكأنها محفورة في الحائط حفراً ، وانتظمت بشكل متناسق من جهات الجامع الأربع ، لتكون رفوفاً لمكتبه وحاضنة لأجهزة التبريد والتడفئة . وتقرباً من الله العلي القدير وبراً بالوالدين قام والدي الشيخ سليمان ، بتسميته جامع المحمود ، باسم والده الحاج محمود الإبراهيم ، والمحمود ، هو أحد أسماء رسولنا صلى الله عليه وسلم . توفي جدي الحاج محمود في مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين ، وقد ذكر لي العديد من معاصريه أنه كان رجلاً صالحًا ورعاً ، محباً للخير ومساعدة الناس على حل مشكلاتهم والتحفيف من مصائبهم ، يقول رأيه في نصرة الحق وردع الظلم ، لا تأخذه في ذلك لومة لائم ، وأنه تزوج بأكثر من عشرة نساء ورُزق العديد من الأولاد مات معظمهم صغاراً وأرسل خلال الحرب العالمية الأولى اثنين منهم إلى الأرجنتين ، حيث بقيا هناك ولم يعودا ، أما والدي فهو أكبر أشقائه الحاج خالد وال الحاجة مريم وال الحاجة وضحة من آخر زوجات جدي الحاجة فطيم شهاب ، رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح جناته . إضافةً إلى الزراعة ، التي كان جدي يعمل بها ، شأنه في ذلك شأن معظم سكان الرستن . كان لديه العديد من الجمال ، يرسلها إلى لبنان وفلسطين محملاً بالحبوب وتعود إليه محملةً بالخضروات والفواكه .

إن قيمة أية أمة وغناها ، تأتي من قيمة أفرادها وغناهم . وبقدر ما يكون أفراد الأمة أقوياء ، بقدر ما تكون الأمة قوية . هم الذين يبنون مجدها ويدافعون عن وجودها وقيمها ومعتقداتها ، ومن صحيح التاريخ تعلمنا أنه لم يكن في يوم من الأيام لقيم الشعوب الضعيفة مكان تحت الشمس ، وقد عرَّفنا الإسلام طعم قوة الحق ، وحملنا ربنا العلي القدير مهاماً جساماً بأن بعث فينا خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، مما أكثر أعداءنا والطامعين فينا .

لا يحمل الأفكار والقيم العظيمة إلا الشعوب العظيمة التي تحمل مسؤولياتها وتواجه تحديات أعدائها ، وإذا لم تكن بم مستوى هذه التحديات فان عاقبتها وخيمة ، فلن يتركها أعداؤها حتى لو حاولت التخلص من قيمها والتظاهر بمعاداتها .

إن نصرة الأفكار العظيمة عمل إنساني خلاق ، لا يتم إلا بالعمل الجاد والدؤوب ولأجيال عديدة ، بشكل يقرن القول بالفعل . لقوله تعالى :

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ

صدق الله العظيم



المؤلف في سطور

- ولد الدكتور محمود فرزات في الرستن ، في السادس من آذار عام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف .
- تزوج عام اثنين وسبعين ، من قرينته السيدة مريم ، ورزقه الله فاطمة (فاتن) في عام ثلاثة وسبعين ، وكندة في عام تسعة وسبعين ، ومُضر في عام واحد وثمانين .
- والده : الشيخ سليمان محمود طلاس فرزات .
- والدته : الحاجة فاطمة الشيخ علي .
- أشقاوه : الدكتور قاسم ، وال حاج محمد (عدنان) ، والمرحوم المهندس زياد .
- شقيقاته : الحاجة زهرة ، وال الحاجة حليمة ، وال الحاجة عائشة ، وال الحاجة هند ، وال الحاجة رقية ، وال سيدة انتصار ، وال الحاجة نادرة .
- أتم دراسته الابتدائية في مدارس الرستن عام ستين .
- أتم دراسته الإعدادية والثانوية في مدارس مدينة حمص الحكومية حيث حصل على الشهادة الثانوية العامة - الفرع العلمي - عام ثمانية وستين من ثانوية رفيق رزق سلوم .

- حصل على الإجازة في العلوم الكيميائية من جامعة دمشق عام اثنين وسبعين .
- عمل في مصافة النفط بحمص حوالي أحد عشر شهراً ، خلال عامي ، اثنين وسبعين و ثلاثة وسبعين .
- اتبع دورة في مجال الأمن الصناعي ، لدى منظمة اليونيدو، التابعة لـ هيئة الأمم المتحدة ، عام ثلاثة وسبعين.
- انتُخب رئيساً للمكتب الإداري لفرع الاتحاد الوطني لطلبة سوريا في رومانيا لدورة عام أربعة وسبعين .
- انتُخب عضواً في الهيئة الإدارية ، للاتحاد الوطني لطلبة سوريا في دمشق لدورة عام خمسة وسبعين .
- حصل على شهادة دكتوراه فلسفة ، في العلوم الكيميائية، من معهد البولي تكنيك في بوخارست ، عام ثمانية وسبعين.
- عمل في الشركة العامة للأسمدة بحمص ، لمدة أربعة أشهر خلال عام تسعة وسبعين .
- اتبع دورة في مجال الإدارة الصناعية في بريطانيا ، عام تسعة وسبعين .
- أسس في رومانيا شركة جي تي سي سي عام واحد وثمانين.
- اتبع دورة في مجال العلاقات الاقتصادية الدولية ، في سويسرا عام اثنين وثمانين .
- أسس في سوريا شركة فرزات للتنمية عام تسعين .

- أسس في رومانيا شركة فاروتي - قطاع مشترك - عام تسعين .
- أسس في سورية شركة فرزات للنقل في مطلع عام اثنين وتسعين.
- أسس في سورية شركة فرزات للصناعات الغذائية ش . م . م .
(فامكو) في نهاية عام اثنين وتسعين .
- أسس في لبنان شركة فرزات للتنمية عام سبعة وتسعين .
- اتبع دورة في العلاقات التجارية الدولية في دبي ، عام واحد وألفين .
- اتبع دورة في مجال اقتصاديات الحبوب والزيوت الغذائية، في رومانيا عام ثلاثة وألفين .
- يشارك في إدارة عدة مؤسسات اقتصادية دولية .
- رئيس مجلس إدارة مجموعة فرزات للتنمية في سورية.